مسلمون ضد الإسلام

مُحمّد الدُويك

كيان للنشر والتوزيع

مسلمون ضد الإسلام

مسلمون ضد الإسلام
تأليف :
محمد الدويك
تحرير أدبي:
سندس جمال الحسيني
مراجعة لغوية:
محمد حمدي

رقم الإيداع:2016/19478
الترقيم الدولي:978-977-6376-97-7
إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

***

مسلمون ضد الإسلام
محمد الدويك

إهداء

إلى أمي؛ تحملتني على كل علاتي، عندما كنت صغيرًا جهولاً كثير المتاعب، وعندما كنت متعصبًا مندفعًا كثير المشكلات، وعندما صرت متفلسفًا أتهمها بعدم الفهم؛ كم كنت مزعجًا ووقحًا وناكرًا للفضل.

لكنها دومًا كانت تقدم لي الحب كما تقدم لي الطعام، والدعوات الطيبة، ونظرات الحنان والرعاية تلاحقني من ظهري، وأنا أتركها في بلدتي الصغيرة في الشمال وأقود سيارتي إلى العاصمة، أبحث عن فرصة للحياة وسط ملايين البشر.

أذكرها تمشي إلى جوار السيارة، حافية، تخنق الدموع، وتتمتم إلى السماء أن تحفظ ابنها الوحيد، نور عينيها الذي ترى به الحياة، وتلف رأسها بطرحة مسرعة، تشبكها بمشبك غسيل وجدته في طريقها، بينما خصلتا شعر خرجتا سهوًا من خلف الغطاء، واحدة بيضاء من آثار الزمن الذي لا يرحم، وأخرى كستنائية وضعتها في جيناتي، قبل أن يغزو الصلع مقدمة رأسي.

كانت ترش الماء موضع خطواتي، ظنًا منها أن الماء ينبت الحياة، ويخرج الزرع الأخضر، تمامًا كعمر طفل وليد.

ربما لن تقرأ هي هذا الكتاب، لكني سأكتب، عساني لا أخذل أملها ودعاءها أن ترى ابنها نافعًا في الأرض.

مقدمة

هذه القصة قرأتها منذ زمن لفولتير، الشاعر والمسرحي والفيلسوف الفرنسي الشهير، في عصر التنوير.

القصة تحكي أن الخادم قال لفولتير: هل من الممكن أن تساعدني يا سيدي في كتابة رسالة عاطفية للفتاة التي أحبها؟

فأجابه الشاعر الكبير: هل تريد أن تكتب شعرًا أم نثرًا؟

قال الخادم: أريد رسالة تعبر عن مشاعري، لا أريد الشعر أو النثر.

رد فولتير: الكلام في اللغة إما شعر وإما نثر.

فقال الخادم: لو قلت لي (ناولني القبعة من فضلك) كيف تصنف هذه الجملة؟

قال الشاعر: هذه من النثر.

قال الخادم: يبدو أني أجيد النثر منذ زمن!

كان فولتير يريد أن يوصل رسالة صغيرة، تشير إلى أن التصنيفات الأكاديمية للكلام، والموضوعات، وطريقة التفكير وأسلوب الحياة، قد لا تعبر بدقة عن واقع الناس، وهذه المصطلحات لن تغير من حياتهم في شيء، لأنهم لم يشاركوا في صنعها، بل لا يؤمنون بها، أو لا يستسيغونها، ولم تخرج من قاموس حياتهم المعتاد.

هذا الجدال النظري والأكاديمي، يتألف من فزلكات صنعها المتفلسفون ليتميزوا عن عموم الناس. وفي الحقيقة هم لا يصنعون شيئا جديدا أو مميزا، الخادم هنا أدرك الحقيقة، وهي أنه يجيد النثر منذ زمن، لكن الفارق أن السادة المتعلمين يسمون الكلام اليومي المعتاد الذي يستخدمه الناس باسم علمي اصطلاحي يحتاج إلى تعريف أكاديمي، حتى لا يشتركوا مع الناس في ذات المصطلح، رغم أن المضمون واحد.

شاعرنا الساخر، كتب تلك القصة باحترافية شديدة، لينقد هذا الوضع العلمي المزيف، والتقعر الثقافي الأجوف الذي يتعالى على الناس بمصطلحات فخيمة، وفي الحقيقة هي لا تحمل داخلها أي شيء ذي قيمة، أو هو الهراء المكتوب ببلاغة، كأنه يقول ليس المهم بلاغة العبارة، المهم أن تكون الحياة نفسها بليغة وعميقة ومؤثرة.

هذا الكلام ذكرني بفزلكات الفقه الإسلامي، تعريفات صعبة، مصطلحات أصولية تحتاج إلى عشرات ومئات الصفحات لشرحها، ليسهل عليهم التعالي على الناس، وضمان حالة من القداسة العلمية الزائفة، في حين أن الحقيقة غير ذلك، الحقيقة أن 95% من نصوص الإسلام (القرآن والسنة صحيحة) تتحدث عن الأخلاق، وتزكية النفس، وعن الصبر، والعفو، والعطاء، وتحمل المسؤولية، وابتغاء الدار الآخرة، وعبادة القلب الأساسية، وهي أن يكون الله كبيرًا داخلك.

وهذه العملية، كما هو واضح، لا تحتاج إلى مصطلحات وتصنيفات علمية معملية جغرافية فيزيائية ملوخية، بل تحتاج إلى صدق وتواضع وسعة اطلاع ونفس سوية وتجارب حياتية متنوعة وتبادل خبرات. إلخ.

كلنا نجيد الفقه، هذا هو السر الأعظم، مثلما يجيد الخادم النثر، لكن الكهنة يخفون عنا ذلك.

دعونا نتحدث في هذا الكتاب عن طريقة أخرى لتناول حياة الإنسان وما يعتقده، وفقا لمفهوم الإنسان العادي السوي، الذي يبذل محاولة أخرى للفهم غير تلك التي اعتمدها الآباء، والذي يبتغي الحق ولا يبتغي التقعر والتعالي والتراكيب اللغوية والرياضية المعقدة دون أن يكون لها مردود نافع على أرض الواقع.

مشاعر الإنسان وعواطفه ثابتة منذ عشرة آلاف سنة، الغيرة والحقد وحب السلطة لا تتغير بمرور الزمن، بينما عقل الإنسان متغير ومتطور، وحجم ما أنتجته البشرية من علوم عام 2012 فقط، يساوي الإنتاج البشري لخمسة آلاف سنة ماضية، وكل عام تتضاعف العلوم الإنسانية عن العام الذي سبقه، والإسلام جاء ليتعاطى مع الثابت والمتغير، فيجب بعث تعاليم الإسلام الأولى التي جاءت لتهذيب هذه المشاعر، ثم إعادة الاجتهاد والتجديد لمواكبة العقل المتطور والعلوم الجديدة.

في هذا الكتاب نحن نحترم عاطفتك، لكننا نحاول أن نحفز عقلك للمزيد من النشاط، لأن المخ وحده يستهلك 25% من طاقة الجسد، على خفة وزنه. فحتى لا تكون طاقة مهدرة أو متجهة نحو الاتجاه الخاطئ، تعال لنفكر معا.

الكتاب هو (مسلمون ضد الإسلام)، يواجه أزمة إحياء الإسلام؛ الدين الذي صارت تحوم حوله الكثير من الشبهات، وتساؤلات حول كونه دينًا يحب الحياة ويحترم الآخر ويضمن عيشا آمنا ويحفز الإنسان لعمارة الأرض وتزكية النفس من الشر والشح والظلم، أم هو دين قاتم يحمل راية سوداء كتلك التي نطالعها في أعلام البعض؛ يكره ويدمر ويحرق ويجتز الرؤوس.

الفصل الأول سيحاول فهم الإسلام، وفهم شخصية الرسول، ودور الله في حياتنا، وموقع الإنسان من الإسلام، وسيناقش قضايا شغلت الرأي العام للشباب مثل قضية اللحية وأهميتها في الحياة. ولكن قبل كل ذلك سنضرب نموذجا لكيف تصنع الخطط الكاملة في الانتصار.

وفي الفصل الثاني، سنتعرض لقضايا عملية أكثر، هل كل ما لم يأت به النبي بدعة؟ وما هي مساحتنا في التجديد بدراسة تطبيقة على شكل المصحف، كتاب الله الذي بين أيدينا. ثم سننتقل إلى قضية التعارض بين النص والفهم، وسنضرب المثال الأول في المعازف (الموسيقى) لأنها كانت -وفق اعتقاد شائع- محرمة بالنص الإسلامي. وبعدها سننتقل إلى الحدود في الإسلام، وكيفية التوفيق بين النص والواقع والتطبيق العملي ومصلحة الناس. بعدها سنترك المقالات تنساب في هذا الفصل لنقاش قضية الغزوات ودور الحرب في الإسلام، وهل الأصل في الإسلام السلم والموادعة والعقلانية والتواصل، أم الحرب والتخريب والقتل!

وفي الفصل الثالث، سنهدأ قليلا وسندخل في نقاش مفتوح، أو ربما هو اعتذار واجب، للجانب الرقيق من الحياة، ونحاول أن نبحث عن صيغة للمصالحة بين المرأة وبين التشريع الإسلامي.

وفي الفصل الأخير، سنكرس رسائلنا إلى صياغة مفهوم الآخر، من أهل الكتاب تحديدا، من وجهة نظر إسلامية، وسنتصدى إلى تصحيح مفردات مهمة شائعة في حياتنا اليومية ونرددها دون معنى ثابت، مثل تعريف الكفر، والإسلام، والعلاقات المشتركة بين البشر عموما.

فأمة بلا ماض هي أمة بلا مستقبل، ونحن لا ننكر الماضي بجملته، لكننا لا نلتزم بكل ما أتى به على علاته ومشكلاته، ونحن مؤمنون بصناعة جسر يستلهم أفضل ما في الماضي، ويعيد إحياءه وربطه بواقعنا الحالي (كما دعا الحكيم الصيني كونفوشيوس) ليمثل مرتكزا لصياغة حاضر أكثر فهما وواقعية وتطورا.

الفصل الأول

-1-
لن ينتصر المسلمون

الرقم المرعب يقول إن اليهود وحدهم حصدوا ربع جوائز (نوبل) منذ إطلاقها عام 1901، رغم أن عدد اليهود في العالم لا يجاوز 14 مليون فرد، وهو أقل من عدد سكان مدينة القاهرة.

يعبر عن هذه الإحصائية النكتة السوداء التي قالها الرئيس الروسي فلاديمير بوتين لرئيس الوزراء الإسرائيلي أرييل شارون عندما التقيا في نيويورك عام 2005:

إن طالبا يهوديا التقى طالبا هنديا في القطار في أثناء توجههما لفصول الدراسة بالدكتوراه في العلوم بإحدى دول غرب أوروبا، فسأله الهندي ما جنسيتك؟ قال أنا يهودي. وسأله عن تعدادهم قال إنهم 14 مليون في العالم. وبادره اليهودي بنفس السؤال، فقال الهندي، أنا هندي مسلم وتعدادنا في العالم مليار ونصف بما يشكل ربع العالم.

فقال اليهودي، حسنا ما دمتم بهذا العدد لماذا إذن لا يسمع عنكم أحد!

اليهودي محق للغاية؛ نحن لا يسمع بنا أحد في مجال البحث العلمي والمشاركة في إنتاج المعرفة. الإحصائيات تقول إن ما يصدره العالم العربي أجمع (22 دولة) من سلع، أقل مما تنتجه دولة أوروبية صغيرة مثل فنلندا. تلك الإحصائية قالها المستشرق برنارد لويس، ليبين لمحاوره حجم العالم العربي الحقيقي الذي يصنع ضجيجا دون أن يكون له أي أثر يذكر.

سؤال يجب أن يدرس على نطاق واسع: لماذا لم تعد العقلية الإسلامية قادرة على الإبداع في الفلسفة والأدب والفن؟ لماذا لم تعد تقدم شيئا جديدا في مجال العلوم التجريبية الإمبريقية؟

أنا أتحدث عن مليار ونصف المليار مسلم يشغلون 57 دولة في العالم، وهو رقم ضخم يمثل ربع سكان العالم.

عدد جوائز نوبل التي حصل عليها مسلمون وفقا لآخر رقم كان 10 جوائز، منها اثنتان فقط في العلوم، أحمد زويل المصري في الكيمياء، ومحمد عبد السلام الباكستاني في الفيزياء.

بينما اليهود الذين لا يشكلون أغلبية إلا في دولة وحيدة، حصلوا على 200 جائزة، منها ما يزيد على 50 جائزة في الفيزياء، وعدد مماثل في الطب وعلم وظائف الأعضاء، وهي علوم تخلو من تسييس الجائزة في الجزء المتعلق بالسلام والأدب، بمعنى أن اليهودي الواحد ينتج ما يعادل 2000 مسلم!

عار علينا؛ لن يسامحنا الله في ما فعلناه بعقول الناس من جهل وتغييب وقهر وماضوية، باسم الدين أو باسم الرب.

المقهور والجاهل لا يبدعان، وهذا حال معظمنا. المشكلة أن البعض ما زال يعتقد أن الدين سينتصر فقط بتطبيق الحدود أو غطاء الرأس للمرأة أو اللحية أو هدم قبر.

في سورة الأنفال، قال الله للمؤمنين إن المقاتل المؤمن الواحد يستطيع الانتصار على عشرة من خصومه، لأن الإيمان قوة عمل وإصرار: (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ) 65 - الأنفال. ولكن الله وجدها صعبة عليهم فجعل المؤمن الواحد يعادل اثنين في القوة والغلبة (الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ) 66 – الأنفال.

لو طبقنا المعادلة الواردة في القرآن فنحن بذلك قد تركنا الإيمان والإسلام منذ زمن بعيد، حتى لو ظلت النسوة يرتدين الحجاب والرجال يملأون المساجد في صلاة التراويح.

يذكر أن الـ 10 جوائز (نوبل) لمليار ونصف المليار مسلم، كان لمصر النصيب الأكبر فيها، بما يمثل 4 جوائز (البرادعي – زويل – محفوظ – السادات).

هرتزل الصحفي النمساوي اليهودي كان يرى وجوب اندماج اليهود وسط الشعب الأوروبي، ولكنه صادف صعوبات شديدة واكتشف الوجه العنصري لأوروبا حيث تجدهم أقلية منبوذة يجب القضاء عليها أو لفظها. أكد ذلك ما رآه بعينيه عندما ذهب في مهمة صحفية في باريس لتغطية محاكمة أحد الضباط، ورأى أنه لا يحاكم لأنه أخطأ، لكن لأنه يهودي.

وهنا نشأت فكرة وطن واحد لليهود يحميهم من هذا الظلم.

وكانت الطريقة الأولى هو إخفاء هويتهم الدينية والحياة الغربية الكاملة كأحد أفرادها دون أي مصادمة عقائدية. لدرجة أنهم لم يدركوا دين اليهودي إلا بعد موته، من طريقة الدفن. وتخلى بعضهم عن ذكر دينه في الأوراق الرسمية وهوية التعريف.

وأيقنوا أن طوق النجاة هو العلم، قبل المال.

لذلك انتشرت مقولة: قد تجد يهوديا فقيرا، لكنك لن تجد يهوديا جاهلا.

ربما تلك الإحصائية التي ذكرها أحد الأساتذة الأمريكان، في فصل يدرس الدكتوراه في إحدى الجامعات الأمريكية فيه 50 طالبًا منهم 29 يهوديًا. تكون صادقة وصادمة، رغم أن نسبتهم في أمريكا 2% من عدد السكان.

بعض المناصب العليا في أوروبا كان اليهود يمنعون من توليها، وهذا ما جعل بعضهم يعتنق المسيحية ظاهريا للسعي لتلك المناصب. ونتيجة ذلك أن استطاع (ديزرائيلي) أن يصل لرئاسة حزب المحافظين ومن ثم رئاسة وزراء بريطانيا، رغم أن جده يهودي.

دزرائيلي كان أديبا وروائيا بارعا يفتخر بأصوله اليهودية في أعماله الأدبية، ويحتفي بالعلوم التي وصل لها اليهود في وقت كانت أوروبا تطاحن الظلام.

وفي 14 مايو 1948 أعلنت قيام دولة إسرائيل، واعترف بها الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة، وفي اليوم التالي أنهت بريطانيا الانتداب على أرض فلسطين، ما يفيد شرعية نشوء إسرائيل.

وهنا اشتعل الغضب العربي، فاجتاحت قوات مصرية / عراقية / سورية/ أردنية، أرض فلسطين. واقتطعوا غزة وجزءا من غرب نهر الأردن. وواصلوا التقدم ناحية القدس ولكن القوات الإسرائيلية كانت من القوة والتماسك بحيث تهزم أربعة جيوش عربية.

المذكرات العسكرية تقول إن الجيش الإسرائيلي كان متفوقا جدا في العدد والتدريب والآلية العسكرية.

إسرائيل احتلت شبه جزيرة سيناء عام 1956 في أثناء العدوان الثلاثي على مصر، وعام 1967 احتلت سيناء مرة ثانية بنفس خطة عام 56. وسألوا موشي ديان: ألم تخف من انكشاف الخطة ومواجهة المصريين لها بعد تعلم الدرس؟ فقال باستخفاف: العرب قوم لا يقرأون! طعنة خنجر تنغرس حتى المقبض في موضع الشرف، ويستدير نصل الخنجر داخل الجرح كي لا يندمل.

الحكاية بدأت عندما اجتمعت 197 شخصية يهودية في مدينة بازل السويسرية، بقيادة الصحفي هرتزل عام 1897، ووضعوا هدفا محددا لهم: إنشاء وطن قومي لليهود خلال 50 سنة.

وبعد هذا التاريخ بخمسين سنة بالضبط، في عام 1947، صدر قرار التقسيم من الأمم المتحدة بتقسيم أرض فلسطين لتنشأ الدولة الصهيونية فجأة من العدم، ويصير السكان العرب الأصليون لاجئين تتقاذفهم الأقدار.

ظل العمل الدؤوب والجاد لتحقيق الفكرة لمدة نصف قرن، ورغم أن الأب المؤسس (هرتزل) مات عام 1904، فإن العمل والكفاح استمرا تحت قيادة حاييم وايزمان.

ويجب التوقف عند هذا الرجل طويلا؛ حاييم وايزمان عالم كيميائي روسي المولد، استطاع التوصل إلى تقنية لاستنباط (الأسيتون) الصناعي الذي مثل طفرة في صناعة البارود، وفي أثناء الحرب العالمية

الأولى ساعد وايزمان البريطانيين على تصنيع بارود المدافع بكميات ضخمة، لأن الأسيتون هو المكون الرئيسي فيه، ما جعل البريطانيين يشعرون بالامتنان للرجل الذي قدم اكتشافا علميا جليلا أثر في مصير الحرب، وبدأوا في دعم الطموحات الصهيونية.

لذلك قال اللورد بلفور وزير خارجية بريطانيا الأشهر:

(لقد اعتنقت الصهيونية على يد الأسيتون).

الطاقة النووية التي غيرت مصير العالم، والتي تم استخدامها في الصناعة والعلوم وتم تطويرها لخلق سلاح نووي مخيف، كان أول من وضع معادلتها هو أينشاتين (اليهودي). وأول من حول المعادلة إلى مشروع معملي تنفيذي، كان الإيطالي الأمريكي إنريكو فيرمي (اليهودي)، أصغر من حصل على الجائزة في الفيزياء.

بل كل من عمل في المعمل الأمريكي المسمى (مشروع مانهاتن) الذي أنتج أول قنبلة نووية حسمت النصر لأمريكا بعد مهاجمة اليابان، كانوا فيزيائيين يهودًا.

إنها مسيرة عقود من العمل المنظم والكفاح وتلقي العلم. تلك المسيرة أنشأت دولة من العدم. وهزمت أمة بأكملها من ملايين البشر. ولم يأت الانتصار لمجرد صدفة.

رجال العلم يغيرون العالم، وكذلك رجال الدين المستنيرون والعشاق وكتّاب الشعر والملحنون والروائيون، يصنعون المجد للإنسان.

رواية (كوخ العم توم) كانت محورية لإطلاق دعوة لتحرير العبيد، ورواية بيت الدمية كانت بداية لتحرير المرأة، ورجال الدين المستنيرون (لاهوت التحرير) في أمريكا اللاتينية كانوا القاطرة التي حررت أوطانهم من الاستعباد.

أين المسلمون من كل ذلك؟ إنهم مشغولون بقص شواربهم!

لو تريدون الانتصار اصنعوا العلم، اكتبوا قصيدة أو رواية تغزو العالم، اعزفوا الألحان كبيتهوفن الذي ألف السيمفونية التاسعة (كل البشر يصبحون إخوة)، رغم أن القرآن سبقه بعدة قرون وقال (خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ) 1 – النساء. فالمنشأ واحد، والأخوة الإنسانية في الإسلام ثابتة (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) 13 – الحجرات.

جائزة نوبل تحمل اسم رجل سويدي اخترع الديناميت المنفجر، ودعا إلى السلم منذ قرن واحد من الزمان، لماذا لم تنشأ جائزة باسم محمد الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي حملت رسالته اسم المسالمة، والذي أكد عليه النص القرآني الأول.

بل كلمة السلام نقولها في ختام العبادة الرئيسية اليومية عشر مرات في خمس صلوات، كأن بوابة العبور من العبادة إلى الحياة هي السلام. تختم عبادتك بإنشاد السلام عن اليمين واليسار، على البشر والشجر والحجر، كأنها رسالة يومية: كيف بعد أن أفرغ من العبادة أن أستطيع إيذاء بشر!

إلى أن يتنبه المسلمون إلى مقاصد دينهم، وإلى أن يتنبه العالم كله لذلك، وإلى أن تنشأ جائزة تحمل اسم ديننا واسم رسولنا محمد - السلام – التوحيد، فنحن أمة مقضي عليها إما بالنسيان وإما بالهزيمة.

-2-
رسالة

قلتُ لأخي الملتزم الحريص على التشبه بمظهر النبي (صلى الله عليه وسلم): هل تعرف أن النبي محمد كان يكثر من أكل الجراد؟ أكله في سبع غزوات، كما جاء في البخاري بكتاب الذبائح، عن بن أبي أوفى. 5176 البخاري – باب أكل الجراد –.

وكانت للرسول بُردة حمراء، أي رداء أحمر، كما روى الطبراني في الأوسط. وقال البراء بن عازب، برواية الإمام مسلم، إنه رأى الرسول في حُلّة حمراء. رواه البخاري برقم 5400، ومسلم برقم 4308.

وكان يضع الكحل في عينيه، وأمر الرجال بالكحل، كما جاء في البخاري/ باب الطب عنه صلى الله عليه وسلم (اكتحلوا بالإثمد) رواه الترمذي - 1757. بل كانت المكحلة أكثر ما يصحبه في سفره، فهل هو أمر ملزم لنا بنص الحديث؟

وكان أكثر ثيابه الرداء والإزار، قطعتان من قماش واحدة تلف حول الكتف والثانية حول الوسط، مثل منشفة كبيرة تلفها حول وسطك، مثل حجاج بيت الله الحرام، أو مثل (الجيبة) التي يرتديها الهنود وبعض قبائل العرب في سلطنة عمان واليمن.

هل تستطيع أن تمشي في الشارع تلف إزارًا حول وسطك، وتأكل الجراد وتلبس رداءً أحمر وتضع الكحل؟

كان هذا ملائما في زمن ما، ثم صار مستحيلا فيما بعد، فهل يريد الإسلام أن يجعلنا أضحوكة العصر؟

وهل تظن أن الله بعث رسوله بالحق، يلاقي العذاب والإعراض من قومه عقدين من الزمن، كي تكون تلك وصاياه الباقيات من بعده؟ هل تعتقد أنك تصنع شيئا عظيما لهذا الدين بجلبابك ولحيتك؟ وهل كان الرسول حريصا على نقل تفاصيل البيئة الصحراوية البدوية عبر الزمن إلى المسلمين؟ أم أنه كان يهتم بتعاليم أهم تفيد في نضج البشرية والاهتداء إلى الحق وإلى الله الوحد، منبع الرحمة والسلام، ومقاومة الظلم والطغيان والفساد في الأرض؟

الذي يتخندق في ماض سحيق ويرفض التطور، يا صديقي، مصيره الهلاك، فالحياة لا ترحم المتأخرين، ولا تعطيهم المزيد من الفرص.

هل سمعت عن الانكشارية؟

الانكشارية هي جزء من حامية الجيش العثماني التي تميزت بالتربية العسكرية الصارمة؛ ينشأ الفتى منذ نعومته على ملاعبة الأسنة وتثقيف الرماح ومبارزة السيوف، إنه وُلِد ليقاتل born to fight، وكان لهم فضل كبير في الفتوح التي قام بها العثمانيون غربا وجنوبا.

ولكن بعد تقدم وسائل الحرب واختراع بارود المدافع، أراد العثمانيون تحديث الجيش، وهنا حدثت أزمة؛ كتائب الانكشارية زمجرت ولم تستوعب التجديد، رأت أن شرف القتال لا يستقيم إلا باستخدام السيف، وأنه من الخسة أن تبعث الموت لأحدهم على مسافة كيلومترات عبر رصاصة أو قنبلة. إن الموت لا يكون شريفا إلا لو كان قريبا، الجبان يحارب بعصا طويلة، وهم يقاتلون بسيوف قصيرة.

ولما أصروا على ماضيهم العتيق في حروب السيف، وصاروا عقبة أمام تحديث الجيش، اضطر العثمانيون إلى قتالهم لإجبارهم على التحديث أو الموت، واستلوا سيوفهم ليدافعوا عن مبادئهم، بينما جاءهم الموت عبر البارود من مسافة لم يتبينوا منها خصومهم، وماتوا لأنهم رفضوا استيعاب التجديد. دون كيشوت.

إنها الرواية العالمية الأشهر عبر أربعة قرون، والصادرة في القرن السابع عشر للكاتب الإسباني ميجيل دي ثيرفانتس. بطل الرواية هو دون كيشوت، الرجل الحائر الذي انقطع للقراءة في كتبه القديمة عن عصر الفرسان الذين يحملون سيوفهم ويمتطون جيادا سريعة يلاحقون بها الأعداء.

انفصل الرجل عن واقعه وحاول تقليدهم، وحمل سيفا صدئا ودرعا ساذجة وامتطى حصانا هزيلا، وأغرى صديقه سانشو، الفتى الضخم، كي يتبعه في بطولاته الوهمية، ولكنه لم يجد الأعداء، ولم يجد الفرسان القدامى بثيابهم الأسطوية، ووجد عالما جديدا، فلم يفهم الفرق، فاستقر به الأمر أن ظل يلاحق الغبار المنبعث من قطيع من النعاج فيظنه جيش الأعداء، أو يضرب صفيحة فارغة في عرض الطريق.

ولما رأى طواحين الهواء، التي تولد الطاقة، سارع إليها ليحارب هذه الشياطين ذات الأذرع الطويلة، واعتقد أنها سبب الشرور في العالم، فظل يطوح بسيفه يمينا وشمالا في حرب ساذجة مضحكة، إلى أن أدرك عدم جدوى ما يحدث، بعد أن نالته إصابات بالغة كادت تقتله.

وفي النهاية عرف أن سبب ما حدث له هو أشباح الجهل السوداء، التي تسربت عبر كتب الفرسان القديمة التي مضى زمنها، وأنه يحتاج إلى شيء جديد يغسل روحه، ويندم على شيء واحد فقط، هو عدم امتلاكه الوقت الكافي لقراءة كتب جديدة تنير الروح.

خصلتان يحبهما الله.

جاء وفد إلى الرسول ليتفاوض معه، وكان يتحدث عنهم رجل اسمه أشج عبد القيس، وبعد انتهاء المفاوضات، امتدح النبي الرجل، وعلق على طريقته في الحديث، فقال (ص): (إن فيك خصلتين يحبهما الله. الحِلم والأناة).(4110 البخاري. كتاب المغازي).

هذا رجل حديث عهد بإسلام، ورغم ذلك يحوز شهادة قوية من الرسول، لأن فيه خصالاً يحبها الله، رجل حليم، عفو، هادئ الطبع، لا يحمل بذور الغضب وطباع الانفعال والجهالة والاندفاع في الخطأ. غالبا هي صفات إنسانية لم يكتسبها من الدين ولكن من الحياة والتجربة والنضج، وهذا يدل على أن كل اجتهاد إنساني يؤدي إلى خير فهو من الدين ولو لم يرد فيه نص.

بدلا من أكل الجراد وارتداء الثياب الحمراء وإطالة الشعر أو صبغ اللحى واكتحال العيون، وهي مظاهر بشرية لا علاقة لها بالدين، فمن الأولى أن تكون حليما، هادئ الطبع، لا تسارع في العنف اللفظي وممارسة الإرهاب الفكري والسلوكي في كل نقاش. وحكمك على الأشياء يأتي بروية وأناه ويقين ونفاذ بصيرة.

تقول لي: ولكن اللحية أمر بها الرسول!

جميل، ولكنه أمر دنيوي وليس أمرًا دينيًا، وهو من سُنن العادات وليس من سنن العبادات، وعلى هذا أغلب الفقه الحديث، عدا السلفيين، وجاء في حاشية البجرمي، من طبقات الفقه الشافعي، أن حلق اللحية ليس حراما. وأن الأمر ليس على سبيل الوجوب.

وهذا ما سنتناوله في الرسالة التالية

لنا في رسول الله أسوةٌ حسنة؛ كان متعففا زاهدا كريم الخلق شجاعا، قال عنه ربه إنه رؤوف رحيم. سؤالي لك: كم مرة قابلت رجلا رؤوفا / رحيما / حليما / زاهدا، تشعر إلى جواره بالرفقة والأمان؟ عددهم هو عدد الإسلام بالمناسبة. أما اللحية فتنبت لدى المؤمن والكافر على السواء ولا تميز بين الرجال.

-3-
اللحية

في جلسة ممتعة مع مجموعة أولاد في المرحلة الثانوية، سألوني السؤال الأزلي الذي يستمر باستمرار الكون: هل حلق اللحية حرام وإعفاؤها فرض؟
وكان الحوار بيننا طويلا مثمرا...
قبل أن أتحدث عن اللحية، حكيت عن عالم الفضاء الدكتور عصام حجي، مستشار رئيس مصر العلمي، سابقا، الذي عمل في ناسا على تطوير المكوك كِريوستي Curiosity الذي ذهب لاستكشاف كوكب المريخ، وهو مشروع تكلف 2.5 مليار دولار، ومعدل الخطأ يجب أن يصل إلى صفر.
لماذا المريخ؟ ولماذا كل هذه المليارات؟
لأن المريخ هو الكوكب الشقيق للأرض، المريخ أصيب بالتصحر وتحول إلى كوكب أحمر، بينما الأرض ما زالت كوكبا أزرق فيه ماء. لو استطعنا فهم طبيعة المريخ، التصحر والتغير المناخي، نسطتيع فهم لماذا وكيف ومتى حدث هذا التصحر، لنحمي كوكب الأرض من مصير مشابه.
الإنسان لا يستطيع الدخول في حرب ضد الطبيعة، لكنه يستطيع فهمها واحتواءها واستباق خطواتها ليمنع خطرها.
الحديث عن التغير المناخي ليس أمرا رفاهيًا يخص العلماء أو يخص معدي برامج ناشيونال جيوجرافيك، بل يخص مصيرك ومصيري، مصير أسرتك ومستقبل الفتاة التي تحبها. ارتفاع درجة الحرارة درجة مئوية واحدة يؤدي إلى نقص الإنتاج الغذائي 10 – 15 % سنويا، كما أن التغير المناخي يؤدي إلى الجفاف، والفقر المائي والغذائي من أهم أسباب الحروب والصراعات.
مركز بحوث الصحراء يقول إننا قد فقدنا 3 ملايين فدان خلال ربع قرن. محافظة الفيوم فقدت ربع المساحة المزروعة خلال عشر سنين. نحن نفقد كل عام 25 ألف فدان، وخلال أربعين سنة قد نفقد ربع المساحة المزروعة في مصر، في حين أن الطلب على الغذاء يزيد نظرا للزيادة السكانية. نصف الغذاء نستورده من الخارج، ولدينا أزمة في العملة الصعبة. 90% من زيت الطعام نستورده. هل من الممكن أن نكون مهددين بمجاعة؟ الأشياء السيئة لا تحدث للآخرين فقط.
عام 1967 وقف جمهرة من الأمريكان أمام وكالة الفضاء والطيران الأمريكية NASA يرفضون إهدار أموال دافعي الضرائب على مشروع هزلي يتمثل في الصعود للفضاء؛ ما فائدة هذا الهراء؟ بل كان لبعضهم اعتراضات دينية على ما يحدث.
وهنا وقف رئيس الوكالة، وقال لكل العاملين بشجاعة، لسنا هنا لنستجيب لوعي الجماهير، بل لنغير هذا الوعي. وقد كان.
يقول الله (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) 53 - فصلت.
الغريب أننا توقفنا عن البحث عن آيات الله في الآفاق، واكتفينا بالنظر أسفل أقدامنا، فهل نحن مؤمنون عن يقين لرؤية الحق؟ أم مجرد إيمان تقليدي عمياني جاهل؟
وماذا عن اللحية؟ آه يا وجعي.
الحديث في الصحيح (أَعْفُوا اللِّحَى وَقُصُّوا الشَّارِبْ، وَخَالِفُوا اليَهُودَ) أخرجه أحمد (2/16 ، رقم 4654)، ومسلم (1/222 ، رقم 259)، والترمذي (5/95 ، رقم 2763).
كثير من الفقهاء قالوا إن إطلاق اللحية واجب. بل وصل الأمر بالبعض أن قال إن حلقها من الكبائر.

لكنهم يتناسون آراء فقهاء آخرين قالوا إن حلق اللحية ليس حراما، منهم:
- أبو محمد الجويني وأبو إسحاق الإسفراييني (الشيخان) من الشافعية.
-القاضي عياض من المالكية.
- رواية عند الإمام أحمد بن حنبل، وردت في الإنصاف للمرداوي.
حجتهم، أن أمر الرسول بمخالفة اليهود هو مخالفة لأمر من أمور العادات القائم على العلة، وليس تكليفا عباديا أو دينيا مؤبدا. وبانتفاء العلة ينتفي الحكم الأصلي.
الحديث يقرن اللحية والشارب ببعضهما؛ توفير اللحية، وحلق أو حف الشارب، إلا أنك تجد الصحابي الكبير عمر بن الخطاب، كان يفتل شاربيه. (رواه ابن حجر في الفتح، وابن سعد في الطبقات) وكان إذا غضب فتل شاربيه ونفث فيهما. لماذا لم يلتزم عمر بن الخطاب بالنص؟ بل لم نجد صحابيا واحدا يلومه على فعله. لم نجد رسول الله ينهاه أو ينهره.
أيضا الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة كان له شارب كبير، ولما سألوه، قال: كان عمر يوفر شاربيه.
نفهم من ذلك أن الأمر هنا ليس للوجوب، بل التخيير، وليس عباديا، بل من مسائل العرف.
ومن أجل ذلك يقسّم العلماء كلام الرسول لعدة أقسام. الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق، يقول إن أوامر الرسول منها ما يبلغه عن ربه من أحكام دينية، وأوامر أخرى صدرت عن الرسول بوصفه قاضيا يفصل في النزاعات، وثالثة تتعلق بالحروب والمعاهدات.
وقال إن الحكم الملزم، هو تصرفاته الدينية فقط، أما تصرفاته الدنيوية المتعلقة بالسياسة العامة والقضاء والحروب فهي أمور دنيوية تخضع للمصلحة وتغير الأحوال.
ولي الله دهلوي، ميز بين تصرفات الرسول الدينية التي يبلغ فيها عن ربه، وفيها ورد قول الله (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا) 7 – الحشر، وبين تصرفاته الدنيوية والتي ورد فيها حديث صحيح مسلم (فإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر) 4364 – صحيح مسلم. فالرسول يقر بشريته القابلة للصواب والخطأ فصلا وتمييزا عن أوامره الرسالية.
ابن قتيبة، قال إن السنة في الدين وليس في المأكل والمشرب. فالرسول كان يحب القرع (الكوسة) وكان يحب الكتف من الشاة، فهل أكل الكوسة ولحم الكتف سنة عنه! لا أعتقد وإلا كان ذلك هزلا.
لكن هل هناك أدلة على جواز مخالفة أوامر الرسول الدنيوية؟
الإجابة نعم.
1- الحديث الشهير عن تلقيح النخل. عندما نهاهم الرسول عن ذلك فلم يثمر النخل، فرجعوا له، فقال لهم (إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن) 4363 – صحيح مسلم. ورواية أخرى (ما أنا بزارع ولا صانع، وأنتم أعلم بشؤون دنياكم). ويقول عليه الصلاة والسلام: (إذا أمرتكم بشيء من أمر دينكم فخذوه عني. وإذا أمرتكم بشيء من أمور دنياكم فإنما أنا بشر)، وكلها روايات موجودة في صحيح مسلم.
2- حديث (من أحيا أرضا مواتا فهي له) البخاري/ باب المزارعة.
الحديث معناه جميل، يحث على الزرع والتنمية والاستغلال الأمثل للطبيعة، لكن تطبيق الحديث يؤدي إلى مشكلات كبرى من انتزاع الملكية الشخصية والتعدي على حقوق الآخرين. بل والتعدي على ملكية الدولة. فمن الممكن أن يستغل أي أحد هذا الحديث ويذهب لقطعة أرض فارغة ويبدأ في زرعها ويدعي ملكيتها، وهنا تحدث مشكلات كبرى. فتنظيم الملكية يجب ألا يتوقف على هذا الحديث. بل نأخذ معناه فقط.

فالرسول قال الحديث بصفته حاكم سياسي يحث الناس على الاستصلاح والتنمية، ما يتسق مع بيئة صحراوية ممتدة على مرمى البصر، وفي بيئة لم تعرف الدولة المركزية أو تقنين الملكيات الخاصة.

3- عن أبي أمامة، قال: عندما رأى الرسول المحراث، قال (لا يدخل هذا بيت قومٍ إلا أدخله الله الذل) 2978 - البخاري.

ظاهر الحديث ينهى عن استخدام المحاريث (أدوات الزراعة) وتلك كارثة؛ كيف نزرع وننمي ونأكل إذن؟ خاصة في عصر الميكنة والبحث العلمي وزيادة إنتاجية الفدان!

لو اعتبرت هذا الحديث تشريعا دينيا ملزما فأنت أمام أزمة كبرى. لا حل إلا اعتباره كسابقيه، اجتهادا بشريا من الرسول قابلا للخطأ والصواب، وأنه أمر دنيوي لا يقصد به التشريع المؤبد. ربما ظن الرسول أن العمل اليدوي أكثر بركة ويحث صاحبه على الصبر والاجتهاد، وأن الأدوات قد تؤدي إلى الكسل والاهمال. ووقتها كانت الأدوات بدائية ولا تؤدي إلى فروق كبرى في الإنتاج بينها وبين العمل اليدوي.

الرسول في أحاديث أخرى يحث على الزراعة، وأن يكون ذلك خيرا ورحمة للناس والطير والحيوان. قال الرسول، صلى الله عليه وسلم، كما في النسائي (مَا مِن مُسلم يَغرِسُ غَرْسًا أو يَزرَعُ زَرْعًا فيأكُلُ مِنه طَيرٌ أو إنسان أو بهيْمَةٌ إلا كان لهُ بهِ صَدقَة). الحديث عظيم لأقصى درجة. أن يكون عملك ليس فقط نفعا لنفسك ومصلحتك الشخصية، بل لكل البشر. لكل المخلوقات. أن تكون كائنا يبعث الخير والكرم. هذا هو الثابت المقصود من هذا الدين، وليس بالشارب واللحية، وإلا كان دارون وكارل ماركس أكثر إسلاما مني ومنك.

4- عن أبي قتادة، قال الرسول صلى الله عليه وسلم (من قتل قتيلا فله سلبه)، شرح النووري على صحيح مسلم.

والحديث يخص شؤون الحرب، وله سلبه، أي له حق أخذ متاعه وأدواته.

أيضا لن نستطيع تعميمه باعتباره تشريعا ثابتا، لأنه يخص الحرب البدائية القائمة على البطولة الفردية لكل مقاتل، الذي يشتري سيفا ودرعا من ماله الخاص ويمتطي صهوة فرسه. فهو من كلّف نفسه عناء الحرب. الآن في الدول الحديثة، حيث الجيش النظامي، المقاتل مجرد موظف، يتسلم سلاحه وأدواته ومرتبا مقبولا من الدولة.

5- الحديث الشهير (لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة) متفقٌ عليه.

و(قريظة) جماعة من اليهود نقضوا العهد وتحالفوا مع الكافرين للإجهاز على الرسول وصحابته، وصنعوا كماشة للفتك بالمسلمين عندما حاصرت قريش المدينة من الخارج، وتواطأ معهم بنو قريظة من الداخل، في ما يمثل جريمة خيانة عظمى، فنوى الرسول حربهم وإجلاءهم تأمينا لحياة الناس، وحث رجاله على الإسراع في السير لهم، حيث لا يأتي وقت العصر إلا وهم هناك.

فجاء وقت العصر وهم في الطريق، فأعرض بعض الصحابة عن الصلاة، لأن الرسول قال بوضوح لا تصلوا إلا هناك، وبعضهم قال بل الرسول قصد الإسراع ومن الممكن أن نصلي ونسرع في ذات الوقت.

واعتبر بن القيم من صلى في الطريق دون انتظار الوصول مخالفا للأمر الظاهري، ثم أسرع لتحقيق قصد الرسول، ودون التقيد بالنص، هو الأصوب، والآخرين الذين التزموا حرفيا معذورين باجتهادهم الأقل صوابا.

6- عن بن عمر، كما جاء في البخاري، كتاب السير: (نهى الرسول عن السفر بالقرآن إلى بلاد العدو)، وفي رواية (نهى عن السفر بالقرآن عموما) لأنه يخاف عليه.

لاحظوا، لو طبقنا الحديث فلن نذهب إلى أكثر من 120 دولة ذات أغلبية مسيحية، و30 دولة بين

بوذية وهندوسية ومعادية للدين؛ يصير القرآن الكريم محصورا في البلدان الإسلامية فقط، رغم أن نشره وتوزيعه وترحاله إلى بقاع الأرض صار ضرورة، بل صار واقعا عمليا يفيد المسلمين.
قديما كانت بلاد الكفار لا تحترم الإسلام الهزيل المستضعف الهش، وكان أهلها يهينون القرآن ويعتدون عليه، بل كانت نسخ القرآن قليلة في عصر بدائي يقوم على النسخ اليدوي قبل اختراع الطباعة. الآن اختلف الأمر فزالت علة النهي، وبطل العمل بالحديث.
7- حديث مشابه (أنا بريء من كل مسلم أقام بين ظهراني المشركين) أبو داوود والترمذي.
فهل نصف مليار مسلم يقيمون في بلدان غير إسلامية آثمون؟ بل إن السفر والانتقال هو الذي نقل الإسلام إلى مجتمعات غير مسلمة. الرسول قال هذا الحديث وقت أن كان المسلمون يعدون بالعشرات والمئات، ويتخطفون في الأرض، وقت أن كانت الممالك السياسية تقوم على الحدود الدينية، ولا تسمح بالاختلاف العقيدي، أو حرية الاعتقاد، ولا توفر الحماية لساكنيها ما لم يكونوا على دينها، بل لا توفر حماية للعبيد والنساء والغرباء عموما. زال كل ذلك وارتبط الناس في ميثاق أممي ضخم، يحترم الدين، ويوفر حرية المعتقد، وصارت كبرى جامعات الدول الغربية تدرس الحضارة الإسلامية وتحتفي بالقرآن وتعمل على طباعته وتزيينه وحفظه، وبزوال العلة يزول حكم المنع.
بل وأخبرني صديقي أنه يعبد الله ويحافظ على الصلوات في كندا، أفضل مما يعبده في بلادنا العربية.
نعود لحديث اللحية، والذي يضع سببا واضحا: خالفوا اليهود. أطلقوا اللحى وحفوا الشوارب.
إذن مخالفة اليهود هي المقصد والهدف.
تعالوا نقرأ أحاديث أخرى لنفس الوزن
(غيروا الشيب وخالفوا اليهود) الترمزي.
(صلوا في خفافكم وخالفوا اليهود) متفقٌ عليه.
الرسول عندما كان يرى رجلاً أبيض الشعر كان يأمره بتغيير لون شعره ليبدو أكثر شبابا. فهل أمر الرسول للرجال بصبغ شعرها أمر ديني ملزم، ومن يخالفه يعد آثما؟ أم أنه أمر دنيوي يتعلق بالعادات والتقاليد، وتحقيق مصلحة راجحة؟
أيضا، صلوا في خفافكم. الخف هو الحذاء. فأمر الرسول المباشر أن نصلي في الأحذية تخفيفا عن تشدد اليهود. وهكذا عاش الرسول يصلي في مسجده الشريف بحذائه سنوات عمره. هل تستطيع أن تصلي في حذائك الآن داخل المسجد كما فعل الرسول وكما أمر، أم أننا نصلي حفاة؟
لماذا كان الرسول يريد مخالفة يهود المدينة والكافرين في بعض مظاهر العبادة والحياة؟
كان هذا من أجل البناء الثقافي. أن تكون للمسلمين هوية مستقلة تحمي وجودهم من الانبهار والذوبان في غمار الحضارات والديانات المعاصرة؛ اعتزاز الإنسان بثقافته المحلية، بعاداته وتقاليده، أمر مهم لتعزيز ثقته بنفسه وحمايته من الاحتلال والغزو. ولذلك فكل أمة أو حضارة تطور ثقافتها الخاصة كي تحمي وجودها، ولم يعد الجلباب أو اللحية هو الأمر المميز، بل هو أمر يتعلق بماضي شبه الجزيرة العربية. ولو ربطنا الإسلام ببقعة مكانية أو زمانية معينة، فنحن نقضي على أهم فكرة في الإسلام، وهي العالمية والتأبيد.
الآن، هل صار ما يميز بين المسلمين واليهود هو شكل لحيتهم وشاربهم؟ أم العمل والإنتاج والتحضر؟
في النهاية هذا لم يمنع الرسول (صلى الله عليه وسلم) من التواصل الحضاري مع كل من حوله.
- ففي غزوة الأحزاب حفر الخندق عندما علم أن الفرس يفعلون ذلك (ثقافة مجوسية وثنية).
- وكاد ينهى عن الغيلة، وهو أن يعاشر الرجل زوجته التي ترضع، ظنا منه أن هذا يضعف الطفل

والأم. لكن تراجع عندما وصله خبر أن الروم تغيل ولا يؤذي هذا صبيانهم في شيء. كما جاء في صحيح مسلم 1442 (لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَى عَنْ الْغِيلَةِ، حَتَّى ذَكَرْتُ أَنَّ الرُّومَ وَفَارِسَ يَصْنَعُونَ ذَلِكَ فَلا يَضُرُّ أَوْلادَهُم) (ثقافة مسيحية).

- وفي الهجرة استعان بدلالة بن أريقط الدؤلي وهو رجل مشرك.

وعندما سألوا أبا يوسف تلميذ أبي حنيفة لماذا تلبس نعلين مخصوفتين بالمسامير، وإنها من ملابس اليهود؟ قال كان رسول الله يلبس نعلين من الشعر وإنها من ملابس الرهبان.

وبذلك تصير اللحية متعلقة بواقع معين. ظرف ثقافي وتاريخي خاص. العادات والأعراف وليس الدين والتشريع. وكان العربي القديم لا يعد رجلا إلا لو نبتت له لحية. وحجم رجولته يتوقف أحيانا على حجم لحيته. وأن تقطع أطرافه إربا أفضل له من أن تحلق لحيته، تماما في وقتنا الحالي مثل من يحلق حواجبه. يصير مشهده شاذا مستغربا مثيرا للسخرية والاستهزاء. لذلك قال الرسول بالحفاظ على اللحية لحفظ كرامة الإنسان، احتراما للعرف الذي عايشوه. الآن انعكست الآية وصارت اللحية الغليظة من ملامح التشويه والقبح والتنفير. تغيرت نظرة الإنسان فيجب أن تتغير ظاهر الأحكام مع بقاء العلة والمقصد: احترام الإنسان للعرف السائد.

وبهذا قال كبار فقهاء الإسلام المعاصرين، مثل الشيخ العلامة محمد أبو زهرة، والشيخ محمود شلتوت.

وفي حوار شهير للشيخ ناصر الدين الألباني، العلامة السلفي، قال إنه يجوز الأخذ من اللحية وتهذيبها وجعلها مقبولة ولائقة، عملا بالأثر الوارد عن نفر من الصحابة والتابعين المشهورين بالعلم والفقه، مثل بن عمر، الذي كان يأخذ ما دون القبضة، ويسوي لحيته طولا وعرضا.

وهذا الاجتهاد من هذا المحدث السلفي مهم عندنا، لأن حديث إطلاق اللحية جاء عامًّا، دون تقييد أو استثناء أو إباحة لأي تدخل في شكل اللحية، فأن يقوم بن عمر بالتدخل والأخذ منها، فهو بذلك قد خالف ظاهر الأمر وظاهر الحديث، خاصة أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يفعل ذلك ولم يأخذ من لحيته، وهذا التدخل من بن عمر حاسم في أنه فهم أن حديث الرسول ليس أمرا تعبديا دينيا مؤبدا، بل هو أمر فيه استحسان واستحباب ومراعاة للعرف والمظهر العام، وأنه يجوز التخفيف من هذا الأمر، أو التقليل من حدته، ومخالفة شيء منه، بالأخذ من اللحية بدلا من إعفائها بشكل كامل.

إذن لو عاش بن عمر ألف سنة تالية، ربما لظل يقصرها حتى استخدم موسي الحلاقة!

في يوم سألهم الرسول ليحفزهم على الانتباه: أخبركم بمن يحرم على النار؟

(يحرم على النار كل لين هين سهل قريب) - رواه أحمد والترمذي وبن حبان -.

انظروا لهذا الكلام بالغ القيمة والتأثير والعمق. إنه يخاطب النفس ويراهن على ما فيها من جمال وعظمة. فقط كن لينا سهلا متواضعا رفيقا بالناس، ولا تخش شيئا بعدها. وبالمناسبة الأمر ليس سهلا أبدا، وبعدها حبيبك رسول الله يعدك أن النار حرام عليك.

هل عرفتم كم هو دين عظيم في يد جماعة من البلهاء؟

-4-
الإنسان أولاً

كشف مؤتمر الاقتصاد العالمي بمدينة دافوس، أنه في العام 2016 يكون ما يملكه 1% من سكان العالم الأكثر ثراءً، يفوق ما يملكه مجموع 99% من باقي البشر. ما تملكه طبقة ال-1% يساوي 51% من ثروات العالم، وتمتلك 7% من الطبقة الأكثر ثراءً 35% من باقي الثروة، وبذلك يمتلك 8% من سكان العالم أكثر من 85% من الثروة، بينما 90% من سكان العالم يتشاركون في أقل من 15%.

السياسات الاقتصادية المتبعة أدت إلى زيادة معاناة الطبقة الأكثر فقرا، وتكريس الظلم، وتراكم الثروة في يد القلة المالكة بصورة مجحفة.

والظلم الحادث في احتكار الثروة، كان بمثابة اليد الخفية التي حركت العديد من الصراعات والحروب الإقليمية والقبلية ومظاهر العنف، في الكثير من البلدان.

بعض الاتجاهات العلمانية في قسم الفلسفة بجامعة هارفارد، كتبت على باب القسم: (الإنسان معيار الأشياء). ولكن رئيس جامعة هارفارد الذي يختلف مع هذه المقولة كتب بدلا منها: أي إنسان إذن؟

وهذا يجعلنا نتساءل: هل نجحت قيم الحداثة التي جعلت الإنسان معيار الأشياء، وأنه وحده يستطيع إدارة العالم من دون أي سند روحي أو غيبي، وانفصلت عن قيم الدين الكبرى من تكافل ورحمة، في أن تجعل هذا العالم أكثر عدلا؟

وهل نجحت الديمقراطية الحديثة في صياغة قوانين تحارب الاحتكار، وتنظم المنافسة العادلة، وتضع قيودا على أصحاب رأس المال، وتعطي للعمال حقوقا أوسع ومقابلا أكثر إنصافا نتاج عملهم؟

منظمة العمل الدولية كشفت أن هناك 400 مليون عامل يتقاضون دولارا واحدا في اليوم، رغم أنهم يقدمون دخلا أكبر بكثير لأصحاب العمل.

وزير العمل الأمريكي الأسبق، يقول إن أصحاب الشركات ورؤوس الأموال الكبرى يتدخلون في تمويل انتخاب أعضاء الكونجرس وتمويل حملات الرئاسة، ومن ثم يملكون الضغط داخل مجلس النواب لتمرير قوانين تحميهم من الضرائب ومن المخالفات المالية الكبرى.

أحد البنوك الأمريكية التي أفلست في الأزمة المالية منذ بضع سنين، اكتشفوا أن مديره حصل على مكافآت بمقدار 400 مليون دولار! وبإحصائية بسيطة اكتشفوا أن رؤساء الشركات الكبرى في معظمهم يقومون بمخالفات مالية ضخمة، ويفلتون من العقاب، أو يستطيعون دفع غرامة أقل بكثير مما تكسبوه ظلما.

تلك هي الجريمة الكبرى في عالمنا الحديث؛ الظلم والفساد المالي والتسلط واستعباد الناس وامتلاك رقاب العباد. وكما يقول الكاتب الفرنسي بلزاك: (خلف كل ثروة كبيرة ثمة جريمة كبيرة).

ولو عدنا للإسلام نجد أن الله في القرآن بعد أن فرض مصارف الصدقات، أوضح الهدف منها (كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ) 7 – الحشر.

أي حتى لا يصير المال متداولا بين طبقة مغلقة من الأغنياء فقط. وظيفة المال أن يخرج عن تلك الدائرة المغلقة على طبقة خاصة لا تجاوز 1%، وهنا أتجاوز وأقول إن الصدقة لا تتوقف عند جنيهات قليلة من أموالك، بل يجب أن تطال قدرا معتدلا من الثروة لو زادت على حد معين، وقد تصل إلى ربع المال، كما هو حادث في بعض نظم الضرائب الحديثة.

قال الله (وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ) 33 – النور، ونسب الله المال إلى ذاته حتى لا يتملكنا النهم

في امتلاكه وكنزه والبخل به على الناس. ونسب الله المال لضمير الجمع في القرآن، سبعة أضعاف ما نسبه لضمير الفرد.

الإسلام يحمي حق الملكية والحريات الفردية، بل والحق في الثراء، لكن بشرط ألا يطغى ذلك على حق المجموع في حياة آدمية.

يحكي أبو سعيد الخدري، أن رسول الله (ص) في إحدى سفراته أمرهم، فقال: (من عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له...) وظل رسول الله يعدد صنوف المتاع حتى قلنا إنه ليس لنا في فضولنا شيء) 3898 مسلم.

من عنده فضل ظهر، أي وسيلة ركوب إضافية، فليعطها لمن لا يملك. وفضل زاد، وهو الطعام الذي يفيض عن حاجة الإنسان، فوقت الاضطرار يصير الناس متشاركون في كل متاع متاح لديهم.

من حقك أن تمتلك ما تشاء، وأن تؤمّن حياتك ومستقبلك، فالنبي كان يدخر قوت سنة لأهله، لكنه ليس من العدل أن تختزن ما يفيض عن حاجتك ولن تستخدمه، بينما الناس من حولك يعانون نقصانه. تلك الروح هي التي تنقص الناس الآن، خاصة أن العالم يحوي من الثروات ما يكفي البشرية ويفيض.

نستطيع أن نضع أيدينا هنا على سنة الرسول المقصودة والباقية، والتي جاءت الرسالة على تأكيدها. نضع أيدينا على مقاصد الدين وروح الرسالة، وهي القدرة على تجاوز الذات ونشر مشاعر الكرم والحب والتخلي عن الإفراط في الأثرة والشح، والنظر بعين الاعتبار إلى مسؤوليتنا عن حق الآخرين في حياة طيبة، وذلك لأننا نرجو ما عند الله من رضا ورحمة.

وجعل الله الفارق بين المسلمين والكفار، هو قدرة الأولين على رعاية الناس والنظر لهم برحمة، أما الكفار فخلعوا يدهم من المسؤولية وعاشوا منكفئين على أنفسهم، بل زعموا أن الفقر والجوع قدر من الله على الآخرين وأنهم لن يتدخلوا لتغيير إرادة الله!

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) 47 – يس.

المؤمن هو الذي يشعر بمسؤوليته الشخصية عن الارتقاء بمن حوله، ومساندتهم في حياة كريمة وطيبة، والكافر مستهتر بالجميع، ولا يشعر بالتضامن مع أحد سوى ذاته، ويهمل كل من حوله، ويرمي ذلك على القدر، أو على تكاسل الغير.

وفي طبقات بن سعد، عن عمر بن الخطاب، أنه قال في آخر عهده: (لو عادت بي الأيام لأخذت فضول –زيادات– أموال الأغنياء فقسمتها على الفقراء وجعلتهم رجلا واحدا).

وكان بن حزم يقول إن كل مدينة عليها أن تقوم بفقرائها، فإن تخاذلوا عن ذلك أجبرهم الإمام.

وقال علي بن أبي طالب، ما جاع فقير إلا بما متع به غني.

وهذا ما يجعلني أتساءل عن أي دين نفهمه ونؤمن به ونريد تطبيقه. هل هو دين يحث على تجاوز الذات وكفاية الناس وتنمية الحياة ونشر مشاعر الرحمة والرعاية؟ أم دين التفجير والتكفير والمظاهر الشكلية الجوفاء؟

وأي صورة للتاريخ نريد إحياءها. هل نعيد صراعاته ومآسيه، أم نستلهم أفضل ما فيه؟

ونتساءل كما بدأنا: هل عندما تخلى الإنسان عن قيم الدين العليا وارتكن إلى شهواته وظلمه صرنا نعيش في عالم أفضل؟ وهل مظاهر الحداثة قادرة على النفاذ إلى قلب الإنسان وعاطفته فتجعله أكثر إنسانية؟ أم أن الحداثة قد تجعله أكثر شحا وظلما وخوفا؟

الإسلام هو الحل، لكن ليس إسلامهم بالطبع.

-5-
الله الواحد

أي معادلة تخلو من الله هي معادلة -لا شك- خاسرة، حتى لو أضيفت لها الأموال والنفوذ والثقافة والعلم.

لو أخرجت الله من حساباتك تصير الحياة عبثا كبيرا لا طائل من ورائه، وتتحول إلى صراع يبحث الناس فيه عن التعاسة والشقاء. الإنسان أناني بطبعه، تدفعه غريزة البقاء ويهرب دائما من خوف دفين، ويسعى لامتلاك القوة، كما يقول عالم الرياضيات الإنجليزي هوبز، وفي سعيه لا يصبح العنصر الأخلاقي دائما هو الأساس. لذلك كانت الحروب هي أكبر حقيقة في تاريخ الإنسان ولازمته في كل العصور. فلو عرّفنا الإنسان بأنه (كائن محارب) لما أخطأنا كثيرا.

أوروبا خلال القرون الخمسة الماضية مرت بجميع مراحل التطور البشري. عصر النهضة ren ثم عصر التنوير enlightenment وانتهاء بالحداثة modernism والتي عبر عنها هيجل ب-)الوعي الذاتي بوضع الإنسان في التاريخ)، أو قدرة الإنسان على التخلي عن حالة عدم النضج الاختيارية، وامتلاكه أدوات المعرفة دون الاعتماد على التلقين. وكان أهم ما في تلك المرحلة، الاكتشافات العلمية الجبارة والثورة الصناعية التي قدمت المعجزات والتحرر من اللاهوت الديني وسلطان الكنيسة. وانتشرت الفلسفة والثقافة والفنون.

لكن هذه العصور هي أكثر العصور التي شهدت موجات احتلال للدول الفقيرة والمتخلفة. استغلت أوروبا قوتها في بسط نفوذها على العالم ونهب ثرواته وتسخير شعوبه عبيدا يعملون لصالحها. ولا صوت يعلو فوق صوت المدفع.

لم يجعلهم العلم أكثر إنسانية. ولم تجلب لهم فلسفة فولتير أو كتاب (روح القانون) لمونتسكيو، السعادة وراحة الضمير. بل وامتدت الحروب الضارية بينهم لعشرات السنين في عصر التنوير والحداثة، فرنسا وألمانيا لم تكفا عن الحرب منذ عام 1870 وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية 194، إلا بعد أن طحنتا بعضهما وأيقنتا أنه من المستحيل أن تستمر الحياة بتلك الطريقة. بل بعد الحرب العالمية الأولى فرضوا على ألمانيا صلح فرساي، وكان صلحا مهينا يخلو من أي لمسات عدل، حتى إنه هو الصلح الذي شحن نفوس الألمان بالغضب وشعور الذل، فاستجابوا لأول متطرف مجنون مثل هتلر يخاطب فيهم نزعات العنصرية والسيادة البيولوجية على شعوب العالم.

الولايات المتحدة الأمريكية تشارك وحدها بنصف معدل الثقافة العالمية، من كتب ومجلات ودوريات علمية وسينما وأدب ومسرح، لكنها كدولة لا تمارس أي وازع أخلاقي أو ضمير إنساني في تصرفاتها الخارجية. لن أسرد وقائع في العراق أو كوبا أو حتى اليمن. لكن يكفي أنها تساوم العالم على قانون يحمي جنودها من المساءلة عما يرتكبوه من جرائم خارج حدودها.

الجاهلية تعود من جديد. لو سرق فيهم الشريف -في المجتمع الدولي- تركوه. يؤكد ذلك ما حدث في مجزرة رواندا التي وقعت عام 1994. عندما قتلت قبائل الهوتو والتوتسي قرابة مليون إنسان، في أسوأ حرب أهلية شهدتها القارة الإفريقية. حدث ذلك في ظل سكوت وتواطؤ من المجتمع الدولي، كما يقر أمين عام الأمم المتحدة بان كي مون. فرنسا نفسها تواطأت مع الديكتاتورية العسكرية في إفريقيا من أجل الحصول على امتيازات النفط بأسعار مخفضة. والممثل الأمريكي براد بيت يعد فيلما حول هذا الموضوع، التواطؤ بين شركات النفط الغربية وبين زعماء الدول المتخلفة للحصول على النفط بأسعار بخسة، مقابل عمولات ورشاوى. والضائع الوحيد هم شعوب هذه الدول الفقيرة المعدمة.

لو تأملنا نصوص الإسلام سنجد أن الهدف الرئيسي منها القضاء على أسباب الصراع في الحياة. وأسباب الصراع تتمثل في الذاتية والأنانية والخوف والسعي غير الشريف لامتلاك القوة التي تحمي غريزة البقاء. الدين لم يهتم كثيرا بالمسائل الشكلية مثل شؤون السياسة وشكليات العبادة، لكنه نفذ إلى الإنسان، يطمئنه لوجود خالق يرزقه ويحميه ويبارك أعماله ويحثه على السعي في الدنيا، لكن دون خوف أو جشع أو استخدام وسائل غير مشروعة لتحقيق أهدافه، ويعده بالطمأنينة والأمل وراحة البال، ويعده الجنة.

هذه الوصفة تمنح الإنسان السلام النفسي، والراحة لوجود خالق يسيّر الكون، والثقة في عدله، وأنه يعاقب المسيء في الدنيا والآخرة، ويمنح المحسن في الدنيا والآخرة، ويأمر بالصبر على البلاء. وهذا الشعور يردع الإنسان عن طغيانه لو امتلك القوة، ويحميه من الإحباط والكراهية والحقد لو واجه الصعاب.

وجعل الله سبب النجاة في الدنيا شيئين. القلب وما فيه من خير ورحمة وعفو، فقال للمسلمين الأوائل الذين فقدوا أموالهم ومراكزهم (إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ) 70 – الأنفال. التحدي الأول في حياتك هو قلبك وما فيه من قيم ومشاعر نبيلة. الله يقسم المعادلة بينك وبينه، لو في قلبك خير فلا تخف، يؤتك الله خيرا مما أخذ منك في الدنيا، ومكافأة في الآخرة وهي المغفرة. وماذا لم لم يكن في قلبك خير؟ إذن لا تلومن إلا نفسك، ولا تسخط على الله لأنه لم ينصرك ويرزقك.

الشيء الثاني هو العمل، فقال (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنسان إِلَّا مَا سَعَى. وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى. ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى) 39-41 – النجم. وهنا يبني القرآن الحياة على قيمة العمل، ويمنح الإنسان قيمة في ذاته ويجعله مسؤولا عن حياته. العمل القويم الذي يراه الله ويراقبه، وليس الشعوذة أو الفهلوة والمؤامرات والسبل غير المشروعة. أيضا لا تشغل نفسك بأعمال غيرك الصالحة أو الفاسدة. ولا تجعل منهم شماعة لفشلك وكسلك وإحباطك. اهتم بعملك واعلم أن الله يراه وهو خير من يكافئ عليه.

ثم يزيل جميع أسباب الاحتقان والاحتكاك بين الناس: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ، لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) 105 – المائدة.

المسؤولية الأولى للمؤمن هي أن يبحث لنفسه عن سبل الهداية، ثم يترك الناس وشأنها، ولا ينشغل باختياراتها أو أعمالها، حتى لو أيقن أنهم في ضلال مبين. الآية لا تدعو للسلبية بقدر ما تدعو للمسالمة وحماية حق الاختيار، وعدم وجود سلطة بشرية من أحد على أحد. الإسلام دين تبشيري بالأساس ويدعو للاختلاط بالشأن العام وحماية حقوق البشر والأمر بالمعروف ومقاومة المفاسد، لكن هذا في مجال السياسة العامة، وحق المجتمع، أما في مجال الحياة الخاصة أو الحق في المعتقد، فلا سلطان لأحد على أحد، وتلك الآية تقرر هذا تحديدا. لا يضركم من ضل إذا اهتديتم. ثم إلى الله مرجعنا جميعا، هو وحده عز وجل الذي يفصل بين البشر ويحكم على أعمالهم.

ويصالحنا القرآن على التاريخ فلا نعيد إنتاج صراعات الماضي بأثر رجعي، فيقول (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) 134- البقرة.

ويكررها القرآن حرفيا مرة ثانية في نفس السورة آية رقم 141 لتأكيد المعنى، فكم من صراعات تافهة لم نحسمها حتى الآن ونعيد التقاتل عليها.

ويحارب كل نوازع الأنانية داخلك، يأمرك بالزكاة والصدقة ورعاية الفقير والمسكين والضعيف، حتى لو أنفقت شطر مالك. ويأمرك بغض البصر عن أمتعة الناس وثرواتهم، حتى قال لنبيه الكريم، وهو أيقونة الزهد (وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ

خَيْرٌ وَأَبْقَى) 131- طه.

لا تنظر إلى متع الحياة في أيدي الآخرين واكتف بما لديك. والقناعة والميل للزهد والرضا والأمل فيما عند الله من خير، يعد السبب الأول في سلام النفس، وإصلاح ما بين الناس من علاقات، ونشر الطمأنينية في المجتمع.

ثم اختصر الدين الكبير مترامي الأحكام والمعاني إلى كلمات بسيطة:

(لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ، وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) 114- النساء.

الله يقول لنبيه لا خير في كل ما يقال من حولك. سرهم ونجواهم. إلا أن يتخلى أحدهم عن أنانيته وميله للشح والاكتناز ويأمر بصدقة. يحيي قيمة التكافل والعطاء وتجاوز الذات ورعاية الآخرين. أو معروف، وهو ما تعارف الناس على أنه خير ونماء وطمأنينة. أو إصلاح بين الناس، لإزالة التشاحن والكراهية والقضاء على نوازع الخلاف، التي هي سبيل الخوف والقلق الاجتماعي الذي يولد العنف ويولد الحرب، ويكون ذلك إخلاصا لله، وليس في سبيل الشهرة وإثبات الذات.

قال الفيلسوف الفرنسي بسكال منذ زمن: لقمة العيش وحدها لا تكفي. فالإنسان يحتاج إلى الحنان بعلاقات طيبة في المجتمع، ويحتاج إلى الإيمان الديني كبعد روحي لا يعوضه أي شيء غيره.

الإسلام يدفع إلى سلام النفس. الذي هو المفتاح للقضاء على الشر والعنف والحرب. وأي تفسير خارج هذا السياق فهو مبتور أو مشوه أو يعالج قضية هامشية، جزئية وفرعية، دون الإلمام بالمقاصد الرئيسية.

مشكلة النص الديني أنه يحمل بعدا إنسانيا وتاريخيا وواقعيا، وأي تفسير له لا يأخذ في حسبانه المقاصد العامة والأهداف الكبرى، على يد نفوس مشوهة نصف متعلمة أو نصف مريضة، غالبا ما ينتج العنف والكراهية والعداء تحت غطاء ديني ركيك ومفتعل، وغالبا يكون إسقاطا لذواتهم المعتلة على قداسة الدين.

الحروب الصليبية لم تكن لتحرير القدس من أيدي (الكفار) المسلمين مثلما كان يرى آباء الكنيسة، بل للسيطرة على طرق التجارة وفتح أسواق جديدة. ومفهوم الدولة الإسلامية لم يكن لإقامة الدين على طول الخط، بل كان كثيرا استجابة لشهوة السلطة والانتصار العائلي أو القبلي.

إنهم لا يعبدون الله الذي نعبده غالبا، بل يعبدون إلها غليظا حقودا يشبه ميولهم المنحرفة ونفوسهم المختلة، لكنهم أكثر جبنا من الاعتراف بذلك، فيحاولون أن يقنعوك أنهم بذلك يطبقون مقدسات الدين.

-6-
لماذا الإسلام؟

الكلمة مشتقة لغويا من السلام والسِلم والمسالمة والاستسلام لله.
وتحية الدين هي السلام.
ونتحلل من الصلاة كل يوم خمس مرات، بإنشاد السلام عن اليمين والشمال على الدنيا. كأننا نخرج من الحديث مع الله إلى المشاركة في الحياة، فتكون أول كلمة هي السلام.
وعندما يكافئ الله البشر بدخول الجنة لا يسمعون فيها إلا السلام، قال الله (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا) 25-26 – الواقعة. فالسلام هو النعيم الأكبر.
وصفة المسلم الأولى، كما أخبر الرسول (الذي سلم الناس من لسانه ويده). وأفضل صيغة للإسلام تعبد الله بها هي (أن تطعم الطعام وتلقي السلام على من عرفت ومن لم تعرف) كما ذكر الرسول، وفيه جواز إلقاء السلام على من لا تعرفهم، ويرد فيهم المخالفين في الدين لأنك لن تسأل كل واحد عن دينه قبل إلقاء السلام. والإسلام هنا معناه الاجتهاد كي يصل الجميع إلى الأمان الإنساني على الأنفس والأموال والعلائق المشتركة.
قال الله في القرآن (وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا) 86 – النساء. فرد التحية على الجميع فريضة دينية، وبأحسن مما سمعتها، ولم يشترط القرآن دين من ألقى التحية. ولم يشترط شكل هذه التحية أو كلماتها. فيدخل فيها كل تحية طيبة تعارف عليها البشر وإن لم تكن تحيتنا الإسلامية الخاصة. وترد التحية بذات الصيغة التي أُلقيت عليك.
الكلام الحسن ترده على الناس بكلام حسن، هكذا أوصى الله. فما بالك لو بادلك الآخرون فعلا حسنا وسلوكا حسنا واختراعات حديثة ووسائل حياة تزيد الحياة سهولة وأمانا!
هل تبادلهم القتل والعدوان إذن؟
ومع الأعداء، قال القرآن (وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) 61 – الأنفال. وقال أيضا (فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً) 90 – النساء. فيحرم عليك التعرض لمن وادعك وآثر السلام.
ومع الدواب والحيوانات قال الرسول (ص) (اركبوها سالمة ودعوها سالمة) 15337 – مسند أحمد.
وعندما سمع زوجته تغلظ القول على البعير (الجمل) وهي تركبه، نهاها، وقال (إن الله يحب الرفق في الأمر كله) 5678 - البخاري، فيوصيها بالرفق مع حيوان متمرد.
وتحدث القرآن عن إطعام الطعام لأسير العدو بين أيدينا (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا) 8 – الإنسان.
وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أفرج عن الأسرى، أرسل يحضر لهم ملابس جديدة حتى يلحقوا بأهلهم مكرمين، بعد أن بليت ملابسهم في السفر والحرب، وكان يعطي بعضهم دابة يحمله عليها.
ونهى عن أن يفرق بين أم وطفلها حتى لو كانت من الأعداء. وقال (من فرق بين أم وولدها فرق الله بينه وبين أحبته في الآخرة) الترمذي. فتعاقب على عملك السيئ حتى لو كان ضد عدوك.
ومن كلمات القرآن (ولا تُصَعّر خدك للناس) 18 – لقمان، يصعر أي يرفع، والمعنى لا ترفع وجهك عن الناس تعاليا وكبرا حين يحدثونك. انخفض لهم تواضعا ومحبة، وانظر لمن يحدثك ولا تحرك وجهك عنه تجاهلا وإهمالا. القرآن ينهى عن إيذاء الناس ولو بحركة الوجه لأعلى. دون كلمة ضارة أو فعل مسيء. وهنا مساحة أخرى من السلام وهي التي تبعثها للناس بلغة الجسد وبالإشارة لو عجزت

عن الحديث.
وكانت أكثر الكلمات كراهة للنبي محمد هي (حرب) وكان إذا سمع أحدهم يتسمى بها غيّر اسمه.
نحن نعبد الله ببعث السلام وصناعة هذا السلام بكل طريقة ولو بلغة الجسد.

-7-
السلف

لو لاحظنا استخدام القرآن لكلمة سلف لوصف أشخاص، ربما لن نصل للنتيجة الثابتة المتداولة في أذهان الناس لتقديس هؤلاء السلف، وهم الآباء والأجداد والبشر الراحلون. فالسلف في القرآن لم يكن سلفا صالحا، بل سلف هالك نزل به العذاب.

يقول الله (فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ) 55 - 56 - الزخرف.

وجعل الله الانتقال من الحاضر إلى الماضي لا يصحبه دائما نية صادقة أو هديا صالحا، بل كان تُكَأَة وقياسا فاسدا يريد به البعض استدعاء نماذج سلبية ومدمرة من ماض سحيق، يريدونها تجميلا لواقعهم المشوه، أو تبريرا لتصرفات همجية يظنون أنها تكتسب شرعية حينما تسند إلى الأجداد.

وشنّع الله عليهم وعلى آبائهم وجعل أن الفعلة لا تكسب حصانة أو قداسة إذا نسبت إلى الآباء، بل غالبا اقترن هذا الإسناد إلى الماضي بالضلال والتكذيب والهلاك والفاحشة. قال الله (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا، قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) 28 - الأعراف.

إضافة إلى ذلك يعري الله من يضيف قداسة دينية لأقواله وأفعاله، حتى يخفي سوءات استنتاجه بزعم أن الله قد أمر بها. غالبا يأتون بنصوص تحتمل أقوال وتأويلات مختلفة. كما قال علي بن أبي طالب عن نقاش الخوارج (إن القرآن حمال أوجه). والله أخبرنا أن نتبع أحسن ما أتانا من ربنا، وكل ما يأتينا من الله حسن. لكنه ينمي لدينا المهارة في استخلاص الأحسن حتى لو من كلام الله نفسه، وهو ما ينصرف إلى أفضل التفسيرات والتطبيقات لكلام الله.

ومرات متوالية يشنع الله على الاتباع الأعمى للأسلاف الآباء والأجداد، دون قبول الهدى وإعمال العقل وترك ركام الماضي للقبول بتحديات العصر وما يستجد من معلومات وأحداث.

(إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ. فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ) 69-70 – الصافات.

(قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ، قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ) 24 – الزخرف.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) 170 – البقرة.

وإذا انتقلنا من القرآن إلى السنة، نجد حديثا مهمًّا في هذا الصدد، وهو في مسند الإمام أحمد والتاريخ الكبير للبخاري وطبقات بن سعد، أن رسول الله (ص) قال:

(إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم أو تلين له قلوبكم وجلودكم وترون أنه منكم قريب، فأنا أولاكم به. وإذا سمعتم الحديث تنكره قلوبكم أو تنفر منه قلوبكم وجلودكم وترون أنه منكم بعيد، فأنا أبعدكم عنه).

وهنا يجعل الرسول معيار قبول كلامه فوق السند والتوثيق التاريخي، الذي قد يخطئ أو يكون مضللا، هو ما تلين به القلوب والجلود فلا تشمئز منها. وكل ما نجده قريبا من النفوس والفطرة السوية وصالح الناس. وكل ما ينكره القلب وينفر منه الإنسان فهو ليس من كلام الرسول ولو أقسموا على صحته.

واهتم القرآن بعد تحرير الناس من العادات والأعراف السيئة والذاكرة التاريخية السلفية المدمرة، أن يحررهم من عبودية طبقة رجال الدين في كل دين، فقال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ

وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ) 34 – التوبة.
وقال (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ) 31 – التوبة.
وعندما علق أحد الصحابة على هذه الآية بأنها لا تنطبق عليهم مثلما انطبقت على أقوام سابقين، قال النبي ألا تُحرمون على أنفسكم ما يحرمون عليكم وتطيعونهم في كل أمر؟ قال الرجل نعم، قال الرسول فتلك عبادتكم لهم. إذن فكل من يلغي عقله وينساق وراء رجل دين، ويقلد كل أفعاله، دون نقد ودون تفنيد ودون بحث، فهو بذلك يعبده، ويترك عبادة الله، حتى لو كان يصوم ويصلي، لأن إلغاء العقل هو إلغاء للاختيار الواعي، فتصير العبادة بلا معنى حقيقي يثبت تعلق الإنسان بربه.
وجيل الرسول الذين ندعي اتباعهم، لم يكونوا سلفيين، بل اختلفوا مع بعضهم اختلافات كثيرة ولم يقلد أحدهم أحدا دون قناعة. ولو أخذنا قضية الإمامة أو الخلافة وحُكم المسلمين نكتشف ذلك.
فالرسول عليه الصلاة والسلام في نزعات الموت، أمر أبا بكر بالصلاة بالمسلمين إماما، وبعد رحيل الرسول (ص) لم يفهم الصحابة أن ذلك فيه معنى مباشر لتولية أبي بكر إمامة المسلمين سياسيا، قياسا على إمامة الصلاة. فقد ميزوا بين الوظيفة الدينية والسياسية. لذلك فكثير من الصحابة اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة، وهم الأنصار، واتفقوا على تولية سعد بن عبادة، دون الالتفات لإشارة إمامة الصلاة لأبي بكر.
وظل سعد خليفة بضع ساعات، حتى وصول عمر بن الخطاب وأبي عبيدة وأبي بكر الصديق، فتغيّرت الوجهة.
وبعد أن تولى أبو بكر عيّن عمر بن الخطاب نائبا له، وبعد أن مات أبو بكر اجتمع الناس على عمر، وتلك كانت طريقة مختلفة عما فعله الرسول. لأن الرسول لم يسم نائبا له، أما عمر بن الخطاب فاتبع أسلوبا جديدا مختلفا عن أسلوب النبي وأسلوب أبي بكر، فبعد أن نال طعنة غادرة من الظهر، سمى ستة نفر من كبار الصحابة لتكون الشورى فيهم. وقال إن سميت خليفة فقد سمى من هو أفضل مني (يقصد أبي بكر) وإن لم أسم، فلم يسم من هو أفضل منا (يقصد الرسول).
ابن تيمية:
ولو احتكمنا إلى إمام السلفية المعاصر بن تيمية، لوجدناهم مخالفين له في كثير من الأمور الفقهية، فهو أول من خالف السلف واحتج على الصحابة ولم يلتزم بما جاءه من التاريخ، بل قال إن عمر بن الخطاب له أخطاء كثيرة وعلي بن أبي طالب أخطأ في 300 مسألة. ورفض الإجماع الواقع على وقوع الطلاق البدعي من فقهاء السلف، وهو طلاق الرجل لزوجته في أثناء حيضتها أو في طهر جامعها فيه، وقال بعدم وقوعه.
وقرر خطأ سيدنا عثمان خليفة المسلمين في تصرفاته السياسية، وهو ما جعل الناس يثورون عليه، عندما حابى أهله في الأموال والولايات حتى بان منهم الظلم وجأر الناس بالشكوى.
ورفض بن تيمية السلف وأبدع لنفسه خطا مستقلا، ورغم ذلك جاء أتباعه يزعمون نهجه، ثم حولوا الرجل إلى وثن يعبد من دون الله، يحلون ما يحله ويحرمون ما يحرمه.

-8-
إدارة الدنيا

لو دققنا الملاحظة حول كبار الصحابة ومشاهير التاريخ الإسلامي، الذين نذكرهم حتى الآن ونعتبرهم قدوة ومثلا، نجد أنهم لم يشتهروا بكثرة الفتوى والتعمق في الفقه والفروع. بل بعضهم لم يحفظ القرآن ولم يرو الحديث.

فعمر بن الخطاب، ظل عشر سنين يحفظ في سورة واحدة هي سورة البقرة، وعندما أتمها احتفل وذبح جزورًا. لو مشينا بنفس المعدل فالفاروق عمر لم يكمل ربع القرآن في حياته كلها، رغم أنهم في بيئة عربية تحتفظ بنقاء وقوة الذاكرة.

ولو فتشت كتب الحديث عن روايات أبي بكر الصديق تجدها قليلة جدا، لا تناسب قرب الرجل وملاصقته للرسول في كل حياته. والإمام البخاري في كتابه لم يرو لعلي بن أبي طالب سوى حديث واحد.

لكن هؤلاء الكبار اشتهروا بأعمالهم الدنيوية ومنجزهم البشري وقدرتهم على الإدارة والتطوير ومواجهة تحديات العصر، وابتكار منظومة قيم سياسية وفكرية تمثل طفرة في مسيرة الإبداع والابتكار البشري وقتها.

لم يكونوا رموزا دينية أو فقهية بقدر ما كانوا رموزا إصلاحية صنعت نقلة مهمة في حياة الناس.

كان أبو بكر الصديق وهو خليفة المسلمين وله جيوش كبيرة تحارب هنا وهناك، رجلا بسيطا متواضعا يمشي في الطرقات كآحاد الناس، يجلس على الأرض ينتظر الفتيات اللاتي يرعين الغنم يحلب لهن الشاة. تخيل صورة رئيس الدولة وهو يجلس على الأرض يمسك ضرع شاة يحلبها ويلاطف جارية، ربما هو مشهد لم تعرفه الحضارات الكبرى الموازية في فارس وروما، التي كان ملوكها يعيشون في بذخ وحراسات مدججة بالسلاح، وانفصال كامل عن شعوبهم التي تعاني الفقر والحاجة. بل وصل الأمر إلى الملوك الآلهة الذين يسجد الناس عند أقدامهم.

نحن نتذكر أبو بكر وهو يخطب في الناس، يقول: (لو أحسنت أعينوني ولو أخطأت فقوموني). أكثر ما نتذكر عبادته وورعه وتقواه، ليكرس أفضل ما في الديمقراطية من مساءلة ورقابة ومنح الجماهير الحق في النقد وإبداء الرأي تجاه الحاكم، والذي لم يعرفه العالم إلا في النصف الثاني من القرن العشرين.

كما أننا لا نذكر لعمر بن الخطاب عبادته وحفظه لأحاديث الرسول، ولكن نتذكر له التحديث الإداري والسياسي الذي أدخله على الدولة، رغم أن الرسول مات منذ وقت قريب ولم يفعل ذلك، فأدخل عمر الدواوين ونظم الجند، ومنح مرتبا لكل رضيع، في ما يعرف في الدول الأوروبية ببدل بطالة، ولم تعد العائلة التي تدفع الدية عن القاتل هي عائلته وقبيلته كما كان في عهد الرسول، ولكن أقرب الناس له وفقا لبيانات الديوان، حتى لو لم يكونوا من قبيلته (أشبه بالنقابات المهنية الحالية).

نتذكر لعمر عقله القضائي ونشاطه في العمل وقدرته على الإدارة، وشجاعته في التجديد وتجاوز ظاهر النصوص، مثل إلغاء سهم المؤلفة قلوبهم من مصارف الزكاة، رغم النص القرآني عليها، وجعل الطلاق ثلاثا بلفظة واحدة (طالق بالثلاثة) يقع ليرتدع الناس. رغم أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يجعلها طلقة واحدة، ما يمثل مخالفة صريحة لحكم النبي.

فنحن لا نمجد عمر بن الخطاب ونجعله خليفة راشدا يخلد في التاريخ بأعماله الدينية التعبدية، بقدر ما مجدناه لأعماله البشرية وإنجازاته الدنيوية التي حققت العدل بين الناس وحسن الإدارة ودولة الرفاهية

والتجديد الفكري والإبداع.

بل كان عمر بن الخطاب لا يتوسع في قبول الحديث عن الرسول، حتى لو جاء من صحابي، وكان يطلب شهودا على روايته، حتى لا يصرف الناس عن النص الأول القرآن الكريم. لذلك نهى عمر بن الخطاب أبا هريرة عن كثرة التحديث عن الرسول، وكان يضربه في ذلك.

لأنه يعلم أن الرسول نهى عن كتابة أحاديثه، كما روى الإمام مسلم، عن أبي سعيد الخدري، قال رسول الله:

(لا تكتبوا عني غير القرآن، ومن كتب عني شيئا غيره فليمحه).

ولم يصرح الرسول بكتابة الأحاديث إلا استثناء لرجل غريب عن المدينة، أبو شاه، لأن الرسول يريد أن يتعلق الناس بالله مباشرة، وألا يجعل حواجز بين عقل الإنسان وبين القرآن، ولتحفيز فطرة الإنسان على الاهتداء للخير دون مرشد، وإعطاء كل إنسان الحق في فهم القرآن واستنباط معانيه دون وصاية أو سلطة، وتنشيط عقله على الفهم والابتكار ومواكبة الحياة دون الانكباب على نصوص التاريخ غير الملائمة. بل انزعج الرسول عندما رأى أحدهم يكتب الحديث وقال: (أمثناة كمثناة بني إسرائيل)، ثم أمرهم بحرقها.

حرية الإنسان في العالم المعاصر ربما تعني قبل أي شيء، تحرير الإنسان من السلطة التعسفية القهرية الغشوم. والرسول كقائد كبير لتحرير الإنسان، حررهم من سلطان الكهانة وممارسة الوصاية الدينية، وعبادة البشر، أو كلام البشر، مهما كان مقامهم، وأسقط كل الحواجز بين الإنسان والله.

حتى إنه قال لهم عن نفسه، وهو رسول الله الخاتم إلى عباده:

(إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإن نسيت فذكروني) متفقٌ عليه.

كان الرسول عليه الصلاة والسلام وكبار الرجال من بعده، قادة لتحرير الإنسان من القهر والظلم والدونية، كانوا الأكثر رقيا وتقدما، ودفعوا العالم القديم خطوة إلى الأمام في سلم الإنسانية، وتركوا بصمة في حياة البشر للعدل والإنصاف والأمان الإنساني، استحقوا من أجلها الخلود.

الغريب أن نجد من يدعي اتباعهم لكنه الأكثر تخلفا ورجعية، ولا يمنح العالم غير الظلم والقتل والخراب، ويريد أن يعود بنا إلى الماضي السحيق. يضعون رؤوسهم إلى الوراء رغم أن الله خلقها تنظر للأمام.

-9-
في وصف الرسول

كان النبي يحب الحياة، ويتوقف عند أصغر نعمها، وكان يحب الفاكهة، وأول الثمر، إشارة إلى تباشير الخير، وكان يحب الأطفال، بشريات الأيام القادمة، وكان إذا أُتي له بباكورة الفاكهة، ينظر فيها ويضعها على عينه، ويمررها على شفتيه، يشعر بها ويقبلها، وتمتلئ أنفاسه برائحتها الطازجة التي تحمل معاني الحياة، ثم ينظر فيختار أصغر الجلوس من الأطفال ويعطيها له. تلك الروح التي واجه بها النبي الحياة والتي كانت تنبض من عينه ويبثها في أرواح تابعيه.

وكان ينتظر المطر، ويمد يده وأطراف ثوبه يبلله من قطرها، ويقول (إنه حديث عهد بربه). 898 - صحيح مسلم.

وبعد أن تمكن من مكة ومن حدود المدينة، واستقر الأمر له، لم يُشرّع لقانون الحرب، بل قانون التصالح، ليس مع البشر وحدهم، بل مع كل الأحياء، فجعل مكة والمدينة حرما، أي حرام فيها حمل السلاح لقتال، وحرم فيها الصيد، فلا يفزع حيوان عن موضعه، ولا يمس أحد شجرها بسوء، فكانت الظباء تسير فيها لأميال لا يقربها أحد، في مشهد بديع يليق بمحمية طبيعية ترتسم على غلاف مجلة (ديسكفري) أو بعدسات قناة (ناشيونال جيوجرافيك).

وكان يقول لأصحابه: (ما من مسلم يغرس غرسا فيأكل منه إنسان أو دابة أو طائر إلا كان له صدقة) 2195 – البخاري.

فتعاليمه الباقية والمؤبدة، والتي قصدها روحا تسري في تابعيه، أن تبعثر الخير على كل المخلوقات، وأن تزرع الحياة أينما حللت، وأن تنبت الزهور موضع قدمك، وأن تخضر الأرض إذا لمستها يدك. وأن يشعر الكل بالأمان في محيط وجودك: البشر والشجر وطيور السماء.

فالمسلم هنا بمعناه الأوسع، من سالم الحياة وسالم الدنيا ولم يفزع منه شيء، ولا يضع يده إلا للنماء.

قابل الرسول عليه الصلاة والسلام فتاة في الطريق، سألها عن اسمها، قالت اسمي عاصية، فلم يعجبه الاسم، ابتسم لها وقال لستِ عاصية، بل أنتِ جميلة. وصار هذا اسمها بعد ذلك.

الرسول لم يسمها اسما دينيا محضا على اسم زوجته خديجة أو عائشة أو زينب، لأنه يعرف أن الأسماء لا تجعل صاحبها تقيا ورعا، ويعلم أن الانتماء للدين لا يكون بتلك الطريقة الساذجة. أيضا علينا أن نتوقف عند اختيار الرسول: اختار جميلة. اسم رقيق وبسيط ومتفائل، يرى الجمال ويبشر به ويجعله اسما ملازما لحركة الناس في الحياة وهدفا لهم.

مرة ثانية، قابل الرسول رجلا وسأله عن اسمه، فقال اسمي حَزَن، بفتح الحاء والزاي وتسكين النون، ومعناه صعب وشاق. فقال الرسول لست حزنا بل سهلا.

هذه الأمثلة الصغيرة تعرض أبلغ تمثيل نتعرف من خلاله على سلوك الرسول، وميوله، وطبعه الإنساني، وقربه من الناس وتحسين صورة الحياة في عيونهم. ومزاجه المنبسط، وأنه، عليه الصلاة والسلام، أتى للحياة كي يجعلها تدور بين هذين الاسمين: جميلة وسهل.

اللافت أن الرجل الذي اسمه حزن لم يقبل اقتراح الرسول، واستمر على اسمه القديم، وقال يا رسول الله إن السهل يهان ويوطأ. ولم يعقب النبي على رأيه، ولم يتهمه بمخالفة وعصيان أوامر الدين. لم يكفر الرجل لأنه كانت له وجهة نظر مخالفة للرسول -حتى لو كانت خاطئة- والرسول يحترم هذا الاختلاف، خاصة أنه يقع في المساحة الشخصية للإنسان التي تركها الإسلام خالية من أي إكراه.

ومر النبي على قرية يقال لها عثرة، فقال لهم لا بل هي خضرة، كأنه يريد أن يزيل أي تعثر وعنت من

حياة الناس ولو كان مجرد اسم بلا تأثير. أو أنه يريد أن يكون اللون الأخضر أكثر الألوان حبا له وتعبيرا عن دينه. لون النماء، ولون الأمان، ولون الأرض الصالحة المزروعة التي تؤتي خيرا، وليس التعثر في أرض صلبة خشنة جافة أو صخرية أو مقفرة أو مزروعة بالموت.

الملاحظة الأخرى أن الرسول اختار أسماء موافقة للبيئة التي عاش فيها ومشتقة من اللغة التي يستخدمونها جميعا، مسلمين وكفار، ولم يعمد إلى الغرابة أو التعالي أو الاختلاف من أجل الشهرة.

أيضا رسول الله هو أول من خالف حديثه عن تسمية عبد الله وعبد الرحمن.

حدث ذلك مع أحفاده وأقرب الناس إلى قلبه، فعندما أنجبت السيدة فاطمة عليها السلام طفلها الأول، ذهب النبي وسأل عن اسمه، فقال الإمام علي سأسميه حرب. وكان الإمام علي فارسا شابا مملوءا بالعنفوان. وحتى تصير كنيته أبا حرب، كاسم يُنادَى به بين الناس. ولكن الرسول قال هو الحسن. تكرر الأمر مع الطفل الثاني، ورغبة الأب (الإمام علي) أن يسميه حرب، ثم اختيار الرسول الحسين. والثالث سماه النبي المحسن، ومات صغيرا.

وكلها اشتقاقات لمصدر لغوي واحد وهو الحُسن. أعلى درجات الجمال والسلام.

اختار النبي أسماء توافق ما بداخله من مشاعر. واختار أسماء عربية لا يصادم بها المجتمع المحيط. وكره الحرب والحزن (المشقة) حتى لو كان اسما لطفل وليد.

وكان عليه الصلاة والسلام متواضعا يسلم على الصبية في الشارع، وكان لأنس بن مالك أخ صغير إذا لقيه الرسول قال له (يا أبا عمير ما فعل النغير) مسلم. والنغير طائر صغير، كالعصفور، كان الطفل يربيه ويلعب به، وعرف الرسول اهتمامات الطفل. فظل يذكرها حتى إذا لقيه سأله عن عصفوره الصغير.

بعضهم الآن يعلم الأطفال القتل بقطع الرؤوس، ويظن أنه يقترب من سُنة الرسول، وما هو ببالغها.

-10-
حياة الرسول

لو قابلت أي مشكلة في حياتك فاعرف أن رسول الله واجه أكثر منها، ورغم ذلك أكمل مهمته بنجاح.
في البداية هو لم ير أباه، ثم بعد سنوات قليلة فقد أمه، فذاق طعم اليتم مبكرا.
وبعد أن نسي مرارة الفقد صغيرا، وصار رجلا ناضجا، ذاق المرارة من جديد، فالرسول دفن بيده ستة من أبنائه. وهي من أكثر اللحظات قسوة يمر بها إنسان.
وطرد من وطنه، وعانى ألم الاغتراب.
ولم يستجب لدعوته أقرب الناس إلى قلبه، عمه أبو طالب. وتلك خيبة أخرى. وماتت زوجته بعد رحلة زواج دامت ربع قرن، وتركته وحيدا، في فترة باكرة من البعثة، قبل أن ترى بعينها لحظات الانتصار والعزة.
وتعرض للشائعات والاغتيال المادي والمعنوي، ونجا من ذلك. وطالت تلك الاتهامات أهل بيته، زوجته، وطعنوها في شرفها، وهو اتهام يصعب على أي رجل تحمله.
وتصرف النبي بصبر وشهامة وصمود وتمالك أعصاب حتى آخر لحظة، ووقت انتشار الشائعة وعدم تأكد النبي مما حدث لم تمتد يد العدوان على زوجته. بل قال وهو يلجم زمام غضبه: (يا عائشة لو كنت قد ألممت بذنب فتوبي إلى الله). لم يسفك دمها أو يكسر ضلوعها.
وبعد انكشاف الغمة، عفا عن الجميع -بعد إنزال العقوبة بالمتسبب- وبدأ صفحة جديدة ولم يحولها إلى مذبحة وتصفية حسابات وانتقام للشرف الرفيع. وكان النبي يعلم أنه، كما أن الناس في حاجة إلى القانون ليضبط تصرفاتهم، فهم يحتاجون أيضا إلى الرحمة والقدوة الطيبة في العفو.
وتعرض النبي للحصار الاقتصادي في مكة سنين عدة، حتى دخل هو وصحابته شِعب أبي طالب (طريق ضيق) وكادوا يهلكوا جوعا حتى أكلوا ورق الشجر بعد أن نفد الطعام.
وذاق الهزيمة العسكرية عند جبل أحد على حدود مدينته، وهو القائد الملهم الشجاع، الذي تدعمه الملائكة، لخطأ من بعض تابعيه، لكنه لم يلمهم ولم يمارس عليهم الحكمة بأثر رجعي. بل أخذ هؤلاء المهزومين وسار بهم في الأيام التالية للهزيمة، وسارع بمطاردة بقايا جيش المشركين في غزوة حمراء الأسد، ليتأكد من عدم انقضاضهم على المدينة.
ورفض انضمام جنود جدد لم يشاركوا في الغزو السابق، ليرفع من الروح المعنوية لهؤلاء ويعلمهم أنهم قادرون على الانتصار من جديد.
ورغم كل الأحزان والويلات التي لاقاها، ظل الرسول محتفظا بروحه الإيجابية، وحبه للبشر، ومشاعر الخير والرحمة في قلبه. وكان راضيا بأقل ما يملك. لم يكن سوداويا أو حاقدا على أحد، ولم يستغل صعوبة الحياة لتبرير القسوة والكراهية أو فساد الأخلاق.
وبعد تمكنه من قومه الذين ظلموه وطردوه وقتلوا أعز الناس إلى قلبه -عمه حمزة- سمع أحد قيادات جيشه يقول (اليوم يوم الملحمة، اليوم تهلك قريش)، فقال عليه الصلاة والسلام: (لا، بل هو يوم المرحمة، اليوم يوم بر ووفاء). هكذا يتصرف النبلاء حين ينتصرون، ثم دخل خافضا رأسه على فرسه حتى كاد يلامس رقبة الفرس، خشية أن يظنوه ملكا منتصر يتعالى عليهم.
وعفا عن صحابي كبير -حاطب بن أبي بلتعة- رغم تورطه في قضية جاسوسية ضد جيش المسلمين لصالح المشركين، وتفهم ظروفه، فالرجل كان يريد أن يكون له فضل عند العرب حتى يحموا أهل بيته وعياله الماكثين وسطهم.

وعفا عن شاعر في الجاهلية -أبو عزة- وكان أسيرا مشركا في غزوة بدر. فهو يحارب الرسول، ويعين على المسلمين، وخرج ليقاتل أيضا، فالجريمة مزدوجة، ووعده الرجل أن يكف عن قتال المسلمين، فأفرج النبي عنه دون قيد أو شرط وتركه يغادر -وهو على الكفر- وأعلى من مبدأ حسن النية، رغم أن أبا عزة عاد من جديد وحارب الإسلام.

وأعلى من قداسة المبادئ فوق خصومة الأشخاص، ولم يلجأ للتحايل ولم يتنازل عن الشرف في أثناء الحرب. فعندما جاءه حذيفة بن اليمان وقد أفرج عنه المشركون بشرط ألا ينضم لجيش المسلمين، وأراد حذيفة أن يقاتل مع المسلمين، ويجحد الشرط، رفض النبي وقال: (نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم)، وتلك لحظة صعبة يستحيل على الإنسان الالتزام فيها بعهد باطل أخذ تحت سيف الإكراه والتهديد، وفي ظل ظروف حرب مفصلية تهدد كيان الدولة والدين معا. كأنه يقول: لن ننتصر عليكم بالخيانة. سنموت شرفاء أوفياء لو تطلب الأمر.

وكان يأمر أصحابه أن يتجنبوا في القتال نفرا من قريش خرجوا مع الجيش كرها، وقال عليه الصلاة والسلام: (لا تقتلوهم) وعاملهم على ما في قلوبهم، والعداوة بادية فيهم. بل كان يحمل المعروف لبعض المشركين الذين كسروا الحصار الاقتصادي -مطعم بن عدي- عنهم في مكة، وبادلوهم البيع والشراء خلافا لقرار قريش. وتجاوز ما هم عليه من شرك، وقدر ما هم عليه من نبل وفضل.

وغيّر حركة التاريخ في النظر إلى الحكام. فبعد أن كانت البشرية تعبد حكامها، وتضعهم في طائفة الآلهة، أو كأنهم صنعوا من دماء مقدسة غير تلك التي صنع منها باقي الرعية، قدم الرسول نموذج الحاكم الإنسان.

وكان إذا أفزع الناسَ أمرٌ كان أول من يتقدم لحمايتهم، وحل مشكلاتهم، والدفاع عنهم.

وتعرض لثورة داخل بيته، وتحالفت ضده نساؤه، وتآمرن عليه، واشتكين من قلة النفقة والمتاع. وأعلنّ التمرد، فحزن لذلك حزنا شديدا وتركهن شهرا بلا حديث، لا يعرف كيف يحل المشكلة. لم يلجأ للعنف أو التهديد، ولم يستخدم صلاحياته الدينية في التنكيل بهن، ولم يقل لهن أنتن تعصين نبيكن. ونزلت الآيات من السماء تعلن خطأ مسعى أزواجه وأن ما عند الله خير وأبقى، وأنهن في اختبار صعب أمام متاع الحياة الدنيا وزينتها، وبين ما أعد الله للمحسنات من نعيم الآخرة.

وكان يحب بناته، ويحسن إليهن، وأوصى بالنساء في آخر كلامه ومواعظه للناس. وفي مرة تزوج بامرأة، ابنة الجون، ولما دخل عليها، نظرت له وقالت مستغيثة: أعوذ بالله منك! فلم يمسها بِشر. ولم يجبرها على شيء. بل أمر لها بثياب جديدة، وراحلة، وأمر أحد الصحابة أن يرافقها حتى يصل بها سالمة إلى أهلها.

وقبيل موته جمع أقاربه وأوصاهم: (يا صفية عمة محمد، يا عباس عم محمد، لا يأتيني الناس بالأعمال وتأتوني بالأنساب)، ليكسر قاعدة التمايز الطبقي القائم على النسب أو العِرق أو الانتماء القبلي الذي ما زال يحكم الكثيرين حتى الآن.

وفي خطبته الأخيرة، قال، أبوكم واحد، الناس لآدم وآدم من تراب، وتلى قول الله (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) ليضع الأصل العام للعلاقات بين البشر، التعارف، والانتقال الآمن، والتقاء الحضارات والمعارف. وأقر التنوع والاختلاف بين الناس، حتى لا يحلم بعض المخبولين أن يصير العالم نسخة وحيدة على هواه، أو أن يجبر البشرية على فكره الخاص ونموذجه الشخصي. وألغى التفاخر بين البشر، والعداوة بينهم، وجعل الأصل واحدا، أخوة إنسانية، والمصير الأخير واحد، تراب. فكيف نتقاتل بعدها!

-11-
هل صليت على النبي اليوم؟

دعونا نتكلم عن هذا الملصق الشهير الذي تجده على الحوائط، وفوق زجاج السيارات وأبواب المنازل ومداخل العمارات، والذي أثار جدلا كبيرا.

في البداية، نحن نصلي على النبي كل يوم وليلة في صلواتنا الخمس، في التشهد الأوسط والأخير، على أقل تقدير، تسع مرات. هذا لو لم نصل نوافل أو لم نرددها ولا مرة خارج الصلاة. ما يعني أن المسلم العادي كحد أدنى يصلي على النبي في السنة أكثر من 3 آلاف مرة. لو ضربنا الرقم في أكثر من مليار ونصف مسلم حول العالم فالنتيجة تتجاوز 3 تريليونات صلاة على النبي. أليس هذا كافيا؟

الشيخ رشيد رضا، كانت له فتوى أنه يكفيك أن تصلي على النبي مرة واحدة في حياتك حتى تكون أديت الفريضة، وما دونها فهو نافلة.

لكني دعني أسألك: هل تغير شيء في حياة الناس أو واقع المسلمين بعد 3 تريليونات صلاة على النبي؟ لا أعتقد ذلك.

الناس عندما تفشل في تطبيق شيء بعينه فإنها تكثر من الكلام حوله. ونحن فشلنا في تلمس سنة الرسول فصرنا نتحدث عنها فقط. دون أي تطبيق عملي لها في حياتنا اليومية.

وبعد أن صليت على النبي، أخي المسلم أختي المسلمة، هل تعلم أن النبي قال (إن الله يحب الرفق في الأمر كله) متفقٌ عليه. وقال (من حُرم الرفق حُرم الخير). وقال لعائشة: (يا عائشة إن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على سواه)، أي يكافئ الناس على رفقهم بحسنات أكبر من مكافئته لأي عمل أو عبادة أخرى.

هل أنت شخص لين الجانب هادئ الطبع تعامل الناس بود ورفق وتصبر عليهم؟ أم أنك غليظ الطبع سيئ الخلق سريع الانفعال.

ثم يقول عليه الصلاة والسلام (من لا يرَحم لا يُرحم) متفقٌ عليه. ويقول (إنما يرحم الله من عباده الرحماء)، أي رحمة الله مقصورة على الناس الرحماء بعضهم ببعض. فهل تعلمت من الرسول الرفق والرحمة؟ أم أنك تصلي عليه ولا تتعلم منه شيئا!

وعن أنس أنه قال: (لم يكن النبي سبابا ولا فحاشا ولا لعانا). فهل أنت شخص نظيف اللسان جميل الكلام، تهذب سلوكك من الفحش والبذاءة والتطاول؟ أم أنك تصلي عليه وتكيل الاتهامات والشتائم لخلق الله جميعا.

ويقول النبي (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا) 5672 - البخاري.

الرسول يربط الإيمان بالله واليوم الآخر، بنتائج عملك وسلوكك ومعاملتك مع الناس. فالمؤمن هو الذي يضيف للمجتمع الأمان والجمال والكرم. هو الذي يمنع شروره عن الناس ولو بكلمة. يكرم ضيفه ويحسن لجاره ولا يصدر عنه إلا خير.

وقالوا له ادع على المشركين، فقال عليه الصلاة والسلام (لم أبعث لعانا. إنما بعثت رحمة) رواه مسلم.

وبعد أن اشتد أذى المشركين لهم بعد غزوة أحد، حتى أنهم شجوا رأس الرسول وكسروا سنه وجرحوا ركبته فظل يعرج عليها حتى مات، فقال عليه الصلاة والسلام ووجهه مملوء بالدم وثوبه مغبر، (والله لا يفلح قوم فعلوا ذلك بنبيهم)، فنزل القرآن يلومه، وقال الله له (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ

أوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أوْ يُعَذبَهُمْ فإنّهُمْ ظالِمُونَ) 128 - آل عمران.
وفي حديث آخر، يقر النبي ببشريته، ويقول: (إنما أنا بشر أغضب مثلما تغضب البشر. فاللهم أي مسلم سببته فاجعله له زكاة ورحمة)، فهو يتبرأ من العمل السيئ حتى لو صدر من شخص الرسول.
وعنه قال: (أهل الجنة ثلاثة، ذو سلطان مقسط، ورجل رحيم، رقيق القلب، بكل ذي قربى ومسلم، وذو عيال متعفف)، وذكر من أهل النار الذي يصاحبك ليخدعك في مالك وأهلك. رواه مسلم.
فجعل الجنة للحاكم المقسط الذي يملأ الحياة عدلا، في أي ولاية كانت ولو كان حاكما على أسرة صغيرة أو هيئة مكونة من بضعة أفراد. وجعل الجنة للأرقاء الرحماء طيبي القلب. وجعلها لمن عنده عيال ويحتاج المال لكنه يتعفف عن السؤال أو أكل الحرام أو خداع الناس.
وقال بعض علماء أصول الفقه، إن الجنة، على سبيل الحصر، لا تكون إلا من هذه الطرق الثلاثة الواردة في الحديث فقط: العدل ورقة القلب وعفاف النفس. ولو لم تكن منضويا ضمن أحدها فلتخف على نفسك.
حديث آخر متفقٌ عليه، كلماته قليلة، بسيطة، لكنه في غاية الخطورة. يقول النبي (لا يدخل الجنة قتات).
والقتات، كالنمام، هو الذي يوقع العداوة بين الناس بنقله للكلام، أو الذي يروج الشائعات ويردد الفتن والشرور دون يقين، لذلك توعده الله بقوله (ويل لكل همزة لمزة)، الهمز هو إيذاء الناس ولو بغمزة عين. واللمز باللسان. تخيل الويل والعذاب لمن يعتدي على غيره ولو بنظرة عين ظالمة.
إنه دين الإنسان المتحضر يا صديقي.
وفي الحديث أن الله يوم القيامة يسائل عباده ويلومهم، فيقول (عبدي مرضت فلم تزرني. يقول وهل تمرض يا رب. يقول مرض عبدي فلان، فلو زرته لوجدتني عنده. عبدي استطعمتك فلم تطعمني. يقول وهل تجوع يا رب. يقول الله، استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه. ألا تعلم أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي) مسلم.
انظر مدى اهتمام الله باحتياجات الإنسان وقضاء حاجته ورفع الضعف والمرض عنه. ونشر الرحمة والحنان بيننا، حتى جعل زيارة المريض كأنها زيارة لله الجليل ذاته. وإطعام الجائع أو إعطاء السائل كأنك أعطيت الله العزيز فوق عرش سمائه.
مجرد أن تزور مريضا كأنك دخلت الجنة وزرت الله في ملكوت السماء، فما بالك لو ساهمت في علاجه بمالك أو علمك. ما بالك لو فرجت عنه كربه وحزنه. كذلك لو أطعمته وسقيته.
مرات ومرات يؤكد الله على أنك تستطيع أن تراه وتزوره وتستثمر لديه الطعام والمال، فقط لو تحليت بالكرم والتواضع والحنان، واهتممت بأخيك الإنسان. فالمؤمن العظيم يجب أن يكون إنسانا عظيما.
كأن دين الله هو النماء والصحة والخير والرحمة. وكي تصل الى طريق الله فعليك أن تكافح – أولا – لإحياء البشر.
وفي صحيح مسلم، يجعل الله لفضيلة الحب شأنا كبيرا، حتى تكون سببا في الوقوف في ظل الله. وورد في الحديث القدسي أن الله يوم القيامة ينادي: (أين المتحابون في جلالي. اليوم أظلهم في ظلي) مسلم. والحب هو تجاوز الذات وتنقية النفس من الأنانية والحقد والحسد، وتغليب العاطفة الصافية والخير الخالص على المصالح الشخصية. الحب وحده يكفي للوصول إلى ظل الله. والظل، ربما ليس مكانا ماديا بقدر ما هو مكانة رفعية تجعلك مجاورا لوجود الله.
وربط رسول الله الإيمان بالحب، فقال (لا تؤمنوا حتى تحابوا) مسلم. أن تزداد حبا، أن تزداد إيمانا. فالحب هو عنوان الإيمان!

هل تعلمت الحب يا صديقي بعد صلاتك على النبي؟ أم أنك تصلي عليه وقلبك امتلأ حقدا وحسدا وكراهية وظلما.

وروى مسلم عن النبي، أن أبواب الجنة تفتح كل جمعة مرتين، وتعرض أعمال العباد على الله فيغفر لكل مؤمن، إلا رجلين بينهما مشاحنة، فيقول (اتركوا هذين حتى يصطلحا).

فهل تصلي على النبي ثم تمعن في الخصام والقطيعة وهجر الناس والتعالي عليهم ورفض الاعتذار لهم أو إعطائهم حقوقهم؟ أم أنك تسارع في الخير والصلح والمودة!

كي نعلم جميعا أن الأسرع للصلح هو الأسرع للمغفرة، والمسرع لأخيه الإنسان، قريب من باب الجنة، والممعن في الخصومة يسعى إلى النار حثيثا.

فهل صلاتك على الرسول تكفي لدخولك الجنة!

الفصل الثانى

-1-
بدعة المصحف

ربما لا تعلمين عزيزتي، أن المصحف، وهو اسم نطلقه على كتاب الله، ليس هو الاسم الذي أراده الله، ولا هو الاسم الذي قاله الرسول، بل هو اسم جديد ابتدعه الناس من بعده. المصحف كلمة غير عربية، ذات أصول حبشية، استساغها العرب، وارتاح لها المسلمون لِما وجدوه من معاملة كريمة لدى الهجرة الأولى للحبشة، والتي كان يحكمها ملك نصراني عادل.

بدعة (المصحف) لم تقتصر عند عنوانه واسمه، بل المصحف كله بدع مستحدثة لم يفعلها الرسول في حياته، ولم يوصِ بها عند مماته.

النبي (ص) قبلَ أن يموت كان القرآن مفرقا على قطع الحجارة وألواح الخشب وعسيب النخل وجلود الماعز، ومحفوظا في صدور الرجال. ولم يكن مجموعا في كتاب على صحف من الورق كما هو الآن. وبعد بضعة أشهر من رحيل النبي حدثت هزة عنيفة نتاج مقتل العديد من حفظة القرآن، فاقترح عمر بن الخطاب على الخليفة أبي بكر أن يجمعوا تلك الألواح المتناثرة، وتوضع بين دفتي كتاب كنسخة محفوظة وثابتة يتم الرجوع إليها.

كانت فكرة جديدة أثارت حفيظة أبي بكر، وظل عمر يردد عليه عبارة (والله إنه خير) حتى اقتنع أبو بكر. وذهب الاثنان إلى زيد بن ثابت، أحد أهم مدوني القرآن في عهد الرسول، ولكن زيدا هاله الأمر وقال (والله لن أفعل شيئا لم يفعله النبي). وظل الرجلان وراءه إلى أن اقتنع بأنه خير.

فكانت البدعة الأولى في القرآن أن يتم جمعه في غلاف واحد حماية له من التفرق، وهنا كان الصراع بين البدعة والتجديد. بين الالتزام الحرفي بأفعال الرسول والتطور والإضافة والخروج عن النص، وكان الانتصار للتجديد على التقليد والإبداع على الاتباع، بل كان التجديد والإبداع هما ما حفظ لنا كلام الله.

مرت سنوات، ودخل الإسلام مرحلة جديدة من التوسعات والفتوح في عهد عثمان، ودخلت ألسن جديدة من العرب والعجم الإسلام. فبدأ التحدي الثاني، والبدعة الثانية.

كان القرآن في عهد النبي ينزل بلهجة قريش لأنها من أواسط العرب، ولكن نفرا من البادية لم يكونوا يفهمون لهجة قريش، فاستأذنوا النبي في القراءة بلهجتهم الخاصة، فأجاز لهم النبي، وتكرر الأمر مع عدة قبائل وعدة لهجات والنبي يرخص في ذلك، حتى قيل إن القرآن نزل على سبعة أحرف. ومات النبي والقرآن يتلى بهذه الأحرف وتلك اللهجات ولا أحد يثير أي مشكلة.

وفي عهد عثمان، لم يكن المسلمون الجدد يعرفون تلك الاختلافات الواردة على لسان العرب، فكان أحدهم يتلقى القرآن بقراءة معينة فيظنها الوحيدة، وإذا سمع غيره يقرأ بغيرها اتهمه بالتحريف والكذب. تطور الأمر حتى تراشق الناس الاتهامات وكادوا يقتتلون بالأيدي والعصي.

ذهب رجل إلى عثمان وأنبأه الخبر، وقال (أدرك الناس، فقد اختلفوا في كتاب الله).

تأهب عثمان، وأوقف التلاوة بالقراءات كلها وجعلها مُجرّمة (تخيل) بينما الرسول كان يبيحها، وجمع كل المصاحف التي تعتمد هذه القراءات المتنوعة من أيدي الناس، وقام بإحراقها!

نعم حرق كتاب الله ليجمع المسلمين ويحميهم من شر التفتت والاختلاف وتبادل التهم.

فجماعة المسلمين أولى وأهم من أي شيء. والفرقة هي العدو الأول والتي من ورائها لن نجني سوى التدمير والخراب والقتل. ولو انتشرت الكراهية ضاع الدين وضاع كتاب الله حتى لو بقي أحرفا بين أيدينا!

وجمع عثمان لجنة ثانية ووضع على رأسها زيد بن ثابت، صاحب الجمع الأول، وأحضر النسخة الوحيدة التي كانت محفوظة عند السيدة حفصة بنت عمر. وهنا ملاحظة، نسخة وحيدة من القرآن يحتفظ بها المسلمون عند امرأة. وتلك مهمة صعبة تحتاج إلى رجال أشداء، في ظل حروب وصراعات وبيئة صحراوية شديدة الوعورة، لكنهم ائتمنوا المرأة على النسخة الوحيدة لكتاب الله بينما هناك فرسان المسلمين وأوائل الصحابة.

ثم نسخوا القرآن على الورق بين دفتي كتاب، ووزعت تلك النسخ على البلدان وصارت هي المعتمدة والوحيدة التي يجوز التعبد والقراءة بها. ومن هنا ظهر لفظ (المصحف) الذي لم يعرفه الإسلام من قبل. وظهرت بدعة توحيد القراءات على حرف واحد.

لم يتوقف الأمر عند ذلك، فبعد حوالي خمسين سنة، في عهد عبد الملك بن مروان (86 هـ) حدث الانقلاب الثالث في كتاب الله، وهو النقط والشكل (الحركات من فتح وضم وكسر) فحروف اللغة العربية على عهد الرسول والصحابة، لم تكن منقوطة، فلا تعرف الباء من النون من التاء. ولا الجيم من الحاء. وكانت الرواية المسموعة هي الأساس. جاء عبد الملك وكلف طاغيته الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي كان حافظا لكتاب الله عالما بمُحكمه ومتشابهه، وجمع لجنة فيها كبار التابعين مثل الحسن البصري ويحيى بن يعمر وابن سيرين وكلفهم بوضوع النقط على الحروف!

وهؤلاء التابعون العظام الذين قاموا بهذا العمل المحوري في تاريخ الإسلام وفي شكل كتاب الله والذي نفع مليارات البشر من بعدهم، لم يكونوا يرتاحون لهذا العمل، ويرون فيه مخالفة صريحة لكتاب الله الأصلي الذي نزل على نبيه محمد. وقاموا بالنقط على كراهة منهم، بل يكاد يكون انصياعا للسلطة الغاشمة التي كانت تحكم. في رسالة واضحة بأن رجال الدين مهما علت منزلتهم وصدقت نواياهم، قد لا يدركون التحديات التي يمر بها الناس ولا يقدرون أهمية حدث بعينه، ويرفضونه لمخالفة شكلية لأحكام الإسلام، بينما يدرك رجال السياسة ذلك ببعد نظرهم وإلمامهم بالحوادث.

وانتصر كتاب الله بفعل طاغية هو عبد الملك بن مروان، وبتكريس من طاغية معاون هو الحجاج بن يوسف الثقفي. بينما رجال الفقه والدين كانوا أقل جرأة على تلك الخطوة.

القرآن الكريم في نسخته الأولى التي كتبها الصحابة كان مكتوبا بالخط الكوفي، وهو خط تولّد من الخط المصري القديم، بعد سلسلة تعديلات من الخط الفينيقي والآرامي. وهذا الخط تعرض لموجات كثيرة من التعديل وادخال التحسينات في الرسم. بل وإهمال حروف وزيادة غيرها. حتى تكون النسخة الموجودة بين أيدي المسلمين قابلة للقراءة دون معلم.

وكان هناك تيار محافظ في التاريخ الإسلامي يرفض هذه التحسينات، ويصر على الالتزام بالحرف العربي القديم البدائي، الذي كتب به الصحابة واصطحلوا عليه. فتجد الإمام الأوزاعي يقول عن محاولات النقط (وددت أن أيديهم قطعت)، والإمام مالك كان يقول (أما الإمام من المصاحف فلا تنقط ولا يزاد فيها ما لم يكن منها).

وجاءت البدعة الأخيرة في تقسيم القرآن إلى أجزاء، وتلك فكرة مستحدثة أيضا لم يقل بها النبي ولا الصحابة ولا كبار التابعين، وتم تجزيء القرآن إلى ثلاثين جزءا بناء على عد حروف القرآن، فوجدوا أنها تقبل القسمة على ثلاثين، فيصير كل جزء مساويا للآخر في عدد الحروف. ثم إلى أحزاب وأرباع لتيسير الحفظ.

فلو أنك تريد أن ترفض هذه البدع كلها، وتحب الالتزام بما جاء به النبي في نسخته الأولى، وتقف أمام التطوير والتحسين، فلتحرق مصحفك وتكتب واحدا بلا نقط وبلا حركات شكلية للفتح والضم، وبلا تجزيء، وارجع للخط الكوفي البدائي واكتب به، ويفضل أن يكون على قطع الحجارة وعسيب النخل

وجلود الماشية كما فعلها النبي.
وقتها تكون اتبعت سنته الزمنية المؤقتة، غير المقصودة، وتكون قد أضعت الدين كله!

-2-
بيت النبوة يعزف الموسيقى

- هل تحب السيدة عائشة وتعتبرها قدوة تأخذ عنها تعاليم الدين؟
- أكيد، فهي أم المؤمنين.
- إذن هل تحب أن تُحيي سُنة عن النبي تناسها الناس وضاعت في خضم الأحداث؟
- نعم أحب.
- اسمتع إلى الأغاني!
-؟
-كما سمعت يا صديقي. والأفضل أن تحضر (باند) في بيتك كما فعل الرسول!

دعنا نتحدث بشكل موثق. في صحيح مسلم، باب العيدين، وفي البخاري باب المناقب من الحديث رقم 3288، كانت السيدة عائشة لديها جاريتان تغنيان وتضربان بالمعازف، والرسول نائم على الأرض إلى جوارهم بالبيت ويغطي وجهه. دخل أبو بكر فانتهر الفتاتين، وقال: أمزمور الشيطان في بيت رسول الله! فخافتا وانصرفتا، فرفع الرسول الثوب عن وجهه وقال: (دعهما يا أبا بكر، إنه يوم عيد) (صححه الألباني) .

دعنا نحاول فهم المشهد. هناك فتاتان تغنيان ومعهما أدوات موسيقية بدائية تتمثل في الدف. وهو التار، ضابط الإيقاع في أي فرقة موسيقية، ورمز مهم للطرب، وهو المتوافر الأسهل لدى العرب البدائيين. أليست هذه نواه لفرقة موسيقية من شخصين، داخل بيت الرسول، زوجته تسمع وهو، صلى الله عليه وسلم، نائم إلى جوارهم!

تعريف السُنة، أنها كل قول أو فعل أو إقرار من النبي (ص). والنبي أقر الفتاتين على فعلتهما من الغناء والطرب، لذلك تصير سُنة عن الرسول أن تحضر فرقة موسيقية في بيتك. أو أن تنام على صوت موسيقى.

لذلك، تجد مقولة لشيخ الأزهر، الشيخ حسن العطار (متوفى 1835م) إنه من لم يتأثر برقيق الأشعار تتلى بلسان الأوتار في ظلال الأشجار فهو جلف الطبع حمار.

نحن لا نسوق وجهة نظر وحيدة، ومن المؤكد أنك ستجد أحاديث غير هذه تزعم حرمة المعازف والآلات. ولكن الإمام الشوكاني (متوفى 1839م) رد عليها في كتابه الشهير (نيل الأوطار)، بأنه لم يعرف في كتاب الله ولا في السنة النبوية حديثا صحيحا صريحا، في تحريم الآلات، إنما هي عموميات ولا أدلة قطعية.

وهو قول الإمام ابن حزم وأبي حامد الغزالي والقاضي أبو بكر بن العربي. لم يصح في تحريم الموسيقى شيء. وصريحه ليس صحيحا، وصحيحه ليس صريحا.

مداخلات:

1- سيقول البعض إن أبا بكر الصديق قال (مزمور الشيطان) ونهى الفتاتين عن الغناء. ولكن الرد أن الرسول (ص) هو مصدر التشريع، وهو الذي يؤخذ عنه في هذا الموقف، وهو الذي أقر الفعلة ودافع عنها.

2- الحجة الثانية: إن اليوم كان يوم عيد، ولذلك فالأغاني والموسيقى حلال في العيد حرام خارجه. والرد أن الإسلام لا يحل حراما من أجل العيد، بل الأشياء الحلال في العيد حلال بالطبيعة خارجه. ولكنها أكثر استحبابا في العيد، ففي العيد مستحب لبس الجديد وزيارة الأهل والتوسعة في الرزق

والنفقة، وكذلك الموسيقى والغناء، فالحلال في العيد حلال خارجه.

3 - الحجة الثالثة: أن المباح هو الدف فقط. آلة الطرب التي كانت الفتيات يعزفن عليها، وما دونها حرام، والرد، أن الدف هو ضابط الإيقاع في أي فرقة موسيقية، وهو إشارة ودليل على كل آلة سواها، وليس من العقل تحريم آلة وإباحة أخرى، أيضا لا يوجد نص صريح يؤكد على فكرة هذا الاستثناء، وما هو إلا تزيد وافتراض لا أصل له.

4 - الحجة الرابعة: تتمثل في حديث آخر (ليأتين أقوام من بعدي يستحلون الحِر والحرير والخمر والمعازف) 5590 – البخاري. وكان الرد من بعض الفقهاء أن التحريم هنا متمثل في تضافر الأوصاف المذكورة في الحديث معا، أو اجتماع طرفين فيها على الأقل، بمعنى أن يأتي أقوام يزنون ويشربون الخمر ويلبسون الحرير، ثم، هم يسمعون المعازف، لأن المعازف ليس لها دليل تحريم مستقل خارج هذا الحديث.

أيضا لو تناولنا شيء في الحديث مثل الحرير، فهل لبس الحرير حرام على الإطلاق لكل المسلمين؟ الإجابة لا، فهو مباح للنساء، ومباح للرجال قدر إصبعين في الثوب (مثل الكرافت) وأباحه الرسول لبعض الصحابة الذين اعتادت أجسادهم عليه، حتى إنهم يتضررون من لبس الخشن، مثل عبد الرحمن بن عوف وغيره.

كذلك الحال مع (الحِر) وهو الفرج. هل الفرج كله حرام؟ أيضا الإجابة لا، فهو حرام حينما يوضع في شر، وحلال حينما يوضع في خير.

وهو ما ينطبق على المعازف.

5 - الحجة الخامسة تتمثل في قول الله (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا) 6 – لقمان. والآية كما هو واضح تتحدث عن مشركين بالله ودين الرسول ومستهزئين بالقرآن، وحاشا لله أن يكون أحد فينا يسمع الأغاني من أجل ذلك. ثانيا، الآية لا تقطع بمعنى لهو الحديث. وقال بعض الفقهاء إن أي كلام يستخدم لإضلال الناس، ولو كان تفسيرا للقرآن، أو اقتطاعا مجحفا من آياته، فهو من قبيل لهو الحديث.

امرأة تغني في جوار الرسول:

عن بريدة الأسلمي، أن النبي صلى الله عليه وسلم، في إحدى سفراته جاءته امرأة سمراء وقالت إني نذرت إن ردك الله سالما أن أضرب بين يديك بالدف وأغني، فأذن لها النبي، وفعلت، وكان ذلك أمام جمع من الصحابة.

(أخرجه الإمام أحمد -353/5- والترمزي وابن ماجة وأبو داوود)

الموضوع هنا أكبر، امرأة من نساء المسلمين الأوائل نذرت لله أن تغني وتطبل إلى جوار النبي، احتفالا بعودته سالما، والرسول يوافق، ويقول لها وفّي بنذرك. وطبعا لو كان ذلك حراما لما سمح النبي به، لأنه قال في أحاديث أخرى (لا نذر في معصية).

لاحظ، امرأة تغني وسط مجتمع الرجال، والرسول يسمع ويقر ولا يتهمها بالفسوق والعصيان. أو يجعلها سببا لنشر الرذيلة والانحلال.

ويبقى في التاريخ الإسلامي، صورة لنبي الله، قائد المدينة، وإلى جواره امرأة تغني وتعزف، فهل أعدنا إحياء سنة النبي هذه المرة بالكلمات والألحان وكرنفالات الشوارع لنشر البهجة، كصورة إسلامية مباحة، بدلا من التشدد والكراهية!

زفة من النساء في مدينة الرسول:

عن أنس بن مالك، أن النبي مر بطرقات المدينة، فإذا به يجد جمع من النساء يقفن ينتظرنه، وهن

يغنين ويحملن الدفوف، ويقلن:
نحن نساء بني النجِّار.. يا حبذا محمدٌ من جارِ
خرج لهم النبي وابتسم لهن وقال: تحبونني؟ فقلن إي والله يا رسول الله. فقال عليه الصلاة والسلام، وأنا والله أحبكن. ورد التحية.
(أخرجه ابن ماجة، والطبراني، ورجاله ثقات، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة مجلد 7 حديث رقم 3154).
لم يطارد النبي النساء في الطرقات بالعصا والسياط، ولم يأمرهن الالتزام القسري في البيوت حتى لا يكن سببا للفتنة. ولم يعتبر الغناء وضرب الدفوف معصية تسبب الانهيار الأخلاقي، ولكنه رضي بالحفل العام في الشارع تعبيرا عن الفرحة.
ليكون الإسلام هو مدينة آمنة تقيم حفلات في الشوارع، وتعبر فيها المرأة عن مشاعرها وتشارك في إبداء الرأي السياسي والديني، وينشدن الشعر في الطريق ويضربن الألحان في ثقة ورحابة. تلك صورة مجتمع منفتح حر لا يعيش بين دروب الخوف والقهر وبين تهديد المحرمات والملاحقة والحظر. وتلك كانت أول مدينة إسلامية يقف على رأسها نبي، مدينة تُعبر فيها المرأة عن مشاعرها بالفن.
صحابة الرسول يحبون اللهو:
ذهبت السيدة عائشة ذات مرة لزواج قريبة لها في الأنصار، ولما عادت سألها النبي هل أحضرتم للعروس هدية؟ قالت نعم. قال هل أرسلتم معها لهوا؟ قالت لا. فقال النبي (إن الأنصار يعجبهم اللهو). (رواه البخاري/ كتاب النكاح - وصححه الألباني)
هذه المرة، الرسول، القائد السياسي والزعيم الديني، يشجع على أن يكون في أفراح الناس لهو وأغنيات وموسيقى، طبعا بلا ابتذال أو وقاحة أو إسفاف. وبلا تحويل الفرح إلى وكر لتداول المحرم والمجرم قانونا.
لأنه يعلم أن التضييق على الناس لن يأتي إلا بالنفاق الاجتماعي والازدواجية وأن يحترف الناس الأكاذيب والخيالات الفاسدة. ولن يكون مجتمعا صالحا يحب ويعمل ويُبدع ويعبد الله عن رضا، ويشعر بالانتماء للأرض.
يقول الله (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) 32 – الأعراف.
فمن الضحالة وتسطيح الأمور واختزال أحكام الدين، أنه أتى ليحرم على الناس متعة مباحة تخفف عنهم وتعلمهم الجمال والرقي والتطهر، وهو ما يسعى له الدين بطريقة أخرى، فالفن والدين لديهما مجالات تداخل كبيرة. مثل تنقية حواس الإنسان وتنمية العاطفة والشعور. والتجرد من الشهوات والمادة. والتخلص من الأحقاد والضغائن، وأن يكون للإنسان امتدادات أكبر وأوسع من حدود الجسد وحدود العمر. وأن يستمر الإنسان في الحياة حتى بعد أن يواريه التراب.

-3-
نص واحد وفهم متعدد (الحدود مثالا)

رغم وجود نص قطعي الثبوت والدلالة يقضي بقطع يد السارق، فإن النبي وصحابته على تفاوت الأزمنة لم يتوقفوا عنده بجمود وتصلب ليطبقوه تطبيقا حرفيا لا يراعي الظروف. إنهم يعرفون أن النص يهدف إلى تحقيق مصلحة اجتماعية وإنسانية، ولو تخلفت المصلحة لم يعد للنص محل للانطباق. لذلك كان تطبيقهم يحمل مرونة السياسة وجودة الإبداع.

بداية الاستثناءات على النص الصريح قام بها النبي صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك في الحرب، فأوصى صحابته بعدم عقاب السارق وقت الحروب، لأن في ذلك فتنة له، ولكثيرين، فهذا يخوف الناس ويرهبهم، وقد يؤدي إلى فرار البعض إلى جيش العدو يتحصن به أو يفشي أسرار المسلمين. فبث الأمان في صدور الناس وترغيبهم في الدين، وجذبهم لأرض المسلمين، أولى وأهم من تطبيق حد في حادث فردي. قال صلى الله عليه وسلم كما صحح الذهبي (لا تقطع الأيدي في الغزو). رواه الترمذي.

الرسول يواجه موقفا طارئا، أعمل فيه عقله ووازن بين النص والمصلحة. وبين الظروف المتغيرة والحكم الفقهي الثابت. ولم يكن مكتوف اليد والدماغ أمام الظروف. وغلَّب المصلحة المتطورة على النص الثابت. القضية المهمة هنا، أن الحد لو كان أمرا تعبديا خالصا لطبقه الرسول في كل وقت وتحت أي ظرف. لكن الفقهاء القدامى فهموا من ذلك أن الحدود في القرآن يتم تصنيفها تحت باب (السياسات) ويختص بها ولي الأمر، وتخضع لتحقيق المصلحة. ولذلك يجوز الاجتهاد فيها.

ثم ننتقل إلى عمر بن الخطاب الذي أوقف إقامة الحد في عام المجاعة، عندما اشتدت الأزمة على المسلمين. وهنا استفاد الفقهاء من هذه الواقعة شرطا جديدا، وهو أن الحدود لا تطبق في مجتمع جائع أو أرهقه الفقر والظلم الطبقي وفقدان الاحتياجات الأساسية في الحياة، ويكون الفقر الشديد دافعا للحد. وليس من العدل عقاب البطون الجائعة والنفوس المحرومة من أبجديات الحياة. فالشريعة كما فهموها عدل ورحمة. كما قال ابن القيم، وأي شيء خرج من العدل إلى الجور ومن الرحمة إلى ضدها لم يعد منها ولو أدخل فيها بالتأويل.

وفي عصر الإمام علي بن أبي طالب أتوا له بسارق اعتدى على بيت مال المسلمين، فلم يقطع يده، وقال، إن له فيه حقا.

فالإمام علي أخذ بشبهة، وإن كانت ضئيلة، إلا أنها كافية لتجنب الحد، عملا بالقاعدة الفقهية المبنية على حديث الرسول (ادرأوا الحدود بالشبهات) والحديث الآخر (ادرأوا الحدود ما استطعتم، ومن وجدتم له مخرجا فخلوا سبيله. لئن يُخطئ الإمام في العفو خير من أن يُخطئ في العقوبة).

ورغم أنها أحاديث لا تحمل مكانة مرتفعة من حيث صحة السند، وبعضها ضعيف، فإن علماء الفقه اعتمدوها كقاعدة أصولية حاكمة في باب الحدود. فغير اللازم عند أهل الحديث قد يكون لازما عند أهل الفقه.

وكان هدف الإسلام، في المقام الأول، العفو قبل العقوبة ومساعدة المذنب على إيجاد مهرب إلى التوبة والستر.

لذلك كان القاضي في العصور الأولى، إذا وقف أمامه مجرد ليطبق عليه الحد، ثم لا يجد أنه يستحق العقوبة المغلظة، فيسأله هل سرقت؟ قل لا! فكان القاضي يُلقن المذنب الإنكار. حتى تكون له شبهة للإفلات من القطع.

ومن ضمن الشبهات التي قالها فقهاء المالكية لتلافي القطع، أن التوبة قبل القطع تُسقِط الحد،

واستشهدوا بآية (فمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظلْمِهِ وَأصْلَحَ فإنَّ الله يَتوبُ عَلَيْهِ، إنَّ الله غَفورٌ رَّحِيمٌ) 39 - المائدة. لأن التوبة بعد القطع لا قيمة لها.

وهنا يتبدى لنا كيف فهم القضاة والولاة والفقهاء حدود الله، وأنها أقصى عقوبة رادعة، ونهائية، إذ لا مفر منها لحماية المجتمع من المجرمين العتاة. ومن درس باب القانون الجنائي الإسلامي يعرف أن الحدود قسم صغير ومحدود ومليء بالشروط المعقدة صعبة الانطباق، ويكاد يكون بلا أثر مباشر. بينما القسم الأكبر يختص به باب التعزير.

والتعزير عقوبة دنيوية (وضعية) يستقل بها ولي الأمر ورجال التشريع الحديث، يواجهون بها مئات الجرائم الأخرى التي لم ينص عليها القرآن، أو الجرائم التي لها حد بينما تخلفت شروط تطبيقه.

وهو ما يمكن ترجمته حديثا بالقانون الوضعي، الجنائي والمدني والإداري.

يقول الدكتور محمد سليم العوا، صاحب مؤلف (في أصول النظام الجنائي الإسلامي) والذي نال به الدكتوراه، إن القانون المصري يتوافق مع أحكام الشريعة الإسلامية بنسبة 98%، لو استثنينا بند معاملات البنوك، والحدود، وكلاهما عليه اختلاف في التطبيق والتقنين بين الفقهاء. بينما البقية قوانين ذات قيم ومفاهيم ومقاصد إسلامية تحمي النفس والمال والشرف والمصلحة العامة.

ولعمر بن الخطاب موقفٌ آخر، عندما جِيءَ له بغلامين سرقا جملا وذبحاه وجلسا يشويان اللحم ويأكلان. سرقة مكتملة الأركان لا يُمكن الفِكاك منها، فتبين عمر الأمر وسألهما عن حالهما، قالا نحن غلاما حاطب بن أبي بلتعة، ونسرق لأن سيدنا يجيعنا. فعفا عنهما عمر، وأحضر حاطب وغرَّمه ثمن الجَزُور. (كتاب الأم - الإمام الشافعي)

فهو ينظر للأسباب والدوافع ولا ينكب على العقوبة. ويعالج سبب السرقة من منبعه. وهو الحرمان والظلم. ولا يعاقب عرضا ظاهريا متمثلا في فتية جياع وفقراء، ويترك أصحاب العمل الذين لا يعطونهم ما يكفي حاجتهم.

لم يكن الجيل الأول ملهوفا لقطع أيدي الناس، وتتبعهم بالإرهاب والتهديد وبث الرعب في نفوسهم، ولم يفهموا الشريعة على أنها حد وعقاب وتخويف، بقدر ما هي كفاية ورعاية وعدل، وبحث عن أسباب العفو والتجاوز عن المُخطئين لطمأنة الناس في السر والعلانية.

لذلك قال بعض المجتهدين إن يد السارق لا تقطع، إلا بعد كفايته حقه في الطعام والكساء والدواء والسُكنى ووفاء الدين. فلا ينطبق الحد على مجتمعٍ جائع أو مريض أو يبحث عن أربعة جدران وسقف يستره، أو مجتمع مُثقَل بالديون والهموم.

الشيخ عبد المتعال الصعيدي:

وللشيخ عبد المتعال الصعيدي، العالم الأزهري المجدد، اجتهادٌ مهم في هذا السياق. فقد قال إن الأمر في القرآن (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا.) 38 – المائدة، أمر للتخيير وليس للإلزام.

والقرآن يشهد أوامر عديدة لم تأتِ على سبيل الإلزام، بل جاءت على سبيل الندب والاستحباب، مثل (يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا.) 31 – الأعراف، فأخذ الزينة عند المساجد والأمر بالأكل والشرب، كلها أوامر مستحبة وليست على سبيل الوجوب الدائم. وقوله (وأشْهِدوا إذا تبايعتم.) 282 – البقرة. فإحضار الشهود في البيوع أمر مستحب وليس واجبا. وجاء للتخيير وليس الفرض في كل بيعة، وإلا أحضرنا شهودا على بيع فيه كيلو خيار وكيس من المعكرونة. وأمر النبي صلى الله عليه وسلم للنساء أن يختضبن بالحناء، وهو أمر للاستحباب وإلا صارت مراكز الحنة من أركان الإسلام ورسائل السماء.

وقياسا، يكون أمر القطع مماثلا لهذه الحالات. فالقطع هو العقوبة العليا المُغلظة في الحالات التي يستحيل معها تلافيه. وفي الحالات المُجمع عليها، أو تجاه المفسدين في الأرض الذين يستحيل تقويمهم.

وتكون البدائل الواردة هي الغرامة أو الحبس.

لأن الفقهاء مختلفون في كثير من حالات السرقة، هل فيها قطع أم لا، على أكثر من عشرين قولا. فمثلا سرقة طفل لا تعد سرقة، لأن من الشروط أن يكون الشيء المسروق يمكن حسابه بالمال. كذلك سرقة الشيء من غير حرزه، أي المكان الذي استقر الرأي على أن يحفظ فيه. فلو سرقت هاتفا محمولا من على منضدة فلا قطع، لأن المنضدة ليست المكان المخصص لحفظه. أما لو سرقته من جراب أو شنطة أو جيب يكون الحد. وهكذا.

وللفقهاء القدامى أقوال مماثلة لا تقضي بحتمية القطع:

منها قول الإمام أبي حنيفة أنه لا يجمع بين غرامة وقطع. فإن غُرِّم السارق فلا يقطع، وإن قطع فلا غرم. وجعلها لولي الأمر أو السلطة تختار بين عقوبتين.

أما الزيلعي فقد جعل الخيار لصاحب الحق الذي وقعت عليه السرقة، فله الاختيار بين الضمان أو القطع. أي من حقه أن يضمن السارق ويسترد الشيء ويحصل على الغرامة. أو أن يرفض الضمان ويطالب بالقطع.

وفي الشرح الكبير للحنابلة، أنه لا يجتمع الغرم والقطع، فإن أُغرِم السارق، أي دفع مقابل ما سرق، فلا تقطع يده.

وبذلك يكون لدينا اجتهاد فقهي معتبر لديه وجاهته وحجيته ودلائله، في أن القطع ليس الخيار الوحيد والملزم. بل هناك الحبس والغرامة. ولولي الأمر والمجتمع الحديث، أن يختار ما يتوافق مع مصالحه ومنافعه، حتى لو تجاوزنا ظاهر النص، فالقصد الأول والأخير من النص هو حماية المجتمع من السرقة والتعدي وحفظ أموال الناس، ونشر الطمأنينة في المجتمع وردع النفوس المنحرفة عن اقتراف الجناية.

وعلماء الأصول دائما يربطون بين الحُكم الفقهي والعلة المنبنية عليه. وبين النص والمنافع المتحققة من ورائه. فلو تخلفت العلة الظاهرة اختفى الحكم، ولو فقد النص ما يحققه من نفع فلنا أن نتجاوزه إلى ما يحقق المنفعة.

الطوفي:

قال نجم الدين الطوفي، الفقيه الحنبلي في القرن الرابع عشر الميلادي: (لو تعارض النص القطعي مع المصلحة، قدمنا المصلحة وجمدنا النص. لأن الأصل أن الشرع جاء لرعاية مصلحة الناس. فلا يتصور أن يعود عليها بالنقض والإبطال).

رغم أن الطوفي كان حنبلي المذهب، فإنه فهم القصد من الدين، وهو تحقيق مصالح الناس والقيام على رعايتهم في المعاش والمعاد، وأن النص لو لم يحقق تلك المصحلة، فلا بأس من تجاوزه إلى الأفضل، لأن الله قال في القرآن أنه أنزل إلينا (الكتاب والحكمة) وفي آية ثانية (الكتاب والميزان)، فإلى جوار كتاب الله نستأنس بالحكمة، وهي كل اجتهاد إنساني يأتي بخير. بل تعريف الفيلسوف أنه (محب الحكمة)، فيجب على الفقيه أن يصير فيلسوفا. والميزان هو كل رمز وضابط للعدل والقسط ووفاء الحقوق.

جلد الزاني:

كان عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وبن مسعود وكثير من الصحابة، لا يعتبرون وجود الرجل

والمرأة في لحاف واحد دليلا كافيا على الزنا، وإن ضربوهما على ذلك تعزيرا، وتأديبا، وليس حدا وعقوبة دينية. وفي إحدى الوقائع جاء لعمر أربعة شهود اتفقوا على رؤية المغيرة بن شعبة يزني. قالوا كنا فوق وهو تحتنا ورأيناه رأي العين. وحينما عمد عمر إلى سؤالهم واحدا واحدا، أثبت الواقعة ثلاثة وتردد الرابع. فجلد عمر الشهود في حد القذف. ونجا الزاني.

الأمر ليس جديدا على روح الإسلام أو السياق الأهم في أحداثه.

ذهب رجل إلى أبي بكر يخبره أنه أتى حدا، وأنه يريد التطهر منه، قال له أبو بكر هل أخبرت أحدا غيري؟ قال الرجل لا. قال إذن اذهب واستر على نفسك وتب إلى الله. وكذلك فعل مع عمر وعثمان، وكل واحد يكرر ذات الكلام. التوبة والستر. فهما أولى من تعريض نفسه إلى مشقة أو تهلكة الحد. دون الدفاع المستميت أو التلهف على إقامة الحد لتهديد الناس أو إرهابهم به، ولكي تظل الشريعة في أفهام هؤلاء أنها رحمة وغفران، وتخفيف على الناس.

ووصل الرجل إلى النبي، وقال يا رسول الله أتيت حدا فطهرني. وجاء وقت الصلاة. فصلى مع النبي، وبعد انتهاء الصلاة كرر الأمر على النبي لينزل فيه العقاب. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هل حضرت الصلاة معنا، قال الرجل نعم، فقال النبي (قد غفر الله لك) -رواه البخاري (6823)، ومسلم (2764)

لم يذهب النبي ليفتش عن الرجل، أو يطارده قبل أن يهرب، حتى يقيم عليه الحد، ولم يعين عليه حارسا ملاصقا للتأكد من إقامة حدود الله، والأكبر من ذلك أن رسول الله لم يسأله عن نوع الذنب الذي اقترفه ولا طبيعة الحد. ويعرض عنه أولا، ثم يلتمس أقرب سبب ليعفو عنه ويبشره بغفران الله. فقط أن يصلي لله مرة واحدة بقلب تائب ونفس خاشعة.

كأن الهدف الاولى بالرعاية هو الستر على الناس والتيسير عليهم، وبعث الضمير الحي واليقظ داخلهم. وجعل الصلة الأساسية بينهم وبين الله، لا دخل للناس فيها، ما دامت معاصي مخفاة لم تضر المجتمع ولم تتعمد الفساد في الأرض. ولم تعتد على حقوق الغير. وجعل طمأنينة الإنسان والاشفاق عليه وتقدير الضعف البشري أولى من إقامة حد الله ذاته. هكذا فعل النبي وفعل صحابته الكبار الذين فهموا روح الدين.

لم تكن هناك شرطة في مدينة الرسول بالأساس تلاحق المذنبين. وكانت العقوبة اختيارية، قائمة على رغبة صاحبها. وتطبيق الشريعة عليهم لم يكن أمرا سلطويا، بل عقيدة مستقرة في قلوبهم، لمن شاء وآمن وذهب راضيا. ومن ستر على نفسه لم يكشف الإسلام ستره. ومن هرب من الحد لم يرسل النبي وراءه من يقبض عليه. هنا نقطة فارقة يجب أن تكون في أذهان المسلمين الحالمين باستعادة مدينة الرسول.

قائد الدولة، كان نبي الرحمة، رسولا يبعث على غفران الذنوب، وليس جلادا يضرب الظهور.

في زمن الرسول كشف أحد الصحابة، واسمه هزال، خادما له، اسمه ماعز، وهو يزني. ذهب به للرسول، والفتى لم ينكر واعترف على نفسه بالزنا.

لم يفرح الرسول لإقامة حد من حدود الله، ولم يسارع بعقاب الفتى، ولم يشعر بالانتصار الذي نراه في عيون هؤلاء الهمجيين وهم يعاقبون الناس في أشباه الدول الفاشلة، التي يسيطرون عليها.

بل قال صلى الله عليه وسلم للرجل وقلبه ينفطر:

(يا هزال لو سترته بثوبك لكان خيرا لك). (رواه أبو داوود والنسائي. صحيح الإسناد)

استر على الزاني، ولو اضطررت إلى خلع ثوبك وجعله ستارة تحميه من أعين الناس وحدود الله. انصحه بعد ذلك أو عنفه أو اتركه إلى ربه. لكن لا تؤذه وتفضحه. هذا أولى وأهم عند الله وعند رسول

الله.
الرسول قال لمن جاء بالفتى المذنب، إن الخير في الستر. وهنا وازن الرسول، دينيا، بين الستر وبين الشهادة بالحد، فكان الستر وإخفاء المذنب، أكثر قبولا وتفضيلا عند الرسول من إقامة الحد.
كان رسول الله يصيح في الناس: (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تتبعوا عورات الناس، فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته).
معيار الإيمان كما في الحديث، ليس مقدارا كميا في العبادة والتلاوة واتباع المظاهر، بل يتلخص في حماية أعراض الناس، وعوراتهم، ومكامن ضعفهم، وزللهم، وخطإهم، وعدم تتبعهم بالفضح والكشف، والتشفي، والمكيدة، وإضرارهم في سمعتهم وشرفهم. من استطاع فعل ذلك هو المؤمن، ومن ادعى الإيمان بينما يحمل الغل والشر والفضيحة والأذى للناس لن يمس الإيمان، ولو ظل يحلف عليه كل ليلة آناء الليل وأطراف النهار.
وقبل أن يعاقب الرسول الفتى ماعز ظل يسأله: لعلك قبّلت. فيرد الشاب لا. يقول النبي لعلك داعبت. فيقول الشاب لا. في محاولات مضنية لوجود مخرج أو شبهة تنجيه من العقوبة. ثم أرسل لأهله يسألهم أهو مجنون؟ عساهم يأتون ويأخذونه. ولكن ما من مجيب.
وقبلها ظل النبي يعرض عنه مرة وثانية وثالثة، يعترف الشاب، ويرفض الرسول الاستماع، أو التجاوب معه، ويدير وجهه عنه!
فرق كبير كما ذكرنا عن تصورنا عن الحدود في الإسلام، وعن أفعال الرسول، وما يتبعه من همجية نراها على شاشات الفضائيات عندما يتمكن فصيل إسلامي متطرف من بقعة أرض، وبين ما أراده وطبقه الرسول.
في إحدى الندوات الخاصة التي أقامها العلامة الشيخ محمد أبو زهرة، رئيس قسم الشريعة الإسلامية، في نهايات حياته، صرح بتصريحه الذي أخفاه كثيرا والذي خشى أن تقوم الدنيا عليه وقتها، وهو أنه لا رجم في الإسلام! وأن الرجم شريعة يهودية تسربت إلى شريعتنا في بادئ الأمر، ثم نسخت بآيات القرآن التي تقول بوضوح (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مئة جَلْدَةٍ) 1 – النور. والكلمة عامة بلا تخصيص للمحصن أو غير المحصن، المتزوج أو غير المتزوج.
وآيات القرآن التي تتحدث عن نساء النبي، لو أتت إحداهن بفاحشة، فعليها ضعف ما على المحصنات من العذاب، فلو كانت العقوبة الرجم حتى الموت، فهل هناك ضعف الموت؟ كذلك عقوبة الإماء، اللاتي لا يملكن حريتهن وقرارهن. لو أتت بفاحشة الزنا، فتخفيفا عليها، تعاقب بنصف ما على المحصنة. ذات السؤال يتكرر، لو كانت العقوبة هي الموت. فهل هناك نصف موتة؟
الذي يتسق مع العقل والمنطق وآيات القرآن الواضحة، أن العقوبة هي مئة جلدة للجميع. فتكون العقوبة المغلظة لنساء النبي مئتي جلدة. وللإماء خمسين.
علاوة على ذلك، أن حد الزنا نفسه، وهو الجلد، له ظروف واشتراطات مشددة تجعل من المستحيل تطبيقه في الحياة اليومية. مثل أن يرى الواقعة أربعة شهود عدول كما يرون العود في المكحلة. ويتأكد تمام التأكد من اتصال الأعضاء الجنسية ببعضها بصورة يقينية! أي لقاء جنسي كامل واضح الملامح كأنه في عرض علني. أو كأنه في الطريق أمام الكافة. والأمر الثاني بالاعتراف.
وبعد الذنب. جعل الله التوبة، من أسباب إسقاط الحد وعدم تطبيقه على المذنب، قال الله (فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ).
وهنا اختلف الفقهاء حول تفسير الآية. فهناك من قال إن المقصود بها من تاب بعد إقامة الحد. وآخرون قالوا بل التوبة قبل إقامته. وإلا لم يعد لها قيمة. وهو الأرجح.

وهو ما يتفق مع الآية التي ذكرناها من قبل (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) 34 – المائدة.

الحدود في الإسلام لها أثر نفسي أكثر من الأثر الواقعي أو المادي، كي تشعر بالذنب والخطأ والخشية. وكي تسارع بالندم والتوبة. والشعور بالذنب يورث الرقة والرحمة بالناس والتواضع وعدم التجبر عليهم. وأننا ضعفاء نحتاج دائما الى التقويم والتعديل والنصح، ومقاومة الشهوات والشرور داخل نفسنا، وأن نكون في يقظة دائمة للتحسين والتطوير. لأن من فقد هذه الصفات من رحمة ومراجعة وتواضع، تطغى نفسه ويصير إنسان متعنت ومتصلب الرأي يعامل الناس بجفاء وخشونة وعنف. وتضيع جميع خصاله التي تقترب من الرفق والوداعة والخير. تماما مثل معظمنا.

يقول النبي، (بشروا ولا تنفروا. ويسروا ولا تعسروا.) تلك وصية الرسول. البشريات واليسر. وهي ما تورث التفاؤل والرحمة والأمل. ديننا دين أمل. (إيه في أمل)!

-4-
غزوات بلا غزوات

في إحدى المغارات التي تترس بها قبائل المجاهدين، يجلس شاب يداعب سلاحه ويمسح التراب عن مصحفه، بينما يتمتم ببعض الأناشيد الحماسية، على غرار (بارودتي بيدي وبجعبتي كفني) اقتربت منه قليلا، ودار بيننا هذا الحوار.

يقول:

ما نحن فيه من ذل أخ دويك سببه تخاذلنا عن الجهاد في سبيل الله. راجع سيرة الرسول واقرأ غزواته لتعلم أنه عاش يقاتل المشركين حتى أتم الله عليه أمر هذا الدين.

قلت له:

بما أنك تحدثت عن غزوات الرسول فتعال لنستعرض الأمر بهدوء. الأرقام لا تكذب ولا تتجمل. الرسول قضى 23 سنة منذ بعثه وحتى وفاته. أول 13 سنة في مكة لم يحدث فيها قتال. لم يرتفع فيها سيف ولم يرم أحد برمح. إنما هي سنوات المحنة. والصبر والتضحية. ومن لم يستطع الصبر كان الحل هو الفرار بدينه. الهجرة إلى إفريقيا. ومنعهم الله من المواجهة. وكان أول الفارين بنته رقية وزوجها عثمان.

ربما لأنه لا يريد أن يثير كراهية وضغائن بينه وبين قومه، أو لا يريد تعريض حياة تابعيه للخطر وهم قلة ضعيفة، وليتعلموا ما هو أهم من القتال من مفاهيم مثل التضحية والصبر والمسالمة. الانطباعات الأولى تدوم، والرسول أراد أن يكون الانبطاع الأول أن دين قائم على الكلمة والاقتناع والإيمان الاختياري بالله.

ثم بعد الهجرة إلى المدينة، لم يحدث أي قتال حقيقي في أول سنتين، فكانت البداية في موقعة بدر الكبرى سنة 2 هجرية. بينما ما أسموه زورا غزوات مثل، الأبواء – بواط – العشيرة، فكلها وقائع لم تلتق فيها السيوف للقتال، ولم تحدث مواجهة ولم يمت أحد. بل تحركات تأمينية للحدود. وأول الآيات التي أتت لتشريع الجهاد بعد أن كان منهيا على المسلمين اللجوء إليه، هي آية سورة الحج:

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ. وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا. وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عزيز) 39-42 – الحج.

من المهم أن ندرس بداية تشريع الغزو لنعرف أسبابه وأهدافه التي أرادها الله. حتى لا نخوض حروبا وهمية زاعمين أن الله قد أمر بها، وهو منها براء. الآيات تتحدث عن مظلومين طردوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله. إذن فالجهاد له سبب يتمثل في توفير حرية الاعتقاد للمؤمنين دون أذى أو ظلم أو ملاحقة، وأيضا لصد الاعتداء الذي قد يقع عليهم. ولو انتفى السبب انتفت علة التشريع.

لاحظ نهاية الآية، لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، أي أن حركة الناس الدفاعية هي السبب الرئيسي للحفاظ على المنشآت الدينية من أن تنهد. وعددت الآية هذه المنشآت، صوامع وبيع وصلوات، وهي المعابد الخاصة بالديانات الأخرى مثل أهل الكتاب من يهود ونصارى. ثم وضع المساجد في الأخير.

فلو أن هذا الدين جاء بالأحادية لما أقر دور عبادة الديانات الأخرى. بل يجعل حفظها مساويا لحفظ المساجد. ومن إرادة الله أن تستمر هذه المنشآت لاستمرار التعددية، كأنه يخبرك أنك لن تعيش وحدك. بل التنوع والاختلاف والتعدد من إرادة الله في الأرض. فلا تحارب الله.

يعضد ذلك أن الغزوات الكبرى التي حدثت في زمن الرسول كانت جغرافيا على حدود المدينة، أي أن الأعداء هم من زحفوا وحاوطوا مركز الإسلام للقضاء عليه، أتحدث عن بدر وأحد والخندق، وحتى آخر الغزوات وهي غزوة تبوك تجهز لها الرسول عندما علم أن الدولة الرومانية المجاورة تحالفت مع ملوك الغساسنة للإغارة على المدينة. فقام بخطوة استباقية.

ورواية أخرى تقول إن بداية تشريع القتال، كان مع الآية 190 من سورة البقرة:

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ).

وهي صريحة كأختها السابقة. قاتلوا الذين يقاتلونكم. وبمفهوم المخالفة لا قتال لمن لم يقاتلنا.

ودليل ذلك أنه عندما منعت قريش المسلمين من دخول مكة للعمرة عند الحديبية سنة 6 هجرية، دون وجه حق، كاد المسلمون يتربصون بقبائل المشركين القادمة في هذا الوقت لزيارة البيت، وقالوا هذه بتلك؛ نمنعهم كما منعونا، فنزلت الآيات تنهاهم عن الاعتداء على الكافرين الذين لا دخل لهم في الموضوع. عداؤهم مع قريش فقط. وليس مع كل مشرك يتبع ذات الديانة. وهنا تفريق مهم بين العدوان العقائدي، وبين الرد على الظلم القادم من طائفة بعينها، أيا كان دينها. لكن ما أحدث اللبس في أذهان البعض هو توحد صفة الظلم، كصفة بشرية، مع عبادة الأوثان، كمعتقد ديني.

(وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبَرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) 2 – المائدة.

القرآن يقول لهم لا يدفعكم ظلم هؤلاء الكافرين الذين صدوكم عن المسجد الحرام، أن تعتدوا وتعاقبوا قوما موالين لهم، حتى لو اتفقوا معهم في الكفر، ويسمي هذا إثما وعدوانا. يا ربي الرحيم! هذا هو القرآن يا صديقي لو تريد تطبيقه، القرآن الذي ينهى عن الاعتداء على الكفار ما لم يكن لهم ذنب في ما أصاب المسلمين، ما يمثل أرقى تشريع قانوني حديث ينص على شخصية الجريمة والعقوبة. وتقوى الله في هذه الآية مرتبط بعدم الاعتداء ولو على مشرك. والتعاون بين المسلمين يكون في سبل الخير، وليس في سبل العدوان.

نعود إلى الغزو. نحن الآن نتحدث عن 13 سنة في مكة ثم سنتين في المدينة، أي 15 سنة متواصلة من الدعوة دون أن يرفع الإسلام سيفا، ودون أن يخرج لغزو أو جهاد.

ثم بدأت سنوات الجهاد، لمدة 6 سنوات بصورة متقطعة سنستعرضها بعد قليل.

ثم العام الأخير لحياته سنة 10 هجرية، لم يغز ولم يقاتل. والعام السابق عام 9 لم يحدث فيه أي قتال فعلي، ولا تعتبر غزوة تبوك، جيش العسرة، غزوة بالمعنى الحقيقي، لأن ملوك الغساسنة المتحالفين مع الرومان انسحبوا قبل بدء القتال ولم يلاحقهم الرسول، فانتهت الواقعة بلا حرب أو مواجهة. وغنم المسلمون غنائم كثيرة.

وبذلك فالسنة التساعة والعاشرة هجرية لم يحدث فيهما أي قتال حقيقي.

نعيد تكرار الأمر، لدينا الآن 13 عاما في مكة بلا قتال، ثم أول سنتين في المدينة بلا قتال فعليّ، وآخر سنتين في البعثة بلا قتال أيضا. يصير المجموع 17 عاما من دعوة الرسول لم يتلون فيها سيف بدماء.

وكان قوامها آيات من قبيل (وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً) 10 – المزمل. حتى الهجر في الإسلام يجب أن يكون جميلا.

وقال أيضا: (وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ، أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ) 41 – يونس.

إن كذبوا الرسول فلا يملك أي سلطان عليهم، إلا أن يقر قاعدة للتعايش: لكل واحد عمله في الدنيا،

والله يحاسب الناس في الآخرة.
(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ) 21-22 – الغاشية.
وبذلك فأكثر من ثلثي حياة الرسول قضاها بلا غزو أو قتال. فما هو الأصل وما هو الاستثناء؟ ما هو الثابت وما هو المتغير؟ ما هي السنة المؤكدة وما هي الظروف الطارئة المؤقتة؟
كل هذا وسط بيئة عربية قاسية تمجد السلب والإغارة وفنون القتال، وتعلن الحرب عشرات السنين على الجميع حتى لو كان بسبب سباق فرسين، داحس والغبراء، أو ضرع ناقة، البسوس.
وكان بيت الشعر العربي: (وأحيانا على بكر أخينا ... إذا ما لم نجد إلا أخانا)
أي لو لم نجد أحدا نقاتله إلا بكر أخانا، أغرنا عليه!
نكمل مشوار الأرقام.
الرسول خاض، وفق أرجح الأقوال، 28 غزوة. منها 21 غزوة انتهت قبل أن تبدأ. انتهت بلا قتال. دون أن يسيل دم أحد من فريقه أو فريق خصومه. غزوات بلا غزو وحروب بلا حرب. لكنهم خدعونا بمفهوم الغزوات. ربما لأن كتابة السيرة كان في عصور أولية تفتخر بالقادة العسكريين وتعتبر بطولاتهم وشجاعتهم هي أهم ما تحتفي به الأمم.
مرة ثانية، 21 حربا يستطيع الرسول إنهاءها دون أن يسيل دم أحد. لا من المسلمين أو الكافرين، فهل هذا رجل يحرص على القتل وإسالة الدم، أم أنه يحرص على تحجيم الصراع وحقن الدماء وعدم تعريض حياة الناس للخطر؟
والسبع غزوات الحقيقية التي حدث فيها اشتباك بين قوات المسلمين والمشركين، كانت حصيلة القتلى من الطرفين، لا تتجاوز على أقصى تقدير 400 قتيل. وفي رواية حوالي 280 قتيلا، منهم 150 كافرا فقط.
عندنا في مصر يا صديقي يموت 12 ألف إنسان بسبب حوادث السيارات سنويا. حلف الناتو، بقيادة فرنسا، قتل في ليبيا 100 ألف ليبي. أمريكا قتلت نصف مليون طفل في العراق. السنة والشيعة في العراق كانوا يقتلون كل شهر ثلاثة آلاف إنسان. قبيلتا الهوتو والتوتسي المسيحيتان، في رواندا في التسعينات قتلوا مليون إنسان في حرب أهلية (بتسهيلات من قوات حفظ السلام الدولية). بلجيكا قتلت في الكونغو 4 ملايين إنسان في أثناء الاحتلال، وكانت تحرق قرى بأكملها لو تأخر المواطنون عن تسليم محصول المطاط.
هذا العالم المتحضر الذي نعيش فيه يملك سلاح نوويا قادرا على تفجير العالم 150 مرة. وهذا العالم المتحضر الذي قتل 50 مليونا في الحرب العالمية الثانية، وبعد أن أقر ميثاق عصبة الأمم تسبب في 200 حرب كلها خارج أراضي المحاربين.
ورسول الله لا يموت في عهده إلا بضعة نفر، فيصير أتباعه إرهابيون وقتلة ولا يفهمون الدين إلا من خلال سفك الدم!
والسبب هم بنو جلدتنا، هؤلاء الذين رفعوا رايات الجهاد، كذبا وجهلا، ليغلفوا إجرامهم ووحشيتهم وخلل نفوسهم، بغلاف مزيف من قداسة الدين. إنهم أعداء الله الذين يصلون له عشية وضحاها. ولا تنس أن أول هجوم على الإسلام في المدينة كان من خلال مسجد. مسجد الضرار. وكفرا وتفريقا بين المسلمين. وأول من وصفه الرسول أنه ينفر الناس من الدين، كان رجلا يطيل بالناس في الصلاة وهو يؤمهم. فكره الناس المسجد. وهكذا كرهوا الإسلام.
عندما ذهب حكيم إلى رحلة طويلة وعاد إلى قومه، قال لهم لقد وجدت الأعداء، إنهم نحن.
سأضرب لك أمثلة من الغزوات التي حدث فيها قتال فعليّ، لتعلم كيف كانت حروب الرسول، وأيضا

بعض التحركات التي قام بها وأسبابها والتي لم يحدث فيها اشتباك.
= غزوة السويق. كانت ردا على هجوم أبي سفيان على (العريض) منطقة قريبة من المدينة، وقتل رجلين مسلمين، ثم هرب. ولم يحدث فيها قتال.
= بدر الأولى. خرج الرسول ليدافع عن حدود المدينة التي اخترقها المشركون وهاجموا مراعي المسلمين وسلبوا إبلهم، وأيضا فر الجناة ولم يحدث اشتباك.
= ذي أمر. خرج الرسول ليفرق جمعا من قبائل غطفان كانت قد نوت مهاجمة المدينة، ولم يحدث قتال.
= بني لحيان. كانت ردا على قتل 6 من دعاة المسلمين غدرا، لم يرتكبوا إثما إلا أنهم يدعون إلى الله. وفرت القبيلة ولم يتعقبهم الرسول وعاد المسلمون دون قتال.
= غزوة ذي قرد: كانت لتعقب رجل اسمه عيينة بن حصن، أغار على مراعي المسلمين فقتل حارسها وخطف امرأته وسرق الإبل المحملة باللبن، فخرج المسلمون لملاحقة هذا المجرم ومن معه، وانتهت الغزوة باسترداد المرأة والإبل. وكانت الخسائر 6 أفراد. ثلاثة مسلمين وثلاثة مشركين.
= الخندق: وكانت للدفاع ضد قبائل من قريش وغطفان تحاصر المدينة وتريد اقتحامها والقضاء على من فيها من المسلمين، ورغم ذلك استخدم الرسول كل الحيل لتجنب القتال. فلم يمت فيها سوى 3 مشركين.
= الحديبية: أرسلت قريش 50 فارسا لقتال الرسول وصده عن مكة، ولكنهم وقعوا جميعا في أسر المسلمين، وإثباتا لحسن النية ورغبة في الصلح لم يعاقبهم الرسول، وأفرج عن الأسرى دون مقابل. منّا دون فداء. ولم يمت أحد.
= فتح مكة: ذهب لها الرسول بعد أن نقضت قريش الهدنة المتفق عليه، بأن ناصرت قبيلة بني بكر في الهجوم على خزاعة المتحالفة مع الرسول، فاستغاثت به. ذهب الرسول في قوة كبيرة موزعة على أربعة لواءات يتصدرها كبار الفرسان، وكانت وصية الرسول: (لا تقاتلوا إلا مضطرين). وفي أثناء هذا الصدام الكبير لعودة الرجال المطرودين لأخذ الثار، كان من الطبيعي أن يسيل الدم أنهارا، ولكن لم يمت سوى 15 مقاتلا من الجانبين. ثم العفو العام عن الجميع دون شروط.
الحكم العام على جميع ما سبق، أن معظم تحركات الرسول كانت تحيط المدينة عاصمة الدولة الناشئة، ومعظمها إما لصد هجوم وإما للدفاع عن الحدود، وأغلبها ينتهي (بالهيبة) أو (الترهيب) وليس بقتال مباشر، كما أنها من نبي له اعتراف سياسي مباشر من الداخل من قبائل العرب واليهود والوثنيين المقيمين، ومن المجتمع الدولي المحيط الذي كان يبرم معه العهود والمراسالات والاتفاقات الإدارية والعسكرية والتجارية. لم يكن النبي مغتصبا لقطعة من الأرض يتخذ أهلها أسرى تحت تهديد السلاح ويفرض عليهم حكما قسريا وإلا ذبحهم جميعا. ولم يحتم النبي بالمدنيين ليصد الاعتداء، بل كان يخرج بجيشه على تخوم المدينة ويحمي الناس جميعا. كان يعرض حياته للخطر قبل أن تسيل قطرة دم من تابعيه.
ويظل العدد الأكبر الذي مات من يهود بني قريظة؛ هؤلاء خالفوا عهدهم مع الرسول، المتمثل في وثيقة الموادعة (دستور المدينة) الذي كان يبدأ بمصطلح (أمة من الناس)، وكان يفترض اشتراك كل من المسلمين واليهود في وثيقة المدينة للدفاع المشترك أمام المهاجمين. ولم يأخذ الرسول منهم جزية. وأعطاهم جميع الحقوق في المواطنة من تعبد وتجارة ومعايشة.
ولكن في غزوة الأحزاب سنة 5 هجرية، عندما حاصرت قبائل العرب مدينة الرسول، فكادوا يقضون على كل من فيها، تحالف اليهود مع الأعداء ليصبحوا كماشة من الداخل تطبق عليهم، في ما يمثل

جريمة خيانة عظمى تهدد حياة الناس جميعا.

وانتهت الحرب وحفظ الله المسلمين، فذهب الرسول وحاصر الخونة الذين نقضوا العهد وتحالفوا مع الأعداء، ولم يقاتلهم، بل أعمل فيهم قمة التحضر الإنساني، عرضهم على القضاء، وجعلهم يختارون قاضيهم. واختاروا سيدهم سعد بن عبادة الذي حكم على كل الرجال المشاركين في المؤامرة بالإعدام، ونفذ الرسول حكم القضاء.

كلحظة استثنائية في حياة الرسول التي مضت بأقل قدر من الخسائر في الأرواح.

الرسول في حياته مارس وظائف (بشرية) سياسية وقضائية وعسكرية، وظروف الواقع فرضت عليه تصرفات بعينها، لكن مع مقارنة ومقاربة حضارية لتاريخ العالم المليء بالدم والصراعات والحروب، تجد أنه كان الأكثر ميلا للمسالمة وتجنب الحرب وحقن الدم. وفتح أبواب الحوار مع الجميع. فهل أنت تفعل ذلك؟ هل نحن كمسلمين نفعل ذلك؟

يسكت الرجل قليلا. يترك السلاح لوهلة، ويعيد التفكير.

تولستوي، الروائي الروسي الأشهر، صاحب العمل الأسطوري، الحرب والسلام، وأحد أشهر مبدعي القرن التاسع عشر، قال إن محمد نبي الإسلام جاء بتعاليم قدمت خدمة جليلة للمجتمع الإنساني، بأن جعل أمة بأكملها تجنح إلى السكينة والسلام وتؤثر عيشة الزهد ومنعها سفك الدماء، ولمعالجة قضايا اجتماعية مثل الفقر والعدالة، بما دعا له من مساواة ومحبة بين البشر.

وأضاف: وقد امتاز المؤمنون الأوائل عن باقي العرب بتواضعهم وزهدهم في الدنيا وحب العمل والقناعة، وبذلوا جهدهم لمساعدة إخوانهم لدى حلول المصائب. ولم يمض على جماعة المؤمنين زمن طويل حتى أصبح المحيطون بهم يحترمونهم احتراما عظيما ويعظمون قدرهم. وغدا عدد المؤمنين يتزايد يوما بعد يوم.

هل نحن الآن، كما ذكر تولستوي، نستميل الاحترام والتبجيل، كمسلمين، لدى المحيطين بنا من ثقافات وشعوب؟ أم أننا نثير السخرية أو الرعب أو الاستخفاف؟

صدق تولستوي. وكذب المسلمون.

-5-
عبد الله لم يجاهد

كان الإمام علي يقول لابنه، يا بني إني أخشى عليك الفقر، فاستعذ بالله منه. فإن الفقر منقصة للدين. أي ينقص من دين الإنسان لما فيه من شدة وسخط.

لو أحببت مساعدة إنسان ليزداد تدينا وإيمانا، ولو أنك أردت لدين الله أن يصير أكثر رسوخا في قلبه، ساعده كي يتخلص من فقره. فكمال الدين في كمال الحياة.

مجتمع الفقراء، على قول الإمام علي، مجتمع ناقص الدين، ومجتمع الاعتدال والكرامة قريب من عبادة الله. فكيف يتحدث الناقصون عن دين الله!

الجوع هو أكبر قاتل في العصر الحديث، لدينا 10 ملايين إنسان يموتون سنويا من الجوع! ومليار إنسان -أي 1 من كل 6 يعيشون على الأرض- داخل دائرة التهديد، ومستهدفون من هذا القاتل الشرس، في مجتمعنا الحديث المعاصر الذي يستخدم الطائرات البوينج والسيارات الفيراري والحواسب الذكية.

هذا العالم يُنفق على صناعة السلاح سنويا 1.6 تريليون دولار (1600 مليار دولار. ولكي ندرك فداحة الرقم، فهو أكثر من مجموع ميزانية الدول النفطية، السعودية وقطر والإمارات والكويت، سنويا)، أمريكا وحدها تنفق 650 مليار دولار سنويا. بما يعادل 40% من إجمالي الإنفاق العالمي. الدول الصناعية الثمانية الكبرى تقدم 70% من هذا الرقم. وهم من يملكون 98% من السلاح النووي العالمي.

فلدينا كل سنة مئات المليارات لصناعة السلاح وصناعة الموت. بينما ملايين يموتون بطريقة أخرى غير الرصاص؛ من عدم وجود غذاء، وذلك في حضارتنا الرشيدة.

إبراهيم أبو الأنبياء قال (رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا.) 126 – البقرة. نبي الله إبراهيم له ثلاث دعوات، وثلاث أمنيات في حياته وبعد موته، يؤمنون بالله، حياة آمنة، وأن يجد الناس الرزق من الثمرات، الطعام الجيد.

فكأنّ رسالته والرسالات المتعاقبة من بعده هي. (أمان / توحيد / غذاء).

كم حققنا نحن المسلمين من هذه المعادلة؟

يا عزيزي إذ تمنح الناس الطعام والآمان فأنت تقترب خطوات واسعة من رسالة إبراهيم. فهل نحن نمنحهم الموت أم الحياة؟ الخوف أم الأمان؟ التوحيد أم الكفر بالله؟

تحدثنا عن الجهاد في المقال السابق، لكن دعنا نشرحه هذه المرة من خلال فهم الصحابي الكبير عبد الله بن عمر بن الخطاب، كما نقله البخاري في تفسير آيات سورة البقرة.

ميزة عبد الله أنه ولد في الإسلام، وعاش سنين التكوين والصبا في حجر الرسول مع الحسن والحسين، فتكون لديه تصور مبكر سليم عن هذا الدين.

عبد الله بن عمر رفض الالتحاق بأي جيش محارب منذ مقتل عثمان. جاءه أحدهم في عهد بني أمية، وقال إن الناس قد ضاعت وأنت بن عمر فاخرج للقتال معنا. واستشهدوا عليه بآية (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ) 39 – الأنفال.

قال لهم، قاتلنا على زمن رسول الله وكان الإسلام قليلا، وكان الرجل يفتن في دينه إما قتلوه وإما عذبوه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة.

عبد الله بن عمر يرى، أن المسلم ما دام قادرا على الجهر بدينه دون أن يتهدده القتل أو التعذيب، فلم

يعد الإسلام في خطر، والجهاد قد سقط. ويرى أن القتال كان لتوفير الحماية وتحقيق الأمان العقائدي لقلة ضعيفة، وأن ذلك كان زمن الاستشهاد الأول على عهد الرسول. وأن الإسلام قد كثر فسقط التكليف ولا حاجة للجهاد.

الآية توضح موقف الكافرين (وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا) 217 – البقرة. فقبائل العرب استهدفت دين المسلمين ليتخلوا عنه. وبذلك فقتال المسلمين كان لمجابهة هذا الإرهاب للحفاظ على دينهم أولا. وكل آيات الشجاعة والاستشهاد لبث الحماسة في نفوس المسلمين للاستبسال في القتال، لأنهم كانوا يخافون.

هل كان الصحابة يخافون؟

نعم والله. نجده في كتاب الله (أَتَخْشَوْنَهُمْ، فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) 13 – التوبة، وقال (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ) 216 – البقرة. وفي غزوة (حنين) فروا هربا وتركوا رسول الله وحده ينادي فيهم هو وعمه يحثهم على الرجوع. وفي غزوة (ذات الرقاع) هاب المسلمون عدوهم فصلى الرسول بهم صلاة الخوف.

فكانت الآيات مهمة لبث الطمأنينة والإيمان واستشعار وجود الله معهم. وانتصروا على كل من حاربهم نصرا كبيرا عزيزا مؤزرا.

الآية التي استشهدوا بها على بن عمر (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ) 193 – البقرة. جاء فيما بعد ليشرح مدى القتال (فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلا عَلَى الظَّالِمِينَ)، أي لو انتهوا عن إيذائكم والتعرض لدينكم، فلا يحق لكم أن تعتدوا عليهم. فكأنّ قتالهم رد فعل دفاعي وليس بداية هجومية. قتال لتمكين الإنسان من اختيار دينه في حرية وأمان.

وفي الآية التي يشجع الله فيها المؤمنين على القتال، وضع أسباب هذه الشجاعة وهذا التحرك: (أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، أَتَخْشَوْنَهُمْ.) 13 – التوبة.

فالآية تقول إن سبب القتال هنا للرد على قوم نكثوا أيمانهم. أي لا يلتزمون بأي تعهد بينهم وبين المسلمين، وهمّوا بإخراج الرسول من داره، وهم من بدأوا القتال! يجب أن تتوافر هذه الشروط أولا، وبذلك لو استبدل بهذا الواقع واقعا آخر مُرحبا الإسلام يحفظ العهود والعقود ويحفظ على الناس أمانهم وأموالهم وديارهم، فالوضع يتغير.

نعود لابن عمر الذي رفض القتال، ورد بما أوردناه من كلام، وكان ذلك أكثر من مرة، إحداها عندما دعوه للتدخل في القتال الدائر بين عبد بن الزبير (حاكم الحجاز) الرافض للخلافة الأموية، وعبد الملك بن مروان (حاكم الشام) فرفض، واعتبره قتالا على السُلطة وصراعا دنيويا يستخدم شعارات تتمسح بدين الله، ودين الله براء منها.

رغم أن عبد الله بن الزبير أحد طرفي النزاع، أبوه الزبير بين العوام مُبشَّر بالجنة. وأمه أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين. وهو أول مولود في الإسلام. وعمة أبيه خديجة. وجدته صفية عمة الرسول.

ابن عمر يرى أن القتال يكون لإخماد الفتن. وأن يكون الدين لله. لو حدث قهر أو ظلم أو وصاية دينية تكره الناس.

وبذلك رفض أي صراع دنيوي يلجأ للتمويه بشحن مشاعر الناس، عبر استخدام مصطلحات مثل (الجهاد في سبيل الله) أو (الحكم بما أنزل الله) أو (حماية الدين)، ويراه في الأخير صراع سلطة.

ويرى أن استبدال الجهاد يكون بالأمان والحماية وحرية الاعتقاد.

أبو حنيفة قال ذلك، عندما قسموا العالم إلى دار سلم ودار حرب، فقال إن دار السلم / دار الإسلام، هي كل بلد يستطيع المسلم التعبد فيه دون مخافة أو أذى، حتى وإن كان حاكمه غير مسلم. والإمام الشافعي

على هذا الرأي إذ قال إن أي دار يجهر فيها المسلم بعقيدته ويستطيع القيام بشعائره من صلاة وآذان وذبح، هي دار إسلام ولا يجوز للمسلم تركها وإن كان حاكمها كافرا.

تقريبا هذا متحقق الآن بنسبة 99% من الدول.

وبذلك فإن الجهاد -بمعناه القتالي- قد انتهى لانتهاء أسبابه التي شرحتها آيات سورة البقرة (حتى لا تكون فتنة) وشرحها عبد الله بن عمر. هل يوجد جهاد آخر باق معنا؟

نعم لدينا، وهو مستمر باستمرار الحياة.

كان الصحابة جلوسا حول الرسول، فرأوا رجلا نشيطا قويا يمر عليهم. فقالوا لو كان هذا في سبيل الله. يتمنون لو كانت تلك القوة وهذا النشاط متحقق في الحرب، وخاصة أنها كانت حروبا بدائية قائمة على البطولة الفردية أكثر من الأسلحة الحديثة.

فقال الرسول يعلمهم:

إن كان خرج يسعى على أولاده صغارا، فهو في سبيل الله.

إن كان يسعى على أبوين كبيرين، فهو في سبيل الله.

إن كان يسعى على نفسه يعفها، فهو في سبيل الله.

الرسول يصحح المفاهيم. الجهاد في سبيل الله يبدأ من رعايتك لأطفالك، وكفالتك لأبويك، والسعي والإتقان لعفاف نفسك، والعمل والتكافل ورعاية الناس، هو المجتمع المسلم الأول الذي يسعى في سبيل الله.

فهل نستطيع على هذا صبرا!

-6-
الانتحار في سبيل الله

ما هو النموذج الذي يفيد الإسلام أكثر؟ مصعب بن عمير وأبو ذر الغفاري، الصحابيان، أم محمد عطا وخالد شيخ محمد، الانتحاريان؟

مصعب شاب وسيم، مدلل، وثري، آمن بالرسول في بدايات البعثة ففقد كل الامتيازات الطبقية وقطع عنه أهله مصادر النفقة. ازداد يقينا ورسم الابتسام على وجهه ومضى في الطريق، اختاره الرسول كأول دبلوماسي في الإسلام يحمل رسائله الأولى إلى يثرب. المدينة. التي تصير بعد ذلك المركز السياسي والثقافي الأهم. لم يعطه الرسول سيفا يدافع به عن نفسه، ولم يشذب له قصبة رمح طويلة لتكون حافزا على تخويف الناس، بل سلمه بعض الكلمات، آيات من كتاب الله، وجعله يسافر ليقيم بين عدد قليل من المسلمين الجدد الذي بايعوا الرسول بيعة العقبة الأولى.

جلس مصعب في بيت أسعد بن زرارة، وعلم به سادات المدينة فتباحثوا الأمر فيما بينهم، ورأوا أن هذا الوافد الجديد يحدث اضطرابا بين الناس ويفتنهم عن ثوابتهم التي نشأوا عليها، ويخاطب عامة الناس وخاصة العبيد، ويدعوهم إلى الله الواحد الذي خلق البشر جميعا من طينة واحدة تحوز المساواة والكرامة، وأنه لا فضل لأحد بسبب نسبه أو جنسه أو قبيلته. قالوا: جاء يسفه علينا عبيدنا.

ذهب أحد الرجال الأشداء، وهو أسيد بن حضير، ليخبر مصعب أنه شخص غير مرغوب فيه. قابله مصعب بهدوء وسعة صدر وقال له: تجلس لتسمع مني، فإن أعجبك أكملت، وإن ساءك امتنعت، وسأكف عنك ما يسيئك. جلس أسعد وسمع.

والثواني تتوالى ووجهه يتغير، وكذلك قلبه ووجدانه، لسماع هذا الكلام الذي يؤتي أثرا بالسكينة والهداية، ويحض على الرحمة والسلام لمجرد السماع, وكسب الإسلام رجلا جديدا، بالكلمة.

وتوالت الأحداث، وتكرر الأمر مع سعد بن عبادة، زعيم الخزرج، ينوي القتال، ولكن مصعب يعرض الحوار، ويسكت السيف أمام الكلمة وتتغلب الدعوة بالحسنى على حمية الجاهلية. وهنا يتغير شكل المدينة بعد أن آمن الزعماء بالإسلام عبر أول سفير له يحمل رسالات السماء الأولى. كلمة طيبة محمولة بأخلاق كريمة تراهن على قلوب الناس ووعيهم.

لتصير المدينة من بعد مصعب، وقبل ذهاب الرسول، أهم مركز سياسي وثقافي للإسلام في بداية البعثة. هكذا كان الفتح الأول. وبدايات الانتصار. والذي عبرت عنه السيدة عائشة أن قالت: فتحت المدينة بالقرآن.

نترك مصعب في المدينة، ونطير عبر الزمن ألفا وأربعمئة سنة، حيث محمد عطا، شاب نشأ في محافظة كفر الشيخ حتى المرحلة الثانوية. حصل على مجموع عال أهله لدراسة الهندسة، قسم العمارة، بجامعة القاهرة. عطا كان شابا مجتهدا يحب دراسته التي أنهاها بتفوق، ثم سافر إلى ألمانيا لإكمال دراسته العليا بجامعة هامبورج، ليتخصص في المباني التراثية بمنطقة الشام.

وفي أثناء إقامته في ألمانيا، ولأسباب غير مفهومة، ظهرت عليه ميول تدين عدوانية تجاه الحضارة الغربية. صار يتحدث كثيرا عن أن العالم مكان غير عادل، وأن أمريكا تدعم إسرائيل، والصهيونية تتحكم في مصير العالم.

سافر للحج، والتقى هناك ببعض أفراد تنظيم القاعدة الذي وجد فيه ملاذا لأفكاره. توجه بعدها إلى أفغانستان وجلس مع أسامة بن لادن وخالد شيخ محمد، فتوطدت علاقته وصار عضوا بارزا.

عاد إلى ألمانيا ومنها إلى نيويورك. وبدأ في ارتياد مدرسة لتعلم قيادة الطائرات، وبمرور الوقت حصل

على رخصة قيادة طائرة بوينج 727، ليكون قائد الطائرة التي اقتحمت برج التجارة العالمي في سبتمبر 2001 التي تسببت في مقتل ما يزيد عن 3000 شخص. وينقسم التاريخ إلى ما قبل 11 سبتمبر وما بعده. وليخسر الإسلام خسائر فادحة ربما لم يخسرها منذ معركة صفين.

توزعت أشلاء عطا بين حطام الطائرة المتهشم داخل الواجهة الزجاجية لهذا البرج العملاق، لكن شيئا لم يتغير في هذا العالم الظالم. مات عطا دون أن يسهم في أن يصير العالم مكانا أكثر عدلا. لم ينتصر الإسلام ولم يزد عدد تابعيه، ولم يرتفع الظلم والقهر عنهم، ولم يساعد في تحسين ظروف الفقر والتخلف والتراجع الحضاري. لم يطور سلاحا جديدا ولم يبتكر علاجا للسرطان ولم يغرس زهرة تبعث الأمل، أو شجرة تطرح ثمرة تسد جوع محتاج، بل أهدى الأعداء على طبق من فضة طريقا لتشويه الدين والتنفير منه وصد الناس عنه، والاعتداء على أبرياء آخرين بجريرة أفعاله.

صديقه الباكستاني، خالد شيخ محمد، كان أكثر حظا. خالد انضم لتنظيم القاعدة منذ سنوات طويلة، تدرج فيها حتى صار أحد العقول المدبرة لتفجيرات 11 سبتمبر وغيرها من العمليات الإرهابية، قبضت عليه أمريكا عام 2003 وهو الآن بسجن جوانتنامو (كوبا).

قبل فترة كتب رسالة إلى القضاة العسكريين الذين يحاكموه وفيها:

إن القرآن يحرم نشر الدين بالعنف!

في نفس الوقت عينت الحكومة الأفغانية أول امرأة، الكولونيل جميلة، في منصب مدير شرطة كابول لإعطاء المرأة حقها في شغل المناصب القيادية والتي كانت قد حرمتها منها حكومة طالبان.

مات عطا، ودخل خالد شيخ محمد السجن. وانتصرت الكلونيل جميلة.

ولا أحد يذكر مصعب ورسالته الأولى، فتحه الأول، ويزعمون تشبههم بالصحابة وهم أبعد الناس عن دين الصحابة.

كل هذا وأبو ذر يجلس لينظر لهم في ترقب. ترك قبيلته وذهب إلى مكة يسمع عن هذا الرجل الذي يدعو قومه إلى عبادة الله الواحد وترك ما يتوسلون به من حجارة. راقب الرسول طويلا حتى تأكد من خلقه وسلوكه فجلس له، وقال أنشدني يا محمد، قال الرسول: ما هو بشعر حتى أنشدك لكنه قرآن كريم. قال دعني أسمع منك. فاستمع آية تلو آية، وقلب الرجل يرتجف. وما يلبث أن يعلن إسلامه.

أبو ذر ليس رجلا سهلا. إنه من قبيلة غفار، التي اشتهر رجالها أنهم لصوص وقطاع طرق مجرمون. نظر الرسول للقادم في دهشة، وتبسم، وقال إن الله يهدي من يشاء.

ويغادر أبو ذر مكة وهو لا يعلم عن الإسلام إلا أنه يهدي إلى عبادة الله الواحد، ويحث على مكارم الأخلاق وحسن الجوار وكفالة المحتاج. والقليل من آيات القرآن. بينما لم يكن هناك أي تشريع عبادي من صوم وصلاة، وتمضي السنين ويهاجر الرسول إلى المدينة وينسى هذا الوافد الذي خاطبه يوما، وذات يوم يجد صفوفا طويلة من المشاة والركبان تعلو تكبيراتهم من مكان بعيد.

ودخلوا المدينة فوجد الرسول أبا ذر على رأسهم. إنهم قبيلتي غفار وأسلم، قد دخلتا في الإسلام جميعا على يد الرجل. وأتيتا نبايع الرسول.

أبو ذر أقنع قبيلته، اللصوص قاطعي الطريق، وقبيلة أخرى مجاورة بالإسلام، بمكارم الأخلاق وقليل من آيات الله والكثير من الحب. دون أن يرتفع سيف أو يسيل دم أحد.

هكذا كانت فتوح الإسلام الأولى ومنهج الرسول والرجال من حوله، كلمات، تسببت في دخول الناس في الدين أفواجا.

بينما مناهج البعض تخرج بالناس من دين الله أفواجا. ويزعمون أنهم مسلمون يتبعون نهج السلف الصالح.

-7-
الإسلام بين فتحين

كان المفتش الأعظم، رجل الدين الكاثوليكي المتدين، مسؤولا عن تتبع عقائد الناس والتفتيش في صدورهم. وإذا شك في إيمان أحدهم، يحيله إلى المحاكمة التي تنتهي به إلى المحرقة، كمهرطق، لا يستحق الحياة.

عبر ديستوفسكي عن تلك الشخصية في روايته (الإخوة كارامازوف)، حيث التقى المفتش الأعظم السيد المسيح في الطريق، فاستدرجه المفتش إلى السجن، وظل طيلة الليل يناقشه ليتأكد من مدى إيمانه، ومدى مطابقة كلامه لتعاليم المسيحية.

فاكتشف المفتش، في النهاية، أن المسيح ليس مسيحيا كما ينبغي!

وأن السيد المسيح يستحق أن ينال العقوبة على جريمة الهرطقة. ولكن إشفاقا به سيسمح له بالهرب.

لم يجد السيد المسيح ردا، إلا أنه قام وقبل جبينه، ثم صعد إلى السماء.

كانت تلك المحاكم تعقد في إسبانيا بعد خروج العرب، وتمت ملاحقة المسلمين واليهود وقتلهم، ولم يتوقف التعصب عند هذا الحد، بل امتد إلى بقية المسيحيين خارج مذهبهم مثل البروتستانت.

تلك سمة العصور المتخلفة، وسمة من لم يفهم روح الدين وتسربل بقشوره، ولم ينفذ الدين إلى أعماق وجدانه فجعله رقيقا رحيما.

الآن انتهت محاكم التفتيش من العالم، وبدأت في المنطقة الإسلامية بقوة، وهذا مؤشر خطر على طريقة التفكير التي تسيطر على الوعي العام للمسلمين، وطريقة فهمهم لطبيعة الدين.

تحدث الله في القرآن عن بني إسرائيل أنهم يحرفون الكتاب وهم يعلمون، فلم يكن ضلالهم بناء على سوء اختيار أو تخبط أو حيرة، ولكن عن عمد، وكان سبب ذلك أو نتيجة له، أن قست قلوبهم.

(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) 74 – البقرة.

كأن الكفر والتحريف والمكابرة نتاج قسوة القلب، وكأن رقة القلوب تقود صاحبها إلى خير، فهي مفتاح الإيمان وهي طريق الله، وبداية القسوة أن تحتكر الحق، وتحتقر الآخرين، وتنصب نفسك قاضيا على قلوبهم.

دخل الرسول على أم المؤمنين عائشة، فوجد عندها امرأة، فقال من هذه، قالت فلانة. ثم ذكرت من صلاتها، وأثنت على عبادتها، فقاطعها الرسول وقال: مه. عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا. (البخاري / كتاب الإيمان)

الرسول في الحديث لا يعلق على صلاة المرأة، ولكنه يؤكد، في المقام الأول، على عدم إرهاق الناس بما لا يطيقون.

إنه يعرف أن التشدد يخلف الترك الكامل، ولو بعد زمن، وأن التيسير ينتشر في المجتمع ويجعل الناس أكثر حبا وتمسكا بدينهم. والحب هو القوة الأولى التي تربط الناس والأديان.

الرسول لا يريد أن يكون معيار التفاضل بين الناس هو المعيار العددي في العبادة. كم ركعة صليتها وكم جزءا من القرآن حفظته. ويجعل الطريق موصولا بينك وبين السماء سواء بالطاعة أو حتى المعصية، والله لا يمل. لا يمل من العبادة، ولن يمل أن يغفر للعصاه التائبين.

يروي البخاري في كتاب الأحكام عن بن عمر، أن الناس كانت تبايع الرسول على السمع والطاعة، ولكن الرسول كان يضيف عبارة:

(فيما استطعتم)

نعم الرسول لا يزايد على أحد، ولا يشق عليه. تخيل أنك أنت من تعلن رغبتك في الالتزام بالسمع والطاعة، بينما الرسول من يلتمس التخفيف والترفق قدر الاستطاعة، فالرسول لا يحب أن تكون ملتزما عن كره أو عنت.

يقول الله عن الرسول (وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمان) 7 – الحجرات.

أي أن الرسول لو استجاب لرغباتهم ستصير أحكام الإسلام أكثر عنتا وشدة، وتلك ليست رغبته ولا هدفه، إنما هدفه أن يجعله دينا إنسانيا إلى أكثر درجة، رحيما رقيقا بلا حدود، كأنه من الطبيعي أن يزايد البعض بالتشدد، ولكن النبي يخالفهم إلى التيسير.

منهج الإسلام في مواجهة الكفار، كان يعتمد النقاش المنطقي الهادئ الذي يثمر نتيجة قد تسهم في الوصول إلى الحق. منهج الإسلام صاغته الآية ببراعة:

(قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) 111 – البقرة.

لم يقل هاتوا سيوفكم، أو هاتو نفيركم كي نرى من أكثر مالا وأعز ولدا. بل قال برهان، منطق، كلمة، حوار محترم. وكان الرد من الكفار:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) 26 – فصلت.

فكان منهجهم الصد والمصادرة والتطاول، ليس بالامتناع عن سماع القرآن فقط، بل التعدي عليه باللغو فيه، دون ترك فرصة للمخالف لهم في التعبير عن عقيدته بحرية وسماحة.

بعضهم يريد الانتصار للإسلام وهو يستخدم منهج الكافرين. ويظن نفسه تقيا.

قال الله لرسوله في الحديث مع أهل الكتاب

(وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) 46 – العنكبوت.

وقال لنبيه موسى في الحديث مع فرعون

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى. فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) 43-44 – طه.

هكذا يكون الحوار مع المخالفين في العقيدة ، مع أهل الكتاب، القول الحسن. ومع طغيان فرعون بالقول اللين. فما بالك مع أخيك المسلم!

يقول الله

(فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً) 90 – النساء.

أي، لو كفوا عن قتالكم والتعدي عليكم فلا تملكون عليهم من سبيل. لا تتعرضوا لهم بالأذى أو الإكراه الديني أو المادي. لو توقف الكافر عن حربك فلا تقاتله، بل لا تملك عليه أي طريق للتعدي، إلا أن تعايشه بسلام.

والإسلام يبحث عن أي سبب ولو كان ضعيفا، أو واهيا، أو غير مقنع تماما، لافتراض حسن النية في الناس، ولا يفتش عن نواياهم أو عقائدهم ويترك حسابهم لربهم.

أسامة بن زيد خرج لتأديب جماعة من الكافرين المعتدين، ولما وقع رجل فيهم تحت سيفه، قال (أشهد ألا إله إلا الله) فقتله أسامة.

محارب خرج لقتالك وحرص على قتلك، ثم تغلبت عليه، فلجأ إلى حيلة ونطق بالشهادة، هو كذاب لا شك، وغير مؤمن لا ريب، ونسبة كذبه تكاد تصل إلى مئة بالمئة، بل لو تركته فقد يميل عليك ويقتلك.

وعندما أخبر أسامة الرسول بالحدث، غضب رسول الله، وظل يردد: هلا شققت عن صدره؟

هذا الرجل قطعا لم يؤمن، ولم يطبق أي شيء من تعاليم الإسلام، ولم يتعبد لله ولو ليوم واحد، ولم تتغبر جبهته بسجدة واحدة، وفوق ذلك بادرنا بالقتال، ولكن لو نطق بكلمة شفهية، ولو لم تمس القلب،

تصير كافية لافتراض الإيمان فيه!

يا ربي إنهم يشككون في عقائد ناس أكثر إيمانا بكثير من هذا المتحايل الذي غضب النبي من أجله أشد الغضب، وتمنى أسامة أن لو لم يكن مسلما ساعتها.

وفي رواية أخرى عند البخاري، في كتاب المغازي، كان خالد بن الوليد على رأس سرية إلى بني جذيمة، فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون صبأنا صبأنا، ربما يتحايلون، أو لم يعلموا الإسلام جيدا، فقتلهم خالد.

وعلم النبي، فتمعر وجهه من الغضب، ورفع يده إلى السماء وظل يردد: اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد.

أناس غير مسلمين، ولم تعبد الله ليوم واحد، ونطقت باسم الإسلام خطأ، ورغم ذلك افترض فيهم الرسول الخير، وعصم إيمانهم المشوه، وتجاوز عن قولهم، وحاول أن يلتمس شيئا طيبا خفيا قد لا نعلمه في قلوبهم.

حتى لو أخطأ الناس في اسم الدين ومدخل العقيدة، فالرسول يسامح، فما بالك بمن يتهم من يحسنون النطق والعبادة والخشوع، ويستحل دماءهم!

ذهب الأعراب وسألوا عن عبادة الرسول، فلما أخبرتهم نساؤه، فكأنهم تقالوها، أي وجدوا أن الرسول لا يتعبد بما فيه الكفاية، فخرج عليهم الرسول وأنكر عليهم المغالاة والمزايدة. يبدو أن البعض قد يرى أن محمد ليس مسلما بما فيه الكفاية، تماما كما رأى كبير المفتشين أن المسيح ليس مسيحيا كما ينبغي.

هكذا تنهزم الأديان، ويكفر الناس بها، وتتحول إلى عبء على ثقافة البشرية، فترفضها، لما تورثه من كراهية وعداء واضطراب المجتمعات، على عكس ما هدفت له.

يتجاهل البعض أن الفتح الأول للإسلام، كما ذكرنا في مقال سابق، كان بالقرآن، بالكلمة، والإرادة الحرة المختارة. وفتحه الثاني في مكة كان محمولا على رايات العفو والصفح، وعدم الانتقام ممن قاتلوا المسلمين وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم. وهكذا عاش الدين بين فتحين، أحدهما يحمل الكلمة والثاني يقدم الغفران والصفح. فكيف تفهمون دينكم إذن!

-8-
أمريكا من تجارة العبيد لتجارة السلاح

تعالي يا صغيرة أحك لك عن أكبر بلطجي يتاجر في السلاح في عصرنا الحديث. ومن خلالها وصل – حقا– لطريق الفلاح.

التقارير تقول إن نصف السلاح (من 35 الى 50 %) في أيدي مدنيين في العالم، يحمله مواطنون أمريكيون. أمريكا بها ترخيص 300 مليون قطعة سلاح لأفراد. حصيلة التجارة في السلاح في السوق الداخلية لأمريكا يبلغ 700 مليار دولار سنويا. وهو رقم يتجاوز ميزانية الجيش والمخابرات الأمريكية. ما جعل 40% من إجمالي سوق السلاح في العالم تمتلكه أمريكا. راعية السلام!

لكن، هل هذا السلاح يستخدم بشكل رشيد وعقلاني ويؤدي إلى حماية الممتلكات وحفظ الأرواح، أم أنه سلاح همجي طائش في أياد لا تعرف الحرمات ولا تراعي قيمة الإنسان؟

في حربها الطويلة التي امتدت عشر سنين مع حركة طالبان وتنظيم القاعدة في جبال أفغانستان، فقدت أمريكا 7000 جندي أمام أشرس جنود يقبعون في أشرس طبيعة بيئية. أمريكا تقاتل الطبيعة أكثر منها تقاتل البشر في أفغانستان.

لاحظي الرقم، 7 آلاف جندي في حرب عصابات كل شيء فيها مباح، بينما من مات داخل أمريكا بالسلاح الأمريكي في أيدي مدنيين 35 ضعف هذا الرقم، نحو ربع مليون قتيل. النتيجة قد لا تكون مستساغة. الأمريكيون المتحضرون يقتلون من شعبهم أكثر مما يفعله إرهابيو تنظيم القاعدة. (المرجع: فورين بولسي)

أسوأ صورة يمكن أن تتحدث عن الإسلام موجودة في تنظيم القاعدة. تنظيم جاهلي متخلف مشوه نفسيا وفقهيا، ويتسبب في اغتيال صورة الإسلام عالميا، لكن لو قارناه بتحضر المواطن الأمريكي نجده أقل إضرارا.

أحدهم قال إن أمريكا انتقلت من التخلف إلى التقدم، دون أن تمر بمرحلة الحضارة.

البطالة في أمريكا وصلت إلى 15%، في حين أن مديرة كبيرة في شركة بيبسي تتقاضى مليون دولار شهريا، ومكافأة سنوية مليوني دولار. مديرة شركة أوراكل راتبها الشهري يتجاوز 4 ملايين دولار. الرأسمالية ليست نظاما عادلا على كل حال. والاشتراكية المثالية والعلمية، من سان سيمون وحتى ماركس ولينين، لم تقدم حلا واقعيا. ما هو البديل؟ نعم أظنه في مقاصد التشريع الإسلامي، ولنا في هذا اجتهادات نذكرها في حينها. يكفي أنه الوحيد الذي جعل ضريبة سنوية (الزكاة) تقتطع من أصل رأس المال، وليس من عائد الربح، أي بعد عشر سنين يكون الأثرياء تبرعوا بربع أموالهم للمجتمع.

نعود للسلاح.

أمريكا استخدمت السلاح النووي –وهي الدولة الوحيدة التي فعلت ذلك– ضد اليابان، ما أدى إلى موت مئات الآلاف وتشوه النسل حتى يومنا هذا، وكان من أهداف استخدام السلاح النووي حينذاك، أن تقنع شعبها بجدوى المليارات التي أنفقتها على مشروع مانهاتن النووي والذي كان يبدو بلا فائدة. بينما الروس هم من قدموا اقتراحا باتفاقية حظر انتشار أسلحة الدمار الشامل، وليس الأمريكان.

في الذهنية العالمية الروس همجيون والمسلمون متخلفون، وسبب ذلك عزيزتي أن أمريكا تمتلك السماء قبل أن تمتلك الأرض. الفضاء والفضائيات والإعلام القوي؛ التلفيزيون والسينما ونشرات الأخبار.

أما الحرب على العراق فهي كارثة الكوارث. محكمة العدل الدولية تستطيع ملاحقة زعماء إفريقيا، لكن

هل تجرؤ على محاسبة توني بلير وجورج بوش؟

الخسائر التي نالت العراق نتاج الهمجية والوحشية لا تختلف كثيرا عن أفعال هولاكو وتيمور لانك وجنكيز خان. رغم مرور قرون فإن الحضارة لم تمس النفوس. قالها نزار منذ سنين: خلاصة القضية توجز في عبارة، الروح جاهلية والجسد ارتدى ثوب الحضارة.

القصف الأمريكي دمر 25% من المواقع الأثرية جنوب العراق. مدينة بابل العتيقة تحولت إلى مهبط طائرات وممر دبابات. وتحولت الكتابة المسمارية إلى تراب. مدينة (أور) التي ولد فيها إبراهيم أبو الأنبياء أصابتها أربعمئة قذيفة. وجامعة المستنصرية، وعمرها ثمانية قرون تعرضت للقصف.

حاوطت القوات الأمريكية وزارة النفط، وتركت متحف بغداد ليسرق منه 80% من محتواه. رغم أن اتفاقية لاهاي 1954 واتفاقية اليونيسكو 1970 تلزمان قوات الاحتلال بالحفاظ على التراث الثقافي.

لتضيع الثقافة وليموت التاريخ، المهم هو النفط، عزيزتي. هكذا تحدثت قمة الحضارة!

ولم يكتفوا بذلك، بل حاول المجلس الأمريكي للثقافة أن يدخل تعديلا للقانون يسمح باستيراد القطع الأثرية من العراق. إنهم يسرقوننا وبالقانون، والقانون يبدو متحضرا ونحن دوما متخلفون. أو هكذا يروننا. وكذلك فعلنا بأنفسنا.

والكل يبيع التاريخ، ويشتري أسلحة حديثة.

هدف المحتل عزيزتي هو محو التاريخ؛ أن نصير بشرا بلا ماض وبلا هوية، وبلا ثقل يشدنا للأرض، فتقل المقاومة ونصير كائنات مستعبدة لنمط العولمة التي تحمل شعارا أمريكا.

أمريكا تؤمن أن كل شيء يمكن اشتراؤه، حتى الأوطان. وهكذا كانت نشأتها. مانهاتن وعليها نيويورك اشترتها من شركة هولندية. كاليفورنيا اشترتها من إسبانيا. ولويزيانا اشترتها من فرنسا.

في حربها على فيتنام، أصدرت القيادات الأمريكية تعليمات لسلاح الجو، يختصر خطة الحرب في كلمات. اقتل كل شيء يتحرك kill everything that moves ورغم التجربة الوحشية التي مروا بها في أثناء الحرب إلا أن الفيتناميين ما زالوا محتفظين بإنسانيتهم. في حين أنهم 54 عرقية وبعضهم له لغة أخرى. يقول وزير الثقافة (هوانج توان) لو لم يجمعنا حب البلد وحب بعضنا فإت تجربة الحرب كانت ستمزقنا. وإلى جوار الحب هناك المغفرة. حتى لا نظل أسرى للماضي ونستطيع التقدم للأمام.

حتى الفيتناميون كانوا أكثر رقيا.

العدل حلم الضعفاء أما القانون فيكتبه الأقوياء. تلك ركيزة مهمة في بناء النفسية الغربية والأمريكية تحديدا. ليست هناك مبادئ، هناك منافع. والله قال في الكتاب (اعدلوا هو أقرب للتقوى)، لكن منذ متى يسمع الناس لكلام الرب!

في رسالة مهمة محفوظة لدى التراث الأمريكي لأحد كبار المؤسسين كتب فيها:

(إن الخلاص من الهنود الحمر أسهل بكثير من اي محاولة لتمدينهم، فهم همج عراة، وإبادتهم تختصر الوقت. وتكون بتجويعهم وقتلهم وحرق محاصيلهم وتدمير القوارب والبيوت، وفي المرحلة الأخيرة بالمطاردة بالجياد السريعة والكلاب المدربة التي تنهش جسدهم العاري).

المهاجرون الأوائل إلى أمريكا كونوا شركات مساهمة (صارت ولايات) تتاجر وتزرع وتراكم الثروة، لكنها واجهت مشكلة كبرى. اليد العاملة. عدد المهاجرين قليل، والسكان الأصليون تتم إبادتهم. فما كان الحل إلا في العبودية. استجلاب العبيد كقوة بشرية تعمل ولا تشارك في الربح.

وهنا نشأت شركات كبرى مسؤولة عن قنص العبيد من سواحل إفريقيا، بالسلاسل والسياط، حتى بلغ عدد هذه الشركات في أوائل القرن الثامن عشر، 400 شركة تملك 1200 سفينة مخصصة لهذا

الغرض! (محمد حسنين هيكل: الزمن الأمريكي)

جلبت السفن من سواحل إفريقيا 30 مليون عبد، يعملون تحت القهر والتهديد في الحقول والمناجم والمصانع، لا يملكون غير لقمة العيش. إلى جانب ملايين ماتوا في رحلات النقل غير الآدمية.

وفي سجلات السفينة سالي التي يقودها القبطان هوبكنز، تجدين حوارا مثل ذلك.

(معنا 196 عبدا وضعناهم في عنبر أسفل السفينة – كنا نخصصهم لبقرتين معنا – وربطنا الأسرى بالحبال. الحمولة الآن كاملة وسوف نبدأ رحلة العودة نحو الكاريبي).

حظيرة البقر كانت المكان الملائم للعبيد عندهم عزيزتي!

لا أحتاج أن أذكرك أن العبيد كانوا يتولون بعض الإمارات في عهد الرسول والخلفاء الأوائل. وأن الصحابي كان يمشي هو وعبده فلا يفرقون بينهما في المظهر والهيئة. وأنهم كانوا يؤمون الصلاة. أقدس عبادة. أي أنه عندما استحال إلغاء العبودية، لظروف ثقافية وإنتاجية، أقر الإسلام ما هو أهم من الحرية الشكلية وهو المساواة.

حتى إن إبراهام لينكولن محرر العبيد في أمريكا ألغى الرق، بعد اختراع الآلة، فلم يعد لهم قيمة، لكنه لم يقر المساواة، حيث ظل العبد عبدا، واقعيا، وإن نال حريته شكليا.

بل إن أغنى ولايات أمريكا كان سببها هو العبيد، ودعيني أنقل لك عن ولاية نيو إنجلند:

(سنة 1770 كانت مستعمرة (ولاية) نيو إنجلاند أغنى مناطق أمريكا، وقد كانت بالفعل قصة نجاح رائعة وكان محرك النمو هو العبيد الذين كانوا العنصر الفاعل على الأرض وفي المصانع والترس الدوار في حركة التجارة والتصدير. وكان العبيد هم أساس الزراعة وعماد الصناعات القائمة عليها مثل التبغ والسكر).

باختصار كانت العبودية هي المولد الأكبر للثروة الزراعية والصناعية والتجارية في أمريكا.

ويجب عزيزتي ألا تعمينا تحيزاتنا عن الحقيقة. فأمريكا وسط ذلك، تملك 50% من الإنتاج الثقافي العالمي. سينما، رواية، كتب، مجلات، جرائد، أبحاث. و40% من إجمالي جوائز نوبل، نصفهم لم يولدوا في أمريكا. وأفضل جامعات العالم، هارفارد، ستانفورد، ييل، روكفيلر. وأفضل مستشفيات مثل كليفلاند، ماي كلينك، جونز هوبكينز.

منذ أيام شهد أحد المباني التابع للبحرية الأمريكية بواشنطن (نافي يارد) هجوما أدى إلى قتل 12 شخصا. الجاني هو أرون أليكسيس، أمريكي مولود في نيويورك، يعمل فني إليكترونيات وخدم أربع سنوات كجندي احتياطي في الجيش الأمريكي.

بوذي الديانة، وكثير الزيارة للمعابد البوذية.

لكن في الأخبار لن تلحظي ديانته عزيزتي، لن يركز عليها الإعلام ولن تصير مهمة. لا تنسي أن الصين هي أكبر دائن للولايات المتحدة. تخيلي لو كان الرجل مسلما. هل كان الأمر سيختلف في نشرات الأخبار الأمريكية؟ لست مولعا بنظرية المؤامرة لكن بعض الحقائق أقوى من الإنكار. أمريكا تريد عدوا يبرر لها أمام دافعي الضرائب تلك المبالغ الباهظة التي تنفقها على السلاح وعلى الغزو الخارجي، وعلى أسطولين يجوبان البحر والمحيط، وعلى 2000 قاعدة عسكرية خارج حدودها.

زمان كان هتلر هو هذا الغول، ثم صار السوفييت. والآن هو الإرهاب. وبين قوسين كبيرين تجدين تعريف المصطلح يشير فقط إلى الإسلام. وينسون أنهم يقتلون بالسلاح الأمريكي في بلادهم 35 ضعفا لتنظيم القاعدة.

لا شك أننا نشارك بالغباء والجهل والتخلف. ذهب حكيم إلى رحلة طويلة، وبعد أن عاد حكى لقومه ما وجده في التجربة، قال: (لقد قابلت الأعداء. إنهم نحن).

لكن دعيني أسرد عليك عينة من القتل الإرهابي داخل أمريكا:
- في ديسمبر 2012 تم قتل 27 طفلا بمدينة نيو تاون الأمريكية. داخل مدرسة ابتدائية. على يد شاب يدعى آدم لانزا.
- وفي أبريل 2009 قتل 13 شخصا في نيويورك عندما قام جيفرلي وونج بإطلاق النار على مجمع لخدمات الهجرة.
- وفي أريل 2007 سقط 32 قتيلا في جامعة فرجينيا بعد قيام سيونج هوي تشو – 23 سنة – بإطلاق النار على زملائه.
كل هؤلاء ليسو عربا أو مسلمين. هؤلاء أمريكيون يحملون سلاحا أمريكيا يعيشون في أمريكا، ويقتلون الأمريكان. لكن صدقيني لن تدرج هذه الأرقام ولا هؤلاء الأشخاص كإرهابيين وفق التصنيفات الدولية، أو ضمن إحصاءات الإرهاب العالمي. لأنه لو حدث ستختل النتائج النهائية ولا تصير في كفتهم.
أعتذر لو أكثرت عليك بالأرقام والتواريخ ودفق المعلومات. لكنها ذكرى. لأن النسيان هو الموت أو طريق له. ولأن الأمم تحيا لتتذكر، أو هي تتذكر لتحيا. فيجب ألا ننسى. تحياتي يا أميرة.

-9-
حُـــــري ـــــة

أ-

في مارس 1857م، أصدرت المحكمة العليا الأمريكية في قضية (دريد سكوت)، قرارها الذي تلاه رئيس المحكمة روجر بى تاني، أن السود لن يتم اعتبارهم مواطنين، وليست لديهم أي حقوق من الدستور.

ب-

يقول الله في الآية 32 من سورة النور:
(وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ، إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ).
يقول الله، أنكحوا الصالحين من عبيدكم وإمائكم. اختلفت التفاسير في هذه الآية ولكن كما جاء في تفسير البغوي أن الأمر في الآية يحض على الزواج من العبيد والإماء. وعدم الاكتفاء بالأحرار وحدهم. لو كنت رجلا راغبا في الزواج فلا بأس أن تتزوج من أمتك. جاريتك. وبذلك قد ارتقيت بحياتها درجة كبيرة. بعد أن كانت أمة، صارت زوجة مكافئة لك. بينكما مودة ورحمة وسكن. وإذا مت ترث في أموالك. وإذا طلقتها لها متاع ونفقة. وإذا أنجبت ولدا تعتق به، فتصير حرة.
والأمر موجه للنساء كما للرجال. وهنا قال الكثير من العلماء إن المرأة الحرة الراشدة لها حق تزويج نفسها دون إذن أحد. الله في الآية ساوى بين الرجل والمرأة. ولم يشترط الولاية. وبهذا قالت السيدة عائشة وعمر بن عبد العزيز وسفيان الثوري. ولم يأخذ أبو حنيفة بحديث (أيما امرأة نكحت نفسها بغير إذن وليها فنكاحها باطل) مسند أحمد. لأن من روته هي السيدة عائشة. وهي التي قامت بخلاف ما روت، إذ سمحت بزواج بنت أخيها عبد الرحمن حال سفره دون إذن منه. فأخذ الأحناف بعملها وتركوا قولها، رغم ثبوت صحة الحديث!
الزواج، هو أول الطريق للتقارب بين البشر، وأهم وسيلة لصهر الأجناس والطبقات لإقرار المساواة والتعايش. الله يحث، ويأمر أمرا رقيقا، ويفضل أن يتزوج السادة والعبيد. وتلك قفزة إصلاحية تؤدي إلى تذويب الحواجز الاجتماعية والنفسية بين البشر.
العبودية كوضع اجتماعي ظل قائما حتى مطلع القرن العشرين. ولم تحررهم القوانين ولا النظم السياسية ولا المصلحين. بل حررتهم – بالأساس- الآلآت الحديثة والثورة الصناعية. حيث استغنى عنهم أصحاب الأعمال واستبدلوا بهم التروس والماكينات وقوة البخار. فصار بقاؤهم عبئا كبيرا على أصحاب العمل لما ينفقه العبيد من طعام وسكن وعلاج، فاستجابوا لدعوات التحرير. وإن ظل وضعهم الإنساني وضيع وسيئ إلى وقت قريب.

ج-

خاض أعضاء حزب العمال البريطاني، وهم رجال أحرار شرفاء، كفاحا دام قرنا كاملا للدخول إلى مجلس اللوردات. وكان اللوردات غاضبون، إذ كيف يجلس عامل إلى جوار لورد!
وكان نبي الله يفتح أبواب بيته ومسجده لفقراء المسلمين، يجلسون جنبا إلى جنب مع سادات مكة وأثرياء العرب.

د-

بعد أن شجع الإسلام على التقارب النفسي والاجتماعي بين الطبقات عبر منظومة الزواج لتذويب الحواجز التقليدية بين السادة والعبيد، فتح بابا ثانيا للحرية.

1 - المكاتبة:
(وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ) 33- سورة النور.
المكاتبة، تعاقد أو اتفاق يقضي بدفع العبد مبلغ من المال لسيده، يحصل مقابله على حريته. فيعمل ويدخر جزءا من الأجر يؤدي إلى حريته في نهاية المدة. وتلك الطريقة جعلت للعبد ذمة مالية مستقلة يتملك فيها نتاج عمله. أيضا شخصية قانونية (أهلية) لإبرام التصرفات والتعاقدات الملزمة لأطرافها والتي تحميها الشريعة.
وبعد أن ألزمت الآية المسلمين باحترام رغبة ملك اليمين –الرجال والنساء- في الحصول على حريتهم عبر المكاتبة، انتقل إلى نقطة ثانية وهي إكرام هؤلاء الأرقاء بالمال والنفقة وعدم التضييق عليهم أو ظلمهم أو هضمهم حقهم استغلالا لظروف ضعفهم – كما نفعل كلنا – حتى لا يتمكنوا من جمع مبلغ مالي مناسب للحرية.
إذن، قد انتقل الله بالعبودية من علاقة قهر إنساني إلى صيغة تعاقد بين طرفين على عمل محدد ولقاء أجر عادل. وقرر للأرقاء الحق في تقرير المصير وفسخ هذا العقد بعد الوفاء بشروطه.
وهو هنا يحمي المجتمع من المغامرة بالتحرير المفاجئ دون تهيئة نفسية واجتماعية لهذا التحرير. فهؤلاء العبيد بلا مصدر للرزق، ولا يملكون سكنا خاصا. وبعضهم غرباء. فلو أعطاهم الله الحرية المباشرة، وتخلى عنهم أصحابهم، فهم بذلك يفقدون مصدر العمل ومكان الإقامة، وسينطلقون في الشوارع ليمثلوا أكبر مصدر للخطر والقلاقل واحتمال الانخراط في الجريمة.
ولكن مهد الله المجتمع لقبول ذلك، بجعلها علاقة تعاقدية عادلة، ومن حق الخادم أو العبد أن يعمل ويدخر ليواجه يوم تحرره هذا. فيكون إنسانا مسؤولا عن قراره وعمله. ثم يلزم الله صاحب العمل أن يقبل هذا الطلب ولا يتعنت أمامه.
2 - فك رقبة:
تحرير الرقاب كفارات لكثير من الذنوب. مثل القتل الخطأ وحنث اليمين والظهار:
(وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ) سورة النساء.
(لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الإيمان، فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ) سورة المائدة.
وهذه الآية لم تحدد دينٍ من تقوم بتحريره، فيجوز أن يكون من غير المسلمين.
(وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا) سورة المجادلة.
3 - الحرية جزء من مصارف الزكاة التي هي الشعيرة العبادية الثانية الموازية للصلاة.
(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ) سورة التوبة.
4 - تحرير رقبة أفضل الأعمال الصالحة التي تجعلك تقتحم عقبة النفس البشرية وما فيها من أنانية وقسوة وظلم.
(فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ) سورة البلد.
هـ-
حياة الرسول.
كان هناك ثمانية أولاد لرجل اسمه مقرن. مات ولم يترك لهم سوى جارية تخدمهم. فلطمها أحدهم على وجهها. فغضب الرسول لذلك. وأمرهم بتحريرها (لمجرد صفعة على الوجه تنال بها حريتها)

لكنهم تحججوا أنهم فقراء لا يملكون شيئا. فأبقاها الرسول مع اشتراط حريتها في أول فرصة.
مرة ثانية، عبد الله بن رواحة الصحابي، كان لديه جارية تتعهد غنمه. وفي يوم غفلت عنها فأكل الذئب إحداها. فجاء عبد الله فلطمها على وجهها. وعلم الرسول، فغضب لذلك غضبا شديدا واحمر وجهه. وهاب الناس أن يكلموه. وقال له (وما عسى الفتاة أن تفعل بالذئب. لطمت وجه مؤمنة!) وفي نهاية الحديث أمره الرسول أن يحررها.
تخيل الرسول، القائد السياسي والحاكم الفعلي للمدينة والنبي الذي يقوم برسالات ربه، يهتم ويغضب لشأن (فتاة) صفعها أحدهم على وجهها.
وفي مرة جاء رجل للرسول عليه الصلاة والسلام يقول، يا رسول الله لي مملوكان، يكذبان ويخونان ويعصيان أمري، فأضربهما، فكيف أنا منهما؟ فقال الرسول، بحسبك ما خاناك. لو كان عقابك لهما بمثل ما خاناك فلا لك ولا عليك. وإن كان فوق ذنوبهما أقتص لهما منك.
فبكى الرجل، فقرأ الرسول (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا، وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا، وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ) 47 – الأنبياء.
فحررهما.
الرسول (صلى الله عليه وسلم) يقر القصاص والعقوبة في جانب السيد المالك لو تجاوز في حق عبيده، ويجعل البشر جميعا سواء أمام القانون.
وهنا نضع شرطا جديدا للعقد، إما المعاملة الإنسانية الكريمة وإما الحرية الكاملة. وأي إهانة يتعرض لها العامل حتى لو لطمة على وجهه، ينفسخ العقد من تلقاء نفسه.
لذلك كان الصحابي أبو ذر يمشي مع فتاه (عبده) يرتدي ذات الحُلّة - ذات الملابس- فيسأله الناس عن تشابه الملابس بينه وبين عبده، فيقول سمعت رسول الله يقول: (من كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس. ولا تكلفوهم ما يغلبهم. فإن كلفتموهم فأعينوهم) متفقٌ عليه.
في البداية نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم عبر عن الخدم أو العبيد بلفظ الإخوة. ثم يقر لهم الحق في الحياة بشكل مساو للسيد في الملبس والمأكل وطبيعة العمل. ولو عدنا لنقارن ذلك بحياتنا المعاصرة لوجدنا أن كثير من أحرار العالم لا يحصلون على حقوقهم من أسيادهم الرأسماليين بتلك الدرجة.
كان حلم مارتن لوثر كينج. القس الأمريكي الأسود. أن يجلس أولاد العبيد وأولاد أسيادهم معا على مائدة الأخوة. وكان حلما بعيد المنال حتى عام 1963 في الولايات المتحدة الأمريكية راعية الحقوق والحريات في العالم.
على نقيض ذلك تطور وضع المماليك في المنطقة العربية، وهم عبيد مجلوبون من مناطق وسط آسيا، حتى وصلوا إلى سدة الحكم وداموا بها قرابة 400 سنة. وكان بعض الآباء يرسلون أبناءهم كموالي متطوعين يخدمون في مصر والشام، يقينا منهم أنهم يوما قد يصبحون أمراء.
والقصة الشهيرة، أن اثنين من هؤلاء المتطوعين كانا يتحدثان فيسأل أحدهما الآخر ماذا تريد أن تكون؟ فيقول أريد أن أصبح حاكما لمصر. والثاني قال حاكما لدمشق. ومرا براعي غنم فسألوه. قال أريد الستر. ومرت الأيام وتحقق لكل واحد أمنيته. فقالوا أفلح الراعي!
وشهدت مصر شموخا معماريا كبيرا في عصر المماليك، لعل أشهرها مسجد السلطان حسن ومسجد الظاهر بيبرس.
ملك اليمين.
مِلك اليمين كانت طريقة عملية لحل الكثير من المشكلات. أهمها البغاء وأعمال الدعارة. فهذه الفتيات

كن بلا عائل، وبلا أسرة، وبلا مصدر رزق ثابت، أو بيت يحميهن، فكن ينتقلن لأقدم مهنة في التاريخ، وهي الدعارة، من أجل توفير لقمة العيش. فارتقى بهن الإسلام وحرم عليهن البغاء من أجل علاقة علنية مع سيدها لها فيها حق السكن والنفقة والحماية. ولو أنجبت طفلا يعترف به. كما أن لها حق الكسب عبر ذمة مالية مستقلة ثم التعاقد على الحرية.

إذن من فتاة ضائعة، لا تملك لقمتها أو شرفها، إلى ملك يمين في بيت رجل ينفق عليها ويعترف بها المجتمع. كمرحلة وسطى. ثم التشجيع على الزواج بهن، والعدل معهن. وفي الأخير المكاتبة على الحرية. وهذا الحل وقتها كان مثاليا لمواجهة هذه المشكلة المعقدة، وحمى الشارع الإسلامي من انتشار البغاء والمشردين. على عكس ما شاع في عصر النهضة الأوروبية كما حكى (ويل ديورانت) في قصة الحضارة عن زمن فولتير. إذ كان أصحاب الأعمال لا يعطون للعاملات مقابلا كافيا للعمل. ثم يسمحون لهن بممارسة البغاء ليلا لاستكمال الأجر!

ولا يزال عاملات البورنو وراقصات التعري (الاستربتيز) وبائعات الهوى، ونجمات العروض الجنسية، ضمن عصب الاقتصاد الأوروبي. فبيوت الدعارة في باريس تسدد ضرائب تفوق ما تدفعه شركة رينو لصناعة السيارات!

وشهدت طبقة ملك اليمين -الإماء- في عواصم الإسلام في بغداد ودمشق وغرناطة عصرا مزدهرا من التكريم والإنفاق والبذخ. حتى إن 19 خليفة من خلفاء الدولة العباسية كانوا أبناء إماء. ما جعل الكثير من فتيات أوروبا يحلمن بالهجرة إلى بلاد الإسلام حيث المشاركة الإنسانية والاجتماعية الفاعلة، بديلا عن مواخير البغاء المعلنة، أو العلاقات السرية التي لا تحفظ لهن حقا ولا كرامة.

وكانت جواري المسلمين، كما ذكر ابن خلدون، أول من قمن بحرفة الغناء وعملن على تطوير الفن واللحن والكلمة. وكن يتعلمن فنون اللغة وقواعد التجويد وتلاوة القرآن ويحفظن الشعر، ويجلسن في بلاط الخليفة مع كبار الزوار وأعضاء الوفود. وكان من باب الوجاهة لأي خليفة أن يكون له جوار بهذه الدرجة من الثقافة والرقي والأناقة!

وعندما غزا الجيش المصري في عهد إبراهيم باشا، اليونان، اتخذ بعض الجواري. إحداهن نالت معاملة كريمة وتعلمت القراءة والكتابة وآداب الإسلام. ثم تزوجت رجلا ذا منصب جيد في الدولة من أصول كردية/تركية، فأنجبت ولدا، صار هذا الولد أبًا للشاعر العظيم أحمد شوقي!

-10-
الإسلام لا يذهب لندن

هل نزل الإسلام للبشر أم جاء البشر من أجل الإسلام؟ هل نكيف حياتنا مع الدين أم أن الدين هو الذي يكيف أحكامه لتتوافق مع حياتنا؟ قد تكون الإجابة مختلطة في أذهان الكثيرين.

ما من عبادة في الإسلام إلا ووضعت لها استثناءات تراعى ظروف الإنسان. فالصلاة يجوز قصرها وجمعها، واقفا أو جالسا أو حتى نائما، بوضوء أو تيمم، إلى القبلة أو أي مكان فثم وجه الله. وصوم رمضان يجوز أن نستبدل به عدة من أيام أخر أو إطعام مسكين، والحج مقصور على الاستطاعة ولمرة واحدة في العمر، والزكاة لا تكون إلا ببلوغ النصاب وعن ظهر غنى.

وفي تفاصيل العبادة تجد الإسلام يحرص كل الحرص على عدم إرهاق الإنسان بزيادة التكاليف. فيجوز المسح على الجورب دون خلعه ويجوز المسح من فوق العمامة، هذا في الوضوء. حينما ذهبت المرأة تستعلم عن الاغتسال، من حيض أو جنابة، أجاز لها أن تحثو على ضفائرها ثلاث حثوات دون أن تفك شعرها وذلك تيسيرا لها. وقال النبي جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا فتصلي في البيت أو الحقل أو المصنع أو المسجد.

وجعل الذنوب المرتبطة بين العبد وربه قابلة للتوبة، وجعل لذلك طرقا كثيرة منها الاستغفار أو الإكثار من الحسنات اللاتي يذهبن السيئات. بينما الذنوب التي ترتبط بحقوق العباد فلا شيء يغفرها إلا أن تؤديها أو يعفو صاحبها. وفي ذلك احترام للإنسان وإيضاح أنها هي الذنوب التي تهدد مصير المسلم.

والمفلس في الإسلام، كما أخبر النبي، هو شخص أتى بصلاة وصوم وحج ولكنه ضرب وشتم واعتدى على الناس. وتلك نقطة مهمة يجب الالتفات لها؛ أن الذنوب المرتكبة في حقوق الناس أكبر بكثير من الذنوب التي تكون في حق الله فقط. الأمر صار معكوسا في أذهاننا فتهاونا في حقوق الناس وركزنا على حق الله من عبادات وشعائر، رغم أن العبادات بدون أثر مباشر في السلوك والاخلاق والضمير لا فائدة منها.

وفي الإسلام كل أنواع الطعام مباحة إلا أشياء قليلة جدا. وكل أنواع الأعمال والمهن مباحة إلا أشياء قليلة تكاد تكون نادرة. الله وضع أحكاما عامة تضمن انضباط حياة البشر بعيدا عن الظلم والأذى والسرف. وما دون ذلك من تفاصيل فتركها للإنسان يحكم فيها بناء على واقعه وحياته ورؤيته.

بعد عودة النبي من حجة الوداع، وهو حديث متفقٌ عليه، التقى أم سنان الأنصارية فسألها لماذا لم تحجي معنا، وكان زوجها وابنها مع النبي في الحج، فقالت يا رسول الله منعني أن أحج أن زوجي خرج بأحد الناضحين – وهو الجمل المخصص لحمل الماء – والثاني يسقي لنا أرضنا.

هذا الحديث يحمل معان مهمة يجب تفصيلها:

1- تلمس النبي لأحوال النساء وحرصه أن ينلن حقوقهن كاملة مثل الرجال. فهو قد رأى زوجها يحج وهي لم تحج فتساءل عن ذلك.

2- ما منع الزوجة عن الحج أنهما لا يملكان سوى جملين. أحدهما خرج زوجها عليه والثاني يستخدم لسقاية الأرض، وهنا نجد أن تفاصيل الحياة المعيشية مقدمة على بعض العبادات. فلا يجوز أن تكون العبادة بناء على عناء أو مشقة أو أن تؤدي إلى خلل في حياة الإنسان.

روى الإمام أحمد، وبن حبان وأبو داوود، عن أبي سعيد الخدري أن امرأة جاءت تشكو زوجها للنبي، وكان زوجها صفوان بن المعطل جالسا في مجلس الرسول. قالت: إن زوجي يضربني إذا صليت ويفطرني إذا صمت وينام عن صلاة الفجر. فقال له النبي ماذا تقول في ذلك يا صفوان؟ فرد صفوان،

أما عن الصلاة فإنها تصلي بسورتين، أي أنها تطيل القراءة. وأما أني أفطرها إذا صامت فإنها تنطلق فتصوم وأنا رجل شاب لا أصبر. وأما عن نومي عن صلاة الفجر، فيا رسول الله إنا أهل بيت عُلِم عنا ذلك، فلا نقوم إلا بعد طلوع الشمس.

فقال النبي أما عن الصلاة فسورة واحدة تكفي. وأما عن الصوم فلا تحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا أن تستأذنه. وعن صلاة الفجر فقال النبي: إذا استيقظتِ فصلي.

يجب الوقوف هنا كثيرا. هناك خصومة بين رجل وزوجته حول أمور عبادية. صوم وصلاة. وتعارضت العبادة مع الحياة فجعلت فيها مشقة. فجعل النبي الأولوية للحياة، وقال للمرأة أن تخفف من صلاتها حتى تحسن الاهتمام بشؤون بيتها، كما أوصاها أن يكون الصوم بشكل اتفاقي بينها وبين زوجها. ثم رخّص لهم في صلاة الفجر بعد الاستيقاظ في الصباح. وفي إحدى الروايات أن هذا الرجل كان يعمل بالسقاية ليلا فينام حتى وقت متأخر. فكان تأخيره لصلاة الفجر ناجم عن طبيعة عمله. فجعل النبي الصلاة موافقة لظروف العمل.

كان معاذ بن جبل، كما جاء عند البخاري، يصلي بقومه بالسور الطوال، فخرج أحد المصلين في أثناء الصلاة وترك المسجد. فقالوا عنه: قد نافق. فذهب الرجل إلى النبي وشكى له ما حدث، فاستدعى النبي معاذ وعنفه على إطالته وقال: (من أَمَّ الناس فليخفف).

وفي رواية أخرى لذات الحديث، سارع النبي وعقد موعظة استثنائية، وصاح في الناس، إن منكم منفرين. يقصد أن من أهل الإسلام ومن أهل القرآن ومن رواد مساجد الله من ينفرون الناس عن دين الله.

لاحظ أن رجلا ترك المسجد والصلاة لأن الإمام يطيل، فلم يلمه النبي بل لام الإمام. كان من الممكن أن يحث النبي الرجل على الصبر على صلاة الجماعة. خاصة وأنها المكان الوحيد الذي يسمعون فيه القرآن الكريم، قبل وجوده مسجلا ومكتوبا ومطبوعا في كل مكان، مثل عصرنا الحالي.

للأسف صارت الشعائر والمظاهر في تزايد بينما حقوق الناس ضائعة والوطن غير آمن وغير نظيف ومتخلف وفقير ومريض وعشنا أزمنة طويلة في الاستبداد والفساد والقهر، ولم نر أن للدين دورا في حياتنا سوى في أزياء النساء وعمرة رمضان. أي سخف هذا؟

عندما غادرت بعثة مصر لأولمبياد لندن عام 2012، رخص لهم المفتي في الفطر نظرا لظروف السفر وظروف البطولة التي لا تتكرر إلا كل أربع سنوات. وقال لهم إن الفطر أو الصوم متوقف على قرار المدرب بالمشاورة مع طبيب البعثة.

قرار جيد من المفتي، وكنا نرجو أن تكون بعثة مصر هناك مشرفة لنا كوطن له تاريخ ضائع يبحث عن استعادته. ولكن ها هو هشام مصباح صاحب برونزية بكين 2008 يسقط في الدور ال-32. وبعثة الجودو كاملة والتي كنا نأمل بها تخرج في بدايات المنافسة. الوطن العربي على مدار تاريخه حقق 80 ميدالية أولمبية. بينما الصين وحدها حققت في بطولة واحدة 100 ميدالية. كرم جابر حصد ذهبية نادرة لمصر في أثينا 2004 بينما هزم هزيمة نكراء في بكين 2008، فالأبطال عندنا يكونون كذلك لمرة واحدة، ثم يفقدون صلاحيته، فنحن لا نمتلك مهارة الحفاظ على البطل على المدى الطويل.

لم نعد نستطيع تحقيق أي إنجازات في أي شيء. ويجب أن نتنبه لذلك وندع كل الخلافات الفروعية التافهة حول الدين والسياسة، وندرك أننا أمة في خطر.

انتظرنا آية مدني بطلة الخماسي عساها أن تحقق ميدالية. ولكن آية وزميلاتها أثرن مشكلة كبرى فور ذهابهن للبطولة، تتمثل في رغبة اللاعبات في التمسك بالحجاب في أثناء اللعب بينما قواعد البطولة تشترط أن يكون رأس الفتاة مكشوفا، حفاظا على سلامتها، حتى لو أصيبت يمكن إنقاذها سريعا.

وجود فتيات في المنتخب شرط رئيسي لمشاركة أي دولة في الأولمبياد، حيث يجب أن يكون اسم الفتاة على رأس قائمة بعثة الدولة المشاركة.

في البداية عالج بعض الفقهاء مثل الإمام النووي، قضية ستر العورة في الإسلام، على أنه شأن من شؤون العادات وليس أمرا تعبديا. وأن الله أمر المرأة أن ترتدي ثوبا محتشما وذلك للحفاظ عليها، ولأن فطرة الرجل تجعله يتوجه ببصره نحو جسد المرأة. والثوب اللائق أو المحتشم يختلف من بلد إلى أخرى ومن ثقافة إلى أخرى، وغاية الإسلام هو انضباط المجتمع، وأي صورة تضمن ذلك فهي مشروعة.

لذلك تجد أن القواعد من النساء لسن مطالبات بما تطالب به المرأة الشابة، بل لهن الحق في التخفف قليلا. والقواعد هن النساء الكبيرات في السن اللاتي لا يرجون نكاحا. والمعنى أن المرأة الكبيرة لا تحمل غواية ولا فتنة ولا إغراء فلم يعد التشدد معها ذا جدوى. وهنا نفهم أن الثوب ليس مقصودا في ذاته ولكن لما يؤدي إليه من مصلحة عامة.

أيضا لو طالعت الفتيات اللاتي يمارسن الرياضة في بطولة الأولمبياد، ستجد أن أجسادهن تخلو من أي أنوثة فجة، ووجوههن جادة وجامدة، ومن يتابعهن يركز على اللعبة وليس اللاعبات. لذلك يكون الحجاب أو غطاء الرأس قد فقد معناه، ويجوز للفتاة أن تتركه في أثناء اللعب، ما دامت ارتضت أن تدخل المنافسة.

لو عدنا إلى حفل افتتاح الأولمبياد، نجد أنه تم إسناده إلى المخرج الشهير داني بويل، مخرج فيلم سلامدوج مليونير، وهذا الحفل شاهده مليار متفرج حول العالم. لقد جعلته بريطانيا إعلانا كبيرا ينقل ثقافتها للعالم، فحرصت على إظهار تسامحها مع الاختلاف والتعددية، واهتمامها بالإنسان العادي، وبالأطفال، وبالمعاقين. فرأينا بريطانيا – كما تصف أهداف سويف في مقالها بالشروق– (بحقولها وطقوسها واحتفالاتها المحلية الصغيرة، تصاحبها كلمات شكسبير، ثم رأينا بريطانيا الثورة الصناعية بمناجمها ومداخن مصانعها، تصاحبها كلمات وليم بليك، ثم امتلأت الساحة بشخصيات شهيرة، محبوبة أو مرهوبة، من قصص الأطفال، فظهر بيتر بان، الولد الذى رفض أن يشب، وفولديمورت، شرير روايات هارى بوتر، وميرى بوبنز، المربية البريطانية المثلى، وملكة القلوب من رواية أليس فى بلاد العجائب، وغيرها، وكلها شخصيات ساهمت فى تشكيل خيال العديد من أطفال العالم).

ما أريد أن أقوله إن الإسلام وجد مخارج كثيرة في العبادات الرئيسية كي يخدم حياة الإنسان وينفي عنها المشقة والعسر والمعاناة، ما دام لن يحدث من ورائها مفسدة. وبعثة مصر في الأولمبياد تمثل وجه مصر الحضاري والثقافي والإسلامي، ولديها تحديات كثيرة جدا أكبر من مجرد حجاب اللاعبات. لو لم نتخل عن تلك القضايا الفرعية فلن نفلح في الدين ولا الدنيا، وسنقضي حياتنا في جدل عقيم حول قضايا هامشية لا طائل من ورائها. نعم يا سيدي تستطيع الفتاة أن تحافظ على الاحتشام في الزي والسلوك والحديث، حتى ولو من دون غطاء الرأس.

ولو انتقلنا إلى مساحة أخرى في توزيع الأدوار في هذا العالم، سنجد أن دور العالم الغربي يتمثل في أنه يطور العلوم ويقدم الاختراعات. ودورنا نحن في أن نتفرغ لبحث هل هذه الاختراعات حلال أم حرام!

عندنا هوس غريب بالإفتاء، رغم أن الله قال في سورة النحل (وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ). فمن يجلس طيلة اليوم والليلة يفتي الناس ويصدر أحكاما بالتحليل والتحريم على كل شيء، إنما هو كذاب. يكذب على رب العباد.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم، يقول: (ذروني وما تركتكم فإنه أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم)

(مسلم/ كتاب الحج). كأنه يقول، عندما أتناسى شيئا فلا أذكره، اتركوه ولا تسألوني عنه.
بل جعل الله سورة البقرة تحت هذا العنوان ليكون لنا فيها عبرة وعظة. قال لهم اذبحوا بقرة فسألوه أغبى سؤال: ما لونها؟
توقفوا عن الأسئلة واعبدوا الله بقلوبكم وأعمالكم، فكثرة السؤال سبيل الهلاك، وهي من سنن بني إسرائيل التي حذرنا منها الإسلام، ولكننا نفعلها بجدارة.
وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وسلم: (الحلال ما أحل الله في كتابه والحرام ما حرمه الله في كتابه وبينهما عفو. فاقبلوا من الله عافيته) (صححه الذهبي).
القرآن الكريم يشرح الله مبادئ الرسالة الكبرى (وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كانت عليهم). الله يتحدث عن عموم الطيبات وعموم الخبائث ولا يخوض في الفرعيات ويتركك تتعرف علىهم وحدك دون مرشد أو رجل دين أو كاهن أو وسيط.
وسبب الرسالة أن يضع عنهم إصرهم، وهو أي ثقل يعيقهم ويزعجهم. والأغلال التي كانت عليهم. وذلك ليحررهم من كل القيود التي تستعبدهم. فالرسالة تخفيف وتحرير.
وكان بن عمر لا يحرم شيئا إلا بدليل قطعي غير قابل للنقاش. ويضيق في الحرام أشد تضييق. ودليله أن الله قال (وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ). أي أن المحرمات مفصلة تحديدا على سبيل الحصر ولا يجوز التوسع فيها.
ولذلك كان شعار الإسلام أنه دين تخفيف ورحمة.
قال الله (يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ، وَخُلِقَ الْإِنسان ضَعِيفًا). الله يقر ضعفنا، ويعتبرها حقيقة ثابتة وقديمة منذ بداية الخلق، ولذلك جاءت التشريعات مخففة لتلائم هذا الضعف، وأي تشديد على الإنسان يصبح منافيا لطبيعة الخلق وأصول الشريع.
قال الله عن آدم أبي البشر (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) 115 – طه.
فمنذ جاء آدم وإحدى الحقائق التي لازمته، أنه كثير النسيان، قليل العزيمة، سريع الخطأ.
وكان كبار الصحابة يخشون سؤال الرسول، لأنه كان يغضب من الأسئلة الفقهية ذات الطابع المركب والمعقد والتي تخوض في التفاصيل، فهو يريده دينا تلقائيا بسيطا سمحا قريبا للنفوس، بعيدا عن السطوة الدينية وكثرة الفتوى ووضع الناس في حرج ومشقة. ويترك كل إنسان يتلمس الخير بقلبه وضميره وما ترتاح له نفسه.
وكان يرسل معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري للناس فيوصيهم بثلاث: بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا وتوافقا ولا تختلفا.
وصيته ثلاث كلمات. التبشير والتيسير والبحث عن الاتفاق.
وكان يقول: إن الله جميل يحب الجمال (صحيح مسلم). فمعيار حب الله، واكتمال الدين، ومقياس الصواب، أن تكون جميلا.
وذات مرة دخل رجل إلى مسجد الرسول، ووقف في جانب منه ثم تبول فيه. وهمّ الصحابة أن يمنعوه عن هذا الفعل الهمجي القميئ. فمنعهم الرسول وقال جملته: (إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين).
يا رسول الله، نيسر على من يتبول داخل مسجدك. فكيف نفعل بباقي البشر.
وفي مرة جمع الرسول بين صلاة الظهر والعصر داخل المدينة دون سفر أو مرض. ومرة ثانية جمع بين المغرب والعشاء في وقت واحد دون سبب. فالرسول قام باستثناء للجمع بين الصلوات دون ظروف داعية لذلك. وقال الرسول عن ذلك (لكي لا تقع أمتي في حرج).
كأنه يضع قاعدة أن الاستثناءات في الدين واردة على كل شيء، حتى الصلاة، وحتى من دون تصريح

مسبق أو ظرف محدد منصوص عليه. حتى ندفع الحرج والمشقة والتعب عن الإنسان، ويكون ذلك من حقنا كلما تطورت الحياة وكلما وجدنا أسبابا دافعة لذلك.

يقول الله (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) 20-21 – الذاريات.

الموقنون بالله يبحثون عن آيات يقينهم هنا في الأرض، وداخل أنفسهم وأجسادهم، بالقراءة والتأمل واحترام العلم وعمارة الكون، والتنقل فيه للمزيد من الفهم والبصيرة.

يذكر أن الطبيب كلوت بك، مؤسس علم التشريح هنا في مصر داخل مدرسة قصر العيني، تعرض لهجوم شديد لأنه يقوم بتشريح جسد إنسان ميت. وكان اعتقاد البعض وقتها أن هذا حرام. فتصدى لذلك الشيخ الجليل حسن العطار. وصال وجال بخطبة عصماء تبيح الأمر ما دام يؤدي لاكتشاف جسد الإنسان والبحث عن سبب المرض والشفاء. إن رعاية الحي أولى من الميت.

الدين يراعي الإنسان. فهلا فهمنا ذلك!

الفصل الثالث

-1-
في حضن امرأة

كان الرسول- عليه الصلاة والسلام- يقول (أنا ابن العواتك من سليم). عواتك جمع عاتكة وهو اسم جدته. والاسم متكرر في عائلته، فنسب الرسول نفسه إلى امرأة، واحتفى باسمها ولم يجد في ذلك حرجا ولا نقصا لرجولته. وعندما وقف أمامه أحد الرجال مرتعدا، من هيبته ومكانته، ربت على كتفه وقال: هون عليك لست بملك، ولكني ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد.

مرة ثانية يُطمئِن الناس بذكره لأمه أو بذكر النساء عموما. ويتواضع مع البشر بحديثه عن انتمائه لامرأة.

وأول ما نزل الوحي فرّ مهرولا إلى خديجة يحتمي بها. وصدقته وآمنت به واحتوته في حضنها، وحملت قضيته، وذهبت به إلى ورقة بن نوفل، الراهب، تعرض عليه الأمر. ثم ظلت سندا له طوال عشر سنين حتى انتقلت إلى جوار ربها.

النبوات الكبرى كلها نبتت في ظل امرأة. بدعمها وصلابتها وصدق عاطفتها وتضحيتها.

موسى النبي، وهو في المهد، أخته هي التي مشت وراءه تحرسه وتقتفي أثره. ودخلت إلى بيت فرعون وغامرت بحياتها، واستجمعت شتات قوتها المتناثرة، وتحدثت معهم، وابتكرت حيلة حتى يعود إلى أمه. ومن تبنته داخل القصر وصنعت منه رجلا كانت امرأة فرعون.

ولما فرّ هاربا بعد أن ارتكب جريمة قتل خطأ، والتقى بالفتاتين وسقا لهما، ثم عادتا إلى أبيهما واحدة منهن هي التي عرضت على أبيها أن يضم موسى إلى الأسرة. وتزوجت به ورافقته حتى التقى ربه عند الوادي المقدس.

وعيسى منسوب إلى أمه. عيسى ابن مريم. رغم أن القرآن كثيرا ما يذكر اسم النبي فقط ولا ينسبه إلى أحد. فلا يهتم بذكر أبيه. مثل موسى وإبراهيم ومحمد ويوسف ونوح وهود... إلخ. فكان من الممكن أن يقول عيسى فقط. ولكن تمجيدا لها نسب لها واحدا من أعظم الأنبياء. فهي التي حملت عيسى صبيا وتحملت الألم ونظرات الناس وسياط ألسنتهم واتهامهم لها بالزنا.

ونبي الله إسماعيل من حملته في حضنها وغامرت بحياتها في الصحراء، كانت أمه هاجر (المصرية)، وظلت تطوف بين الجبال حتى ترى قطرة ماء بعد أن أيقنت بالهلاك. إلى أن أنجدها ربها. ونحن في الإسلام نتعبد إلى الله في شعيرة الحج ونطوف الأشواط تخليدا لذكرى امرأة مصرية!

وكلها قصص صمود وصبر وتضحية وعاطفة صادقة. هكذا كانت حياة الأنبياء. ولم تكن يوما شيئا يسيرا سهلا بلا معنى. فالصمود هو الذي يعطي للحياة معنى.

وفي العصر الأول للإسلام بعد وفاة الرسول، قام المسلمون بجمع أوراق القرآن في كتاب واحد؛ ليكون أول مصحف في الإسلام، ولم يتوافر منه إلا نسخة واحدة، واختار المسلمون السيدة حفصة ابنة عمر ليحفظوه عندها. رغم وجود رجال أشداء وصحابة كبار. ورغم أن المهمة جليلة تحتاج إلى يقظة وقوة وأمانة.

وفي بيعة العقبة جعل النبي المرأة ممثلة عن نفسها ونائبة عن إرادتها، ولم يعط السلطة لزوجها أو أبيها، رغم أن هذا الحق النيابي لم تأخذه المرأة الحديثة في بريطانيا إلا بعد الحرب العالمية الأولى عام 1922، وفي فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية عام 1945.

وفي الحروب كان النبي يغزو بالنساء ويعطيهن مثل نصيب الرجال. وفي الميراث توجد حالات تتساوى فيها المرأة مع الرجل. وحالات تزيد فيها على الرجل. وحالات تحجب المرأة الرجل. وفي كل

لو زاد الرجل على المرأة فكان ذلك لأنه مسؤول عن التزامات مادية أكبر. فالإسلام لا يعطي حقا إلا وفي قبالته مسؤولية. والمرأة راعية في بيت زوجها، فهي لديها سلطة ومسؤولية، وليست مجرد أداة للمتعة أو القمع.

وأعطاها الرسول حق التصدق على زوجها لو كان فقيرا. وجعله من طيبات أعمالها. ولا يجوز للرجل أن يعتدي على مالها إلا بإذنها ورضاها وطيب خاطرها، وإلا كان (بهتانا وإثما مبينا).

وشهادة المرأة كانت تعدل نصف شهادة الرجل في الأمور المالية تحديدا، وذلك لعدم اعتيادها مجال التجارة والحسابات الرقمية والدقة العددية، وكان الهدف هنا بالأساس هو حفظ المعاملات وإثبات الحقوق. وإقحام المرأة في الحياة العامة، وفي مجال الشهادات والبيوع، لتدريبها، بدلا من أن كانت بلا ذمة خاصة لمئات السنين في العالم الغربي. فلو تغير الأمر وصارت المرأة عليمة بهذه الأمور تغير الحكم. لأن الحكم يدور مع علته وجودا وعدما.

وأذن الرسول لإحدى النساء أن تؤم -تصلي إماما- أهل بيتها حتى لو كان فيهم أبناؤها الذكور والموالي. ومنها أخذ الإمام الطبري جواز إمامة المرأة للرجل ما لم يحدث ضرر وما دامت عليمة بالقرآن.

ولدينا في الإسلام من نسب إلى أمه واشتهر بذلك. مثل أحمد ابن تيمية. وتيمية هو اسم جدته لأنها من ربته صغيرا حتى اشتهر بها. كذلك محمد بن الحنفية. وهو ابن سيدنا علي، وأخو الحسن والحسين ولكن من أم ثانية غير السيدة فاطمة. فنسب إلى عائلة أمه تمييزا عن أبناء فاطمة.

وعندما تحدث الله عن علاقة الزواج قال (خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ) 21 – الروم. أي أنها جزء منك، مساوية لك في المكانة والوجود. وهي كلمة تمنح العاطفة، فأنت تحافظ عليها كما تحافظ على نفسك، وترعاها بما ترعى به نفسك، وتطلعها على كل أسرارك بلا خوف أو خجل. وهذا هو أصل العلاقة.

والتوراة، في سفر التكوين، قالت مثل ذلك، إن الرجل يترك أمه وأباه وأخته وأخاه ويذهب ليبحث عن جزء تائه منه. يكمل بها وجوده. وإن آدم في الجنة لم يأنس للشجر والمتاع وحفيف الملائكة وشعر بالوحشة، فلم يهدأ إلا بعد أن أتت المرأة. فأنسته وحدته وأحزانه وصار مكتملا بها.

-2-
أم هانئ تحمي الرجال

تسمعين عزيزتي عن امرأة اسمها أم هانئ. قريبة الرسول. بنت عمه. ظلت مشركة حتى فتح مكة. زوجها اسمه هبيرة، كان يكره الرسول ويحاربه هو وأولاده، وهرب يوم الفتح، وأراد علي بن أبي طالب قتله هو وأولاده. ذهبت أم هانئ للرسول تقول: يريد ابن أمي- تقصد عليا- أن يقتل بن هبيرة، وإني قد أجرته. قال رسول الله،: (قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ) البخاري.

أم هانئ تتصدى لحماية رجل، والرسول يقبل، رغم سابق العداوة. والجوار كان وسيلة يحتمي بها الضعفاء برجال أقوياء. هذه المرة كان الجوار في جانب امرأة تفاوض الرسول، أعلى قامة سياسية في البلاد، وتحصل على حقوق سياسية واجتماعية تعطيها الهيبة.

وعندما ذهبت أم هانئ للرسول تطلب منه الحماية لزوجها كان يستحم، وكانت فاطمة ابنته تستره! الرسول لا يثق إلا في فاطمة تستره وهو يغتسل. رغم أنه من السهل استدعاء الكثير من الرجال لهذا الغرض. في بيئة بدائية لا تعرف خصوصية الحمامات المغلقة أو الجدران العالية.

الجملة رائعة، فاطمة تستر أباها، وقت أن كانت شابة في الخامسة والعشرين، وأبوها شيخ في الستين.

هنا لن أناقش هل صوت المرأة عورة أم لا؟ هل تجلس في البيت أم تُمارس عملا؟ هل لها حقوق مالية وإنسانية أم لا؟ أنا أتحدث عن قمة الحقوق السياسية والاجتماعية التي جعلت أم هانئ امرأة ذات نفوذ يشبه المناصب القيادية في الدولة.

في النرويج، وحتى مطلع القرن السابق عام 1901، لم يكن من حق المرأة أن تقترض من البنك دون إذن زوجها. لأنه ليس لها ذمة مالية أو شخصية معتبرة بمعزل عن الرجل. عبر عن ذلك هنريك ابسن في رواية بيت الدمية (1879) عن كفاح الزوجة نورا في أن تحصل على حقوقها داخل منزلها الذي تحولت فيه إلى دمية. كانت نورا تريد إنقاذ زوجها المعسر، وتكالبت عليهما الديون، واضطرت إلى الاقتراض سرا، وعاشت في رعب أن يعرف ذلك.

لا أحب تقديس التاريخ، فتاريخنا، كتاريخ البشرية، مليء بالتشوهات والخطايا والألم. كما أني لا أرفضه بالجملة بدعوى الحضارة والمعاصرة. وما جعلنا منسحقين هو إما نظره سلفية تعيدنا للوراء، وإما نظرة ناقمة مهووسة بالرجل الأبيض تفصلنا عن جذورنا. أنا فقط أتذكر امرأة في حياة الرسول كانت تتصدى لحماية الرجال، بينما ابنته تستره حال غسله.

يقول الله في الآية الرابعة من سورة النساء: (وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا).

المرأة لها نصيب من مال الرجل حال الزواج، ولا يجوز للرجل أن تمتد يده على هذا المال، تحت أي ظرف، إلا أن تطيب نفسها نفسها به، فيكون الأخذ عن تراض وحب وقبول، ولا يجوز غصبا أو كرها.

هل هناك أرقُ أو أعظم من (طيب نفس) والزوج لا يملك سلطة أن ينتزع شيئا رغما عنها؟ فذمتها وإرادتها محفوظة خالية من الإكراه إلا أن تطيب.

وفي آية ثانية عند الانفصال (وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا، أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا) 20 – النساء.

فلو أنك قد أعطيت زوجتك قنطارا (مالا كثيرا) وأردت الانفصال للزواج بثانية، فلا تأخذ منه شيئا. رغم أنك بالأساس مالك الذي أعطيته لها. ولو سلبتها شيئا غصبا فهو بهتان وظلم وإثم مبين كما تذكرنا

الآية. ولا تنس أن الظلم قرين الكفر في كتاب الله.
من أجل ذلك، يقول الله (وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا) 21 – النساء.
رغم أنكما وصلتما لأعلى درجات الخلاف، وهو الانفصال، وأنت قد اتخذت قرارا بالرحيل، واختيار زوجة ثانية، بديلا عنها، لكن الله لا يريد هذه اللحظات أن تمتلئ بالكراهية والضغائن وتبادل الأذى. يذكركما الله بأعلى قيم الوفاء والعرفان وحفظ جميل الذكريات الطيبة بينكما. قد أفضى بعضكم إلى بعض. تذكر/ تذكري، تلك اللحظات التي جمعتكما منفردين تتخففان من أعباء الحياة وأسرار العمر، وانكشفتما تماما أمام بعضكما. لا تنسيا هذه المشاعر، حتى لو انفصلتما فصالا أبديا.
كان بينكما ميثاق غليظ من الله. فلنبق على شيء من الاحترام والنبل للميثاق الذي كان.

-3-
زوجته لا ترد أيديهم

جاء رجل للرسول يقول، يا رسول الله إن امرأتي لا ترد يد لامس.
قال الرسول: طلقها.
قال الرجل: إني أحبها.
فقال صلى الله عليه وسلم، أمسكها.
انتهى.
(رواه أبو داوود والنسائي وصححه الحافظ بن حجر).
لا ترد يد لامس، أي امرأة متساهلة في التعامل مع الرجال، لا يصل إلى حد الرذيلة، ولكنها لا تتمسك بالاحتشام الكامل. الإمام شمس الدين الذهبي في (مختصر السنن الكبرى) ذهب لما هو أشد. قال إنها تتلذذ بمن يلمسها!
الأهم من ذلك هو كيفية تعامل الرسول مع الأمر. لم يقل له اضربها أو أدبها. ولم يستدعها للنصيحة. بل قال دعها لحالها وطلقها. قال الرجل إني أحبها، فلم يشأ النبي التدخل في حياته الخاصة، وأعطاه الحرية الكاملة لتحمل نتيجة اختياراته. إذن أبقها.
في كلمات قليلة، سريعة، ينهي الرسول الموقف، بلا مزايدات دينية، أو اتهامات للرجل في مروءته. لم يقل له أنت ديوث لا تغار على عرضك. بل تفهم الرسول تناقضات البشر، ما بين غيرته وغضبه كرجل، ومشاعره التي تشده إلى الضعف والاستسلام وفقدان الحيلة، ثم لا يفرض عليه شيئا في حياته الخاصة، وهو رسول الله.
هذا حدث في مجتمع الصحابة، مجتمع بشري بكل ما فيه من ضعف وغواية وزلل، وما فيه من فضيلة وعظمة ورقي. القرآن يؤكد على الفضيلة في أعلى صورها، بحفظ النفس والجوارح وصيانة الفضيلة ولو من نظرة عابرة. وحث النساء على الاحتشام الكامل ولو في نبرة الصوت. لكن تظل هذه الوصايا قيما أخلاقية عليا يسعى لها الإنسان، فينجح مرة ويخفق مرات، والله وحده الذي يراقبه، ويعاقبه، أو يرحمه. ولا دخل لنا، مهما بلغت مكانتنا الدينية، أن نتدخل في حياة أحد، أو نجبره على شيء، ما دام لم يخرج الأمر إلى المجال العام.
قال الله لنبيه الكريم (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ - لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ) 21-22 – الغاشية.
سيسألني أحدهم هل تريد من زوجتك أن تفعل ذلك؟
الإجابة لا بكل تأكيد، ولو أني ضبطتها على هذه الحالة لربما مارست الكثير من العنف وانفلات الأعصاب والانتقام لكرامتي، كأي شرقي ذكوري، متناسيا جميع قيم الحضارة.
لكني أعرض عليك حياة الرسول والمدينة الفاضلة لدينا كمسلمين. وهنا نستطيع تجاوز الأخطاء العادية لبعض الممثلات طالما كانت تقدم عملا جيدا. الرسول يتغاضى عن تصرفات زوجة، فما بالك بممثلة! أريدك أن تعلو فوق الصغائر. نعم تلك صغائر لن تفيد ولن تضر. هناك ما هو أكبر في الدين والدنيا وحياة الناس ومستقبل البشرية.
سمعت من ذي قبل عن شيء اسمه الملاعنة؟
وهو أن يضبط الرجل زوجته متلبسة بالزنا في بيته، كزوجة خائنة.
ماذا يفعل طبقا لكتاب الله، حتى يكون متوافقا مع أحكام الشريعة؟
يذهب ويأتي بأربعة شهود عدول، يرون الواقعة مكتملة الأركان، فلا تجوز شهادته منفردا. هذا أولا.

ونظرا لصعوبة الأمر أو ربما استحالته عمليا، فليس أمامه إلا ملاعنتها أمام القاضي.
والملاعنة تتم بأن يقف الزوجان أمام القضاء، ويبدأ الزوج المتهم زوجته بالزنا بأن يشهد - يقسم - أربع شهادات بالله إنه صادق، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان كاذبا. ليس له الحق في الاعتداء عليها أو قتلها، رغم أن مشاعر الرجل في أعلى لحظات الاستفزاز والإهانة.
ولو لم يفعل يتم جلده ثمانين جلدة لاتهامه بقذف زوجته.
ولها الحق، الزوجة المتهمة، أن تدرأ التهمة عن نفسها بأن ترد شهادته بشهادة مثيلة، فتقسم بالله أربع مرات إنه من الكاذبين. والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين.
سيقول البعض ماذا لو كان أحدهما كاذبا. زوج أو زوجة. إذن لا حل هنا في الدنيا إلا أن يفرق القاضي بينهما. فتستحيل الحياة بعد هذا الاتهام، ثم يفصل الله بينهما يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون. هكذا بكل هدوء وتحضر ونبذ للعنف.
(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (6) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (7) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (8) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ) سورة النور.
أول شخص ذهب للرسول –اسمه عويمر– وسأله بشأن الرجل يجد مع زوجته رجلا غريبا، فعاب الرسول هذا السؤال، وكرهه، وأعرض عن السائل ولم يجب إلى أن نزل القرآن. وفي ذلك دليل على أن الرسول كان لا يحب الخوض في حياة الناس الخاصة، ولا يميل إلى كثرة السؤال والفتوى، ويجعل كل شخص يستفتي قلبه حتى في ظل وجود الوحي.
أما نحن فقد احترفنا الخوض في الأعراض واشتهاء الفضائح، وملاحقة الناس في حياتهم الخاصة كشرطة على الضمائر والقلوب، ولم يأت الإسلام بذلك.
ورغم الخطورة فإن رسول الله لا يحب الحديث فيه. فما بالك بما هو أقل في حياتنا العادية (دعاء لبس الشبشب ودعاء ركوب الأسانسير وهل يجوز أكل لحم الديناصور؟ طبعا لو عرفت تصطاده كله. ومعاشرة الجني المسلم... إلخ).
لا يدرك البعض أن القرآن الكريم أكثر رقيا ونضجا وترشيدا لغضب الرجل من القانون الجنائي العادي. في القانون من يقتل قتلا عمديا فهو يعاقب عقوبة جنائية، وهي السجن أو الإعدام. لكن من يقتل زوجته هي ومن يزني بها حال تلبسهما بالزنا فالعقوبة مخففة، تصير جنحة. بعني حبس من 24 ساعة لـ3 سنين. (المادة 237 عقوبات).
غالبا سيحكم عليه بسنة أو سنتين حبسا مع إيقاف التنفيذ. القانون الحالي في مصر يشرعن لقتل الزوجة الخائنة. بينما شريعة الله لا تعطي للزوج الحق سوى أن يشهد ضدها وهي تشهد ضده، ثم يفترقان في سلام.
سعد بن عبادة زعيم الأنصار، سمع كلام الرسول حول الملاعنة، فقال يا رسول الله أرى رجلا بين فخذي امرأتي وأذهب لآتي بشهود! والله ما له عندي إلا حد السيف. فقال الرسول إن سيدكم لغيور، وأنا أغير منه، والله أغير مني.
لم يقل له الرسول أنت ترفض حكم الله يا سعد، أو إنك تخالف القرآن، إنما يعلق على غضبه وغيرته. ويقدر مشاعر الإنسان وإن تعارضت قليلا مع الوحي السماوي. لو ناقش أحدنا الآن شيخا لربما اتهمه بالكفر، فما بالك بمن يناقش النبي ويتبرم من بعض أحكامه!
وهنا نستطيع فهم فلسفة التشريع وكيف تعامل معها الرسول. فهي مُثل عليا نحاول السعي نحوها، الارتقاء لها، تزكية النفس من الذاتية والانتقام، خطوة خطوة. وليس ضروريا أن تنجح بـ100%.

بالهداوة على الناس.
فاطمة بنت قيس، صحابية شهيرة، طلقها زوجها طلاقا بائنا، وتريد قضاء العدة خارج بيت زوجها. ذهبت للرسول تقول له دبر لي مكانا، فأوصاها في البداية أن تذهب لبيت أم شريك. صحابية. لكنه عدل عن القرار وقال، تلك امرأة يغشاها أصحابي (!) ثم قال اذهبي لبيت عبد الله ابن أم مكتوم، فإنه رجل ضرير وتستطيعين أن تضعي ثيابك عنده) (رواه مسلم /كتاب الطلاق).
الرسول يقول عن أم شريك -اسمها غزيلة- ان بيتها يغشاه أصحابه. فالرجال كانوا يجتمعون في بيت غزيلة. كملتقى عام يتحدثون في شؤون الحياة. منتدى، صالون... إلخ. وهذه امرأة، وهؤلاء رجال غرباء، فأين الحديث عن حرمة الاختلاط، أو الخلوة بأجنبية، وكل ظنون السوء التي قد تداعب خيالات البعض!
القادم أشد.
ثم يقول النبي لها: اذهبي لبيت بن أم مكتوم أقيمي عنده. لأنه رجل ضرير فمن السهل أن تتخفف من ثيابها في بيته دون حرج. ابن أم مكتوم وفاطمة غرباء في بيت من أربع جدران وسقف، وتعيش حياة كاملة عنده لأيام. هو لا يراها، لكنه يشعر بها وهي تمر، وربما يتحدثان، ولديه تصورات. وهي تراه، فإنها مبصرة، فما العمل!
القضية أنهم لم يكونوا مهوسيين، سريعي الشك والريبة، ومتعجلين النتائج السيئة. ولم يكن خيالهم مليء بالانحراف وسوء النية والشذوذ. كانوا يقدرون على الحفاظ على الفضيلة وشرف الكلمة حتى وقت الاختلاط. لم يتصوروا الرجل ذئبا ينتظر اللحظة المواتية للانقضاض على الفريسة ينهشها. ولم يتخيلوا المرأة لعوبا تنتظر الفرصة للغواية.
وأراد الرسول أن ينشئ المسؤولية الفردية لكل واحد حتى في أدق اللحظات، وأن يدرب ضمائرهم على التزكية والخشية والانضباط وقت الاختلاء، وخلو الإرادة من أي سبيل للرقابة أو الإكراه.
نعم هناك أحاديث تكره الاختلاط، وتحذر من ثنائية الرجل والمرأة في مكان واحد. إنها فطرة إنسانية غريزية لا ننكرها، وتلك طبيعتنا التي يجري بها الدم في العروق. لكن منذ متى وكان الإنسان كائنا غريزيا بحتا. أليست رحلة الإنسان هي رحلة تهذيب وتربية لتلك الغرائز؟ أليس اختبار التقوى هو ذلك الذي يختار فيه الإنسان الصدق والفضيلة والعفاف، ولو أمن سيف القانون ونظرات البشر!
ما من مجتمع يقوم على القانون وحده. لكن يجب أن يكون هناك ميثاق أخلاقي يؤمنون به، ولو غاب القانون؟
والرسول كان إنسانا متفتحا. يراهن على الخير في قلوب الناس. يترفع عن الصغائر. يمرر بعض التجاوزات. يترك الناس في حالها. هي وضميرها والله من فوقهم يحاسبهم. ويخرج من المساحات الخاصة ولا يفرض وصايته عليها.
هكذا ينمو الضمير العام. تنتهي النميمة والهوس وتتبع عورات الناس. لنترك شأن النساء ونلتفت إلى شأن الحياة من عمل وحب وإبداع.
هل نريد أن يكون العالم مكانا أفضل؟
إذن لنسمع كلام الرسول وهو يوصي أصحابه في علاقتهم بعضهم ببعض فيأمرهم بالمعروف. ويضرب مثالا لذلك المعروف: (ولو أن تفرغ من دلوك في دلو أخيك) (رواه أحمد والترمذي).
تفرغ من دلوك في دلو لأخيك، عن رضا وكرم. تتنازل عن جزء من نصيبك. حقك وجهدك. ولا تعيش الحياة بمعادلة حسابية قاسية، للتواصي بمشاعر التعاطف والكرم والتخلي عن الأنانية وما تنشئه من صراعات تمثل ثلاثة أرباع مشكلات الحياة. تقدر؟

مرة ثانية يقول الرسول:

(ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟ قالوا بلى يا رسول الله. قال: صلاح ذات البين، وفساد ذات البين هو الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين) (صححه الترمذي وبن حبان. ورواه البخاري في الأدب المفرد).

صلاح ذات البين، أي إصلاح ما بين الناس من علاقات. البحث عن المحبة والسلام أفضل عند الله من الصوم والصلاة والصدقة. وفساد ذات البين، فساد ما بين الناس من علاقات. حالقة، تحلق الدين سيدي، حتى لو صام وصلى وزعم أنه مسلم.

فمن يفسد ما بين الناس من علاقات على خطر عظيم، يقارب الوثنية والإشراك بالله، حفظكم الله.

أسمعك تسألني صديقي عن هؤلاء الذين أدت تصرفاتهم إلى التفريق بين المسلمين وبث الكراهية وبذور الصراع والاقتتال فيما بينهم، باسم الشريعة أو الطائفية أو لمكاسب سياسية مؤقتة، ما مصيرهم؟

لن أرد. سأترك المرأة التي بدأت بها الحديث والتي لا ترد يد لامس هي من تجاوبهم.

-4-
النساء والجنة

في صحيح مسلم يتحدث الرسول (ص) للناس ويقول (أريتُ الجنةَ، فرأيتُ امرأةَ أبي طلحةَ، رميصاء، ثم سمعتُ خَشْخَشَةً أمامي، فإذا بلالٌ).

في النظرة الأولى لجنة المسلمين، والتي رآها النبي بالغيب، كان أول ساكنيها، امرأة، ورجل من ضعفاء القوم، كان عبدا في الجاهلية، ليعلمهم أن الجنة ليست حكرا للرجال، أو عضوية خاصة للنبلاء في الدنيا. وما دام هؤلاء دخلوا الجنة، التي هي أعلى مرتبة دينية، فهم في الدنيا ليسوا أقل مكانة بين الناس.

لو عدنا إلى العهد الأول للإسلام، نجد أن كتب التاريخ ذكرت لنا اسم 1000 صحابية عاشت حول الرسول، وهو رقم كبير بكل المقاييس، وينم على اختلاط وحركة وتواجد وتأثير. وكتب التراث تذكر لنا اسم كل واحدة وعائلتها وبعض المواقف الاجتماعية والأسرية عنها.

فلو التزم هذا المجتمع بالحجب الكامل للنساء أو الإهمال المطلق، أو التعامل معها على أنها عورة، لما وصلتنا ذكرى أكثر من ألف امرأة. مع العلم أن هناك عشرات الآلاف من الرجال في هذه الفترة الذين لا نعلم عنهم شيئا. فالنبي مات عن 100 ألف رجل. ولم يورد التاريخ اسم سوى عشرة آلاف.

ويروي أنس في صحيح مسلم، أن عائشة زوج النبي وأم سليم كانتا تهرولان وسط صفوف الرجال مشمرتين حتى بان خدم سوقهما، وهو موضع الخلاخل في أقدامهن. لاحظ أنها تجري وتهرول، وتتدافع بين الرجال، وتشمر عن ساقها كي تسهل عليها الحركة. ولم يتوقف أحدهم عند تلك الملحوظة التافهة، وهل ظهور جزء من قدمها عورة أم لا، طالما كانت الناس تتحرك في مهمة أكبر.

وفي غزوة أحد عندما انكشفت صفوف المسلمين وتراجع كبار الصحابة عن القتال، ولم يثبت إلا قلة قليلة تعقد دائرة مغلقة حول الرسول حتى لا يصيبه ضرر، كانت إحدى المقاتلات ضمن هذه الدائرة امرأة، نسيبة بنت كعب. وقال الرسول بعدها (ما التفت يمنة ولا يسرة إلا وجدتها تدافع من دوني).

وفي عهد الخليفة عمر عين امرأة تدعى (الشفاء) كمحتسبة تراقب الأسواق. وهي وظيفة تنفيذية كبرى لا يستهان بها.

وحديث: ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة. لا يستقيم سياقه ولا متنه ولا سنده. فالراوية أبو بكرة، مجروح لأنه جلد في حد القذف. ولم يقل الحديث إلا في مناسبة سياسية وهي موقعة الجمل حتى يصرف الناس عن عائشة. ثم الحديث قد قيل في مناسبة خاصة بالفرس، عندما مات ملكهم وكانوا في حروب متوالية تستدعي ملكا قويا، فاختلفوا فيما بينهم وانتهوا إلى أن يولوا ابنته الصغيرة التي لا تملك أي خبرة بالحكم وشؤون المملكة وقيادة الجيوش، خروجا من الأزمة. وذاك كان أسوأ قرار في تلك المرحلة التي تحتاج ملكا قويا يقود الجيوش ويحمي البلاد.

وكانت المرأة تصلي مع الرسول في ذات المسجد خلف صفوف الرجال دون وجود حجاب يفصلهما. وكان من يأتي متأخرا يرى النساء تصلي. وكان الرجال والنساء على عهد رسول الله يتوضأون في ذات المكان جميعا (رواه البخاري) فالمرأة تشمر عن ذراعها وتمسح رأسها وقدمها وسط الرجال. المعنى هنا أن الله يعامل الرجل كأنه إنسان شريف، يحوي قدرا من الفضيلة والإيمان في قلبه، ولديه مسؤولية شخصية في العفاف والوقار، ويستطيع الاندماج في العبادة والخشوع داخل المسجد وأثناء الوضوء دون الالتفات إلى امرأة تقف إلى جواره. الإسلام يراهن على الإنسان السوي في الأخير. وليس الإنسان المليء بالمخاوف والهواجس، والشكوك، والذي يفترض سهولة الافتتان والرذيلة

وسوء النية بين البشر.

ولو تتبعنا الدسائس التي جاءت عن المرأة في كتب السنة نجدها لا تستقيم مع نصوص ثابتة في القرآن والواقع العملي الذي عاشه الرسول عليه الصلاة والسلام، ونجد أنها من دسائس اليهود والفرس وأصحاب المذاهب البالية الذين اعتنقوا الإسلام في مرحلته الإمبراطورية ولم يتأدبوا بآدابه ودخلوا له محملين بتراثهم السلبي والمشوه عن المرأة.

زوج بريرة:

لدينا في التاريخ الإسلامي قصة تروى تحت هذا العنوان، زوج بريرة، فنسب الرجل إلى زوجته وليس العكس. وبريرة كانت امرأة في زمن الرسول تركت زوجها بلا رجعة، فكان يمشي وراءها في الشارع يبكي حتى تبتل لحيته ويرق قلب الناس له. فرآه النبي وعجب لحاله، وقرر أن يتدخل في الأمر، فذهب لبريرة زوجته وحاول أن يعيدها إلى الرجل المسكين الذين يبكيها ليل نهار، فقالت بريرة للرسول: هل تأمرني يا رسول الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام، لا، ولكني شفيع. قالت لا حاجة لي فيه.

جارية، حديثة السن، ولا يملك النبي حيالها أن يجبرها على شيء، وترد شفاعته، ولا يرق قلبها لدموع زوجها الذي يمشي وراءها في الطرقات. لم يقل لها النبي (من باتت وزوجها غاضب عليها باتت تلعنها الملائكة) أو ساق لها الوعد والوعيد ونار الجحيم لأنها أطاعت مشاعرها وتركت البيت.

فتاة وأبوها:

وفي مرة حضرت فتاة إلى الرسول تشكو أباها الذي زوجها من ابن أخيه الثري ليرفع به خسيسته. فأرسل النبي وأحضر أباها وزوجها وأعطاها حق طلب الطلاق. فقالت الفتاة، قد رضيت به يا رسول الله، ولكن كي يعلم الآباء أنه ليس لهم على بناتهن من شيء.

فهذه الفتاة تلقن أباها درسا قاسيا هو وكل الرجال في مقامه. والرسول ينتصر لها ويضع كلمتها وإرادتها فوق إرادة رجلين، أب وزوج.

فرق كبير بين ما أراده الإسلام، وما أراده الفقهاء. وشتان بين ما دعاهم الإسلام له وبين ما فرضته عليهم الأعراف والتقاليد السائدة.

-5-
امتناع المرأة عن الفراش

هل المرأة التي تمتنع عن الفراش إذا أرادها زوجها آثمة في الإسلام، أو كما وردت النصوص تلعنها الملائكة ويغضب عليها الله!

لدينا أحاديث نبوية كثيرة، صحيحة وضعيفة، تتناول القضية. لكننا نعلم أن الحديث النبوي تم تدوينه بعد وفاة الرسول بأكثر من 150 سنة. ومن المستحيل أن تظل الذاكرة محتفظة به طيلة هذا الوقت، دون وقوع خطأ أو توهم أو حتى دخول الأكاذيب والضلالات فيه.

ولذلك عندما تم تدوين الحديث دخلته مرويات شعبية تأثرت بالوضع الثقافي السائد (الذكوري دائما). أضف لذلك تراث بني إسرائيل الذي يناصب المرأة العداء، ويعتبرها رأس الشيطان، وأنها السبب في كل هذه الخطايا التي نغرق فيها وأنها وحدها سبب الغواية وخروج آدم من الجنة. بينما القرآن يضع المسؤولية المشتركة على عاتق آدم وحواء (فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا) 20 – الأعراف. وسوس (لهما) وليس لها.

نرجع لموضوع العلاقة الجنسية بين المرأة والراجل والضوابط الدينية فيها. وهنا سنلجأ للقرآن.

1- في البداية تحدث القرآن عن علاقة الزواج، في نص منشئ للعقد على أنه (خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) 21 – الروم.

علاقة الزواج يجب أن تبنى على السكينة النفسية والرحمة المتبادلة ونشر الود. ولو تخلفت تلك الشروط الثلاثة (سكينة - رحمة - ود) لم يعد للعقد كله أي معنى. ولذلك فكل التصرفات الناتجة عن عقد الزواج يجب أن تخضع لتلك الشروط (طعام - سكن - علاقات مادية - جنس – أولاد... إلخ).

بعد ذلك، عبر الله عن الزواج أنه ميثاق غليظ. وهي كلمة لم يذكرها إلا مع الأحداث الكبرى والنبوات والرسالات السماوية.

2- في مسألة الأموال، منع الله أخذ أي هبة أو عطية قدمتها لزوجتك حتى لو كنتما ستنفصلان. فالله منع الاعتداء على حق الزوجة، في أشد لحظات الخلاف بينكما. وسمى الاعتداء بهتانا وإثما مبينا. أي ظلم ومعصية.

قال الله (وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا، أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا) 20 – النساء.

ولا شك، فكرامة المرأة، وسلامتها البدنية والنفسية، أعلى قدرا من اغتصاب الأموال، فمن يُحرّم الاعتداء على الأقل، بالضرورة، يحرم الاعتداء على الأعلى.

3- في مسائل صغيرة في تفاصيل الحياة، مثل فطام الرضيع، هل يظل يرضع لمدة إضافية أم يفطموه، وهذا لأن الزوج قديما كان يدفع ثمن مرضعة، جعل الله هذه المسألة خاضعة للتشاور المتبادل والتراضي بين الأب والأم:

(فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا) 233 – البقرة.

شيء بسيط مثل رضاع الطفل لا يجوز للرجل أن يستبد به. ويجب أن يخضع للرضا والمشاورة. فما بالك بالعلاقات الأكبر!

5- أما عن العلاقة الجنسية فالقرآن يتكلم عنها دائما بتغطية، وسمو، وعدم تصريح أو مكاشفة زائدة. ويدمجها ضمن علاقة إنسانية أوسع. أي أن هناك حياة مشتركة، وعلاقة إنسانية هادئة وحميمة، جعلت كلا الطرفين يأنس الآخر ويرغب فيه ويدعوه للتلامس والاقتراب. التلامس لغة مشابهة للغة

اللسان. وأجسادنا بين الحين والآخر تحتاج إلى الرفق والاحتضان وإزالة الحواجز بين يدي حبيب، تنسينا شيئا من قساوة الزمن وضغوطات الحياة.
قال الله عن ذلك (هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ) 187 – البقرة.
الملابس هي أقرب شيء للإنسان، وتكون من اختياره، غير مفروضة عليه. والملابس تحقق الحماية، والستر، والراحة. أو هكذا يفترض.
وكلا الزوجين للآخر يجب أن يكون على هذه الشاكلة، حماية وستر وراحة واختيار. ثم يأتي الجنس كأعراض جانبية. يشعر الرجل بسعادة وأمان تزيد من تدفق الدم في العروق، فيصير فتيا، وتصبح المرأة حضنا واسعا يحتوي كل ذرة فيه. تفتح قلبها ويديها وتغطي عليه بكل جزء فيها.
6- شبه الله المرأة بالحرث. وهي الأرض المثمرة، وبشريات الزرع الناشئ، الذي يطرح الحَب وينشر الخضرة ويستر صاحبه.
قال الله (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ، وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ) 223 – البقرة.
لم يقل الله نساؤكم مستودع الغريزة والشهوة واستفراغ الرغبة الجنسية، بل المرأة هي حرثك. هي النماء والزيادة والخير، وهي مستودع القيمة والأمل، وهي مخزن عملك الصالح.
ثم يقول (وقدموا لأنفسكم).
كيف نقدم لهذه العملية الجنسية؟ جعلها القرآن مفتوحة، لكنه يشير إلى عدم الانكباب المباشر.
قدموا لأنفسكم بالكلمة الطيبة والنظافة الشخصية والجو الآمن، وهكذا.
ويختم الله الآية (واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه) فتكون تقوى الله، في مفهومها الأساسي، يتمثل في معاملة الرجل للمرأة. من كان تقيا فيها، كان أقرب إلى الخشية والإيمان بالله. ومن كان ظلوما قاسيا، كان أبعد عن الله في كل شيء بعد ذلك.
فالمرأة هي مونيتور(شاشة كاشفة) لتحضر الرجل.
ولو رجعنا لرسول الله (عليه الصلاة والسلام) فكان أكثر ما يكرهه أن يجد أحد في رائحته شيئا كريها. كان النبي يحزن من نفسه لو شم منه أحد رائحة غير طيبة. فكان ينظف بدنه وأسنانه وقدميه وملابسه، ويدهن الطيب، ويتحلى بالأخلاق الطيبة، ولا يضايق أحدا حتى برائحة غير طيبة.
وحرم على نفسه أكل العسل، عندما احتالت عليه زوجته وأخبرته أن رائحة فمه كريهة. وكان ذلك لأن زوجة أخرى علمت بحب النبي للعسل فكانت تطعمه العسل وهو عندها. وكان عندما يخرج تتآمر عليه بقية النسوة وتخبره أن رائحة فمه كريهة، حتى يكره العسل، ولا يطيل الجلوس عند صاحبة العسل. لعلمهن أن النبي لا يحب أن يضايق أحدا برائحته. فحرم على نفسه ما أحل الله، ابتغاء مرضاة أزواجه.
فهل بعد هذا يغتصبهن في الفراش، أو يأمر بذلك!
ثم لو فسرنا الأحاديث الواردة تفسيرا حسن النية، فنحن نقول إنها تنصرف للمرأة التي تمتنع عن زوجها في الفراش عن عمد وسوء نية، دون أن يكون لها حق، ودون أن يكون زوجها مخطئا في شيء، كنوع من المكيدة والمكابرة، هنا طبعا تكون مخطئة وآثمة، لأنها هكذا تدفع زوجها إلى الحرام. والإسلام ينظر لجريمة الزنا أنها فاحشة ومقت وساء سبيلا. فمن باب الحفاظ على زوجها وصيانته من الحرام يجب أن ترعاه. وليس من باب الاغتصاب والإكراه والذل.

-6-
رُقية

واشتهر بين المسلمين مقولة:
(أحسن زوج رآه إنسان. رقية وزوجها عثمان)
رقية بنت الرسول. وعثمان أكثر العرب أناقة ورقيا. وكانا نموذجا للتناسق والبهجة والأمل. أشياء قليلة يا صغيرتي تلك التي تضفي الجمال على هذا الكون القاسي. أهمها زوجان جميلان متناسقان يعيشان في سعادة وسلام.
يذكرون رقية بالاسم دون حرج. وينسبون زوجها لها.
وفي يوم أرسل محمد (ص)، أسامة بن زيد بصحفة من اللحم إلى رقية في بيتها. ولما عاد سأله، هل نظرت لهما يا أسامة؟ قال نعم. قال هل رأيت زوجا أحسن منهما؟ قال لا.
إنه أب قبل أن يكون رسولا. يحب أن يتأكد أن فتاته هي الأجمل.
وتلك مشاعر إنسانية رقيقة يمر بها أي أب حتى لو كان بمرتبة رسول.
دون الانحدار إلى مستوى متدن يعتبر كل ما هو مؤنث مثيرا للغرائز والشهوة والإباحية وسببا في كل مهالك الحياة.
الكل يعرف بنت الرسول. ويتحدث عن جمالها وجمال زوجها. ويعتبروها رمزا للبهجة. إنه المجتمع الإنساني كل وقت. ورسول الله شاهد.
وقبل البعثة قبل أن تتزوج رقية بعثمان، عقد قرانها على ربيعة بن أبي لهب. ثم جاءت الرسالة على النبي محمد، وتحول أبو لهب إلى العدو الأول للرسول والرسالة هو وزوجته أم جميل، حمالة الحطب.
وميز الرسول بين الاختلاف الديني والعقيدي، وبين الاختلاط الأسري. فلم يأمر ابنته أن تفارق زوجها، ابن عدوه الأول. ولكن أبا لهب هو من أمر ابنه بتطليق رقية.
الرسول لا يريد (خراب) بيت ابنته حتى لو كان يلقى الأذى من حميه. يقبل الكافرين على أذاهم بينما هم من يرفضونه ويطلقون ابنته! يا ربي الرحيم.
ومرت الأيام وعوضها الله بعثمان. وعاشا حياة طيبة إلى أن مرضت رقية مرضا شديدا على أعتاب غزوة بدر. المسلمون عددهم قليل وكل رجل لديه مهمة كبيرة قد تحقق نصرا أو تتسبب في الهزيمة. وتجهز عثمان للانضمام إلى جيش المسلمين الذي قوامه 300 رجل فقط. ولكن الرسول رفض التحاقه بالجيش حتى يظل إلى جوار رقية في مرضها.
الرسول يحتاج كل رجل في الجيش. إنها حرب وجود. وكان يدعو الله بلوعة: إن تهزم هذه الفئة فلن تعبد في الأرض!
ولكن عندما يتصادم ما هو سماوي مع ما هو بشري غالبا تتقدم مشاعر البشر. عندما تختلط صفة الأبوة بصفة الرسالة تقدمت الأبوة.
يخسر محاربا في الجيش. من أجل بقاء المحارب إلى جوار زوجته في مرضها.
ويعود رسول الله منتصرا، ليجد رقية قد فارقت الحياة بين يدي عثمان. على وجهها ابتسامة الرضا وطمأنينة الأبدية، وفي عيني عثمان دمعة لا تجف.
هكذا كانت حياتهم.

-7-
موسى والفتاة

بطلة القصة هذه المرة فتاة رقيقة تمشي على استحياء، كما يصفها الله، تتحدث إلى رجل لا تعرفه. بالمصادفة هو موسى الذي يصير نبيا. كانت تخرج للعمل لتسقي الغنم بدلا عن أبيها، وكانت السبب المباشر في نشأة أسرة احتضنت موسى بعد أن فر هربا وخوفا من القوم الظالمين. والله من فوق السماء يحكي عنها.

يبدأ المشهد بموسى النبي عند البئر. مورد الماء الذي هو سبب الحياة. وسبب الحروب أيضا. الناس تتزاحم والأصوات تعلو والأكتاف تصطدم. يقف موسى على بعد خطوات لا أحد يعرفه. الناس منهمكون ولا يدركون أنهم يلامسون رجلا سيتحدث له الله من فوق السماء. يتجول موسى في المكان حذرا بعد أن هرب من مدينته خوفا أن يقتله الناس. يرقب الوجوه ويستمع إلى الأصوات المختلطة. يجلس على حجر ناتئ ويقلب بصره بين الأرض والسماء.

تقع عيناه على فتاتين تقفان في مكان ليس ببعيد، رقيقتان خجولتان، تملكان بعض الغنم، والحيرة قد بدت في عيونهما، وشيء من العجز الممزوج بالاستسلام يمنعهما التقدم.

يتوجه موسى نحوهما، يسألهما عن حالهما. ما خطبكما. لا يجد حرجا أن يتحدث إلى فتاة غريبة في الشارع ما دام نوى خيرا. بطلنا ليس سلبيا منكفئا على ذاته، وليس مهووسا يعتبر تاء المؤنث غواية ورذيلة يجب تجنبها. كما أنه لا يهوى المشاكسة والاستظراف. إنه إنسان جميل شهم يحمل المسؤولية، يساعد الناس، ويحافظ على النساء. هذا هو نموذج البطل (المتفتح) الذي يقدمه القرآن.

كذلك الفتاة. البطلة. استطاعت عبر ذكائها الأنثوي وفحصها السريع لأسلوب ونظرات وطريقة خطاب الرجل التمييز بين كونه شخصا جادا ومؤتمنا تبادله الرد، أو متحرشا نصابا تعرض عنه. ثم تحكي له باختصار مشكلتها. تريد السقيا، وهما ضعيفتان، وأبوهما شيخ كبير. فسقى لهما موسى.

وذهبت الفتاة لبيتها، جلست إلى جوار أبيها، ربما أعدت له طعاما أو حساء دافئا، ثم تحكي تفاصيل اليوم. تحكي عن رجل غريب عن مدينتهم، لا يخالط الناس، عفيف، تبدو عليه أمارات الحزن، وفي عينه هم كبير، وأنه ساعدهما على بئر الماء. ولا تكتفي الفتاة أن تحكي لأبيها، بل تقترح عليه أن يتعاقد معه في عمل لأنها قد تبينت فيه القوة والأمانة.

ربما أصاب قلبها شيء من حبه، أو إعجاب دفنته خلف الكلمات. ربما أرادت أن تراه مرة ثانية، ولا سبيل لذلك إلا أن يعمل لدى أبيها. وهنا تجد أن الفتاة بطلة محورية في القصة مثلها مثل موسى النبي. ولديها من الذكاء والمهارة لاستكشاف البشر ولها كلمة مسموعة في البيت.

ثم الأب الهادئ الذي يستمع لبنته. وينفذ اقتراحها. كان من الممكن أن يلطمها على وجهها وينهرها لماذا تتحدثين الى رجل غريب. ويأتي موسى ليجلس معه. ويدرك الأب حسن اختيار ابنته. فيعرض عليه الزواج بإحدى بناته. فهو أب متفتح لا يرى حرجا في أن يعرض الزواج على شاب ملائم لابنته. وربما لأنه طالع عبر كلمات ابنته شيئا من الإعجاب تجاه الشاب. ولأنه رجل سوي فهو يحاول أن يصل بابنته للرجل الذي مالت له.

ويكون الاتفاق أن يظل موسى بجوار الأب (حميه) ثماني سنين، بعد أن يتزوج الفتاة، يخدمه ويعينه في شؤون حياته. وموسى يقبل. ولا يجد حرجا أن يعيش لسنوات يخدم حماه. لتكون هذه هي أسرة نبي. مشهد رومانسي يحوي زوجته التي كانت تخرج للعمل لخدمة أبيها. والأب الذي لا يجد حرجا في البحث عن زوج لابنته، وموسى الذي يجلس إلى جوار حميه يخدمه.

ولو تأملنا المشهد قليلا نجد أن زواج موسى ليس زواجا تقليديا جامدا. بل هناك قصة غير تقليدية، القدر صنع جزءا من خيوطها والبشر التقطوا أطراف الخيط ونسجوها ببراعة. ولعبت الفتاة الذكية دورا مهما قد يتفوق على دور الأب والزوج.

وفي أثناء عرض الأب على موسى عقد العمل قال له (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ، سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) 27 - القصص. وهنا تعريف مهم للصلاح يورده الله على لسان رجل (عادي)، وليس على لسان موسى النبي، الذي يفهم صفة الصالحين ألا تشق على أحد لديك أو تكلفه فوق طاقته أو ترهقه في عمله أو تستنزف وقته وجهده من أجلك. قيمة أخرى يضعها القرآن عبر الحوار.

الجو العام للرواية. أو لهذا التصوير الفني البديع. جو صحي يبعث على السلام ويكرس للشهامة وحسن النية والتفتح، وفيه مواساة لنا جميعا، أنه لو فقدت بيتك ووطنك، وصرت طريدا لا تعرف لنفسك وجهة، فالله كفيل أن يعوضك بأرض جديدة، وأسرة تستضيفك وتعتبرك أحد أفرادها، وزوجة تؤنسك وحدتك.

ولما انتهت المدة رحل موسى وزوجته، وفي الطريق تحدث له الله في الوادي المقدس. أي أنها كانت البيئة الأولية التي مهدت لاستقبال الوحي وحديث الله.

كثيرا ما يلجأ القرآن لأسلوب القصة أو العمل الروائي ليصل لنا بفكرة ما. ويستخدم القصة لأنها أكثر إنسانية وأقرب للواقعية من أوامر ونواه جامدة مجردة من المشاعر. القصة فيها ناس وأحداث وبداية وعقدة ونهاية، وعبر. آلام ومآس، نجاحات وإخفاقات وفشل.

إنه الفن الذي يخاطب مشاعر الإنسان ويؤثر على وجدانه وبناء عقله وضميره.

وكثيرا ما يجعل الأنبياء أبطالا لهذه القصص. ويسرد واقعهم كبشر يمرون بكل الأحداث التي يمر بها الإنسان العادي.

اصنعوا الفن يا سادة فهو أحد تجليات الوحي.

-8-
يوسف وامرأة العزيز

امرأة العزيز أحبت يوسف. لاحقته في كل طريق. لم تكبت مشاعرها بل أرادت أن تحل ضفائرها وأثوابها الملكية وترشف حبه. تثمل أنفاسها ولا تتساءل عن أي شيء غير ملامسته.
أخطأت. وقال القرآن استغفري لذنبك. سريعا. كي لا تتوقف الحياة عند خطأ وحيد. ودون أن ينصب مشنقة تضمن لها الإعدام. بل تستمر معنا حتى نهاية الآيات ولا يصدر عليها القرآن حكما يصفها أنها امرأة لعوب تهوى الرذيلة.
ويضعها الله مع يوسف النبي في آية واحدة: :يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ) 29 – يوسف.
ومن طرف خفي وجد لها مبررا، حتى يخفف اللوم عنها. فحكى قصة تالية قد لا تكون ذات أثر كبير في الأحداث. أحضرت النسوة اللاتي يذكرنها بالسوء. جلسن على الطنافس وأمسكن سكاكين الفاكهة. دخل يوسف، فارتبكت النسوة ومررن شفرات السكاكين على أيديهن من جلاله وهيبته.
إذن ليست مشكلة امرأة العزيز وحدها. ليس لأنها منحرفة أو سيئة الأخلاق. لكن لأن يوسف يتجاوز القدرة على المقاومة، وباقي النساء قابلات للافتتان به. القرآن يعذر امرأة (خاطئة).
والقرآن قال لما رأينه (أكبرنه). الإكبار معناه الإحساس بالهيبة وارتفاع القدر والرقي، والاختلاف عن البقية، وليس مجرد جمالا شكليا.
ويوسف النبي لا يتقمص دور الإنسان الخارق. بل يعلن ضعفه أمام فتنة النساء وإغوائهن. ويدعو ربه (وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ) 33 - يوسف. أي أن هناك احتمالا أن يستجيب يوسف النبي (يصبو) بتعبير القرآن، لما تدعوه النساء.
لا تتربصوا للناس الأخطاء. ولا تعصفوا بحياة إنسان لمجرد الزلل.
الدين يكرس لفكرة الإنسان (العادي) حتى في صيغة النبوة. حتى الأنبياء قد يتعرضون للغواية واحتمالات الضعف والخطأ، وفي الأخير يستمدون العون والهداية من الله العزيز. وفي الأخير كانوا عظماء. فيصير نموذج العظمة (الإنساني) قابلا للتحقق من بعدهم.
وفي السجن يخاطب رفيقيه بكلمة (يا صاحبي) ويكررها. رغم أنهما لا يعبدان الله الواحد. في نظره هما كافران. لكنه يخاطبهما بعذوبة ورقة. ثم ينتظر حتى يأتي الطعام ليأكلون معا، ويتعاون معهما ويخبرهما بتأويل الرؤيا.
يوسف النبي. يأكل مع أصحابه الكافرين بالله الواحد.
فيما بعد آتاه الله العلم والحكم. وعندما عرض نفسه على الملك قال، إني حفيظ عليم. رجل مؤتمن على ثروات الوطن، ولديه العلم بالإدارة والإنتاج والاستثمار.
ليس لأنه نبي بن نبي، بل لأنه كفء.
لاحظ أن يوسف النبي هنا، لا يقوم بوظائف دينية، بل بوظيفة دنيوية تهدف في المقام الأول لإنقاذ البلد من الفقر والجوع والأزمة التي يتعرضون لها.
نبي الله وجد أن مسؤوليته ذات طبيعة اقتصادية وإدارية. فاستخدم سلطانه لتحسين ظروف الناس أكثر منه التبشير بدين آبائه.
وتعاون مع عزيز مصر، الذي كان مختلفا معه في العقيدة الدينية، من أجل إنقاذ البلاد من الخطر الذي يتهددهم. لم يصنع خصومة دينية بينما هناك جائحة تتهدد البلاد.

وفي النهاية رفع أبويه على العرش وخروا له سجدا. سجدوا لبشر. ليس سجود عبادة ولكن تقدير واحترام. لو توقفنا حرفيا عند السجود -كما يفعل إخواننا المتشددون- لاعتبرنا ذلك كفرا يستوجب الخروج من الملة.

القرآن لا يريدك تافها، سطحيا، شكلانيا تحاكم الأشياء على ظاهرها. بل هناك غاية. موضوع كبير. فلا تنسحق للصغائر.

تتحدث مع أحدهم وتقول (والنبي) فيرشقك بنظرة صارمة، ويقول، لا تحلف بغير الله، لأنه شرك. نعم يا عزيزي، الحلف بغير الله شرك لو كنت تريد تعظيم المحلوف به مثل عظمة الله. في الجاهلية كانوا يحلفون باللات والعزى ومناة ويقصدونها آلهة. الرسول كان ينبه لهذا النموذج. أم المؤمنين عائشة كانت تقول ولعمري إنه حق. تحلف بعمرها. مثلا.

هكذا نترك الموضوعات الكبرى وننجر إلى صغائر الأمور. هكذا يضيع الدين والدنيا، ونخلق نفوسا ضيقة متشنجة يسهل عليها الجنوح للتطرف وتكفير الناس والخروج على المجتمع دون سبب كاف.

ونهاية السورة يخاطب الرسول (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) 103 – يوسف. الله كتب على الأرض التنوع والاختلاف. بقاء الحق والباطل إلى قيام الساعة. لا ترهق نفسك، فهذه ليست قضيتك.

ثم يقول (وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ) 104 – يوسف. يختصر الله الرسالة النبوية في كلمة (ذكر) تذكير وإيقاظ للقلوب والعقول والضمائر. تلك هي وظيفة الرسول، وطبيعة الرسالة، وهذا هو موطنها الأول.

ويختم (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ) 111 – يوسف.

أصحاب العقول هم المخاطبون بهذا الدين. بعيدا عن التقليد والكهانة والاستعباد للخرافة والتغييب. إنه يجعل للدنيا أسبابا ثابتة، حقائق، منطقا ندركه، مقدمات ونتائج تتحقق. والإنسان هو سيد الموقف.

دين الإنسان العادي المخطئ العظيم الواعي لحركة التاريخ، والمدرك لفلسفة الحياة بعمق.

-9-

تعدد الزوجات بين الرسول وابنته

يقول لي أحدهم، أريد إحياء سنة الرسول المهجورة في شأن تعدد الزوجات. يجب أن نشجع القادرين عليها لأنها قربى لله واحتفاء بالرسول.

قلت له وأنا معك، ولكن دعنا نعرف أولا سنة الرسول حتى نحسن الالتزام بها.

الرسول تزوج وهو شاب عمره 25 سنة بأم المؤمنين خديجة بنت خويلد.

وظل وفيا لها مدة تزيد على 25 سنة. لم يتزوج امرأة ثانية، ولم يكن له جارية، أو ملك يمين، كما هو المعتاد في ذلك العصر، حتى تجاوز سن ال-50.

ثم ماتت خديجة. فظل حزينا عليها عاما.

وكانت أول امرأة يتزوجها بعد خديجة، هي سودة بنت زمعة.

السيدة سودة كانت امرأة كبيرة في السن، في الخامسة والخمسين. غير جميلة. مات عنها زوجها السكران بن عمرو. وكل أهلها وأهل زوجها يومئذ على الكفر. فتزوجها الرسول لإعالتها من ناحية، ومن أخى كان يريد امرأة كبيرة لترعى ابنته فاطمة وتعينه على شؤون البيت.

وكانت قادمة من الحبشة ضمن الذين هاجروا.

وأكبر دليل على أنه زواج لا علاقة له بالغريزة، أنها أهدت يومها إلى عائشة بعد زواجه بها. كما أن كل الروايات تجمع على فكرة أنه قد زال جمالها.

المرأة كانت تريد عائلا. والرسول كان يريد امرأة ناضجة تشاركه البيت.

تريد إحياء سنة الرسول؟

عليك أن تظل أولا وفيا لزوجتك 25 سنة. وإذا ماتت تظل حزينا عليها مخلصا لذكراها لعام.

ثم أول امرأة تتزوجها تكون فقيرة عجوزا غير جميلة. عائدة من الصومال.

ولم يعدد الرسول إلا سبع سنين فقط، من سن 53 إلى سن 60، ثم منعه الله من الزيادة ولو أعجبه حسنهن. وتلك كلمة بليغة. أنه كرجل قد يتعرض للإعجاب بامرأة، ولكنه مأمور بتجاهل احتياجاته الإنسانية وميوله الفطرية، من أجل هدف أسمى.

إذن فالأصل العام في حياة النبي الزوجية التي امتدت على مدار ربع قرن، كان مبدأ الزوجة الواحدة، خلال زهرة شبابه وعنفوان احتياجه، بينما لم يرد التعدد إلا على سبيل الاستثناء في وقت ضيق جدا لم يتجاوز سبع سنين.

بالمناسبة آيات التعدد وردت في القرآن في سورة النساء، في سياق اليتامى الذين يقوم الرجل على رعايتهم والعدل لهم في أموالهم.

(وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً) 3 - النساء.

فالله قد شرع التعدد خلال حديثه عن القسط في اليتامى.

وجاءت الآيات المصاحبة من نفس السورة تدعم ذات المعنى.

(وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ، وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ، وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ، إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا) 2- النساء.

علي إمام المتقين وفاطمة زهرة الرسول

لدينا واقعة مهمة في التاريخ الإسلامي يجب قراءتها جيدا، خاصة أنها تمس صحابيا كبيرا في مقام

علي بن أبي طالب، والسيدة فاطمة بنت الرسول.
علي بن أبي طالب أراد أن يتزوج على السيدة فاطمة، زوجة ثانية، هي بنت أبي جهل. ولما علمت فاطمة ذهبت لأبيها تشكوه، مغاضبة، بألفاظ قوية، وتقول: (يقول الناس إنك لا تغضب لبناتك) صحيح مسلم.
فغضب الرسول وخرج إلى الناس ووقف على المنبر يشهر الأمر. فوقع علي في حرج بالغ. وقال الرسول إنه لا يريد بنت عدو الله مع ابنته في بيت واحد. فهو يخشى عليها الفتنة. لو يريد علي أن يتزوج ابنة أبي جهل ليطلق فاطمة!
ولكني أعتقد أن وازع (الأبوة) تغلب على محمد صلى الله عليه وسلم، على وازع (النبوة).
بنت أبي جهل التي يريد علي الزواج منها قد اسلمت. وستكون في بيت علي إمام المتقين وفاطمة زهرة الرسول. لا خوف إذن من محاولات الغواية والفتنة في الدين. بل العكس هو ما سيحدث وهم من سيأثرون عليها.
الرسول كان يقول: « فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها» صحيح مسلم بشرح النووي. وهذا الحديث يجعلنا نفهم أن الرسول يتحرك لدفع الأذى عن ابنته، كأب.
فلو أن الأمر يتوقف على فكرة خوفه على ابنته من الفتنة، لكان أوصى عليا أن يجعل لكل واحدة سكنا مستقلا لا تختلطان فيه. ولا يقول تصريحه الصارم: لو تزوجت الثانية، طلق ابنتي.
ورغم أن المجتمع العربي لم يكن يجد حرجا في التعدد، بل كان تقليدا معتادا لديهم، فإن فاطمة غضبت لكرامتها، وهذا أمر إنساني خالص، لذلك ذهبت لأبيها تحثه على الغضب لها بغض النظر عن أي اعتبارات دينية. ففاطمة تعرف جيدا إباحة التعدد في الإسلام. لكنها لا تقبله لنفسها.
بالمناسبة، ليس من حق الرسول (تشريعيا) أن يمنع علي بن أبي طالب من الزواج بأي النساء شاء، حتى لو كانت بنت عدو الله، طالما أنها ليست مشركة، وهو الشرط الوحيد في القرآن الكريم (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) 221 – البقرة. بل إن عكرمة أخاها عندما أسلم كان من القادة العظام في جيش المسلمين. ولكن من حق الرسول (إنسانيا) أن يعترض على الإضرار بابنته.
الرسول قال لعلي، لو أردت الزواج بها فطلق فاطمة! هل من المعقول أن يخاف النبي على ابنته من بنت عدو الله ولا يخاف على علي، ربيبه وحبيبه والمبشر بالجنة؟
تلك كلمة قالها الرسول كأب. كإنسان، له مشاعر ملتهبة وينتصر لابنته.
يدعم ذلك أن عليا فهم الرسالة ولم يتزوج على فاطمة حال حياتها. لا ببنت أبي جهل ولا بغيرها من النساء. ولكنه تزوجها بعد وفاة فاطمة!
وفي الحديث الذي أورده البخاري، في ذات الواقعة، أن قال صلى الله عليه وسلم:
« وإني لست أحرم حلالا ولا أحل حراما»
وهو ما يوضح أنه صلى الله عليه وسلم يحاول الخروج من إطار التشريع الديني، ليضع رأيه الشخصي كبشر.
التعدد شيء مباح. والمباح كما يقول الفقهاء هو ما لا يثاب على فعله ولا يعاقب على تركه. وأوجده الإسلام، ليسهل على الناس مواجهة كل ظروف حياتهم المعقدة والمتطورة، ولأن الإسلام يحاول أن يوسع دائرة الحلال، حتى لا يقع الناس في المحرمات، وحتى يجدوا بدائل مرنة لكل ما يطرأ في الحياة. إذن هدف الإسلام من هذه الإباحة، ليس سببا تعبديا، بل له أسباب اجتماعية مختلفة.
أيضا قرن الله التعدد في القرآن بوجوب العدل. وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة. ثم يقول في موضع آخر: ولن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم. وهو بذلك من طرف خفي لا يحبذ التعدد، لأنه مظنة الظلم، ولن

يحقق العدل دائما. ولكن له ظروفه التي تدعو إليه.
ويحاول أن يحتج البعض بأفعال الصحابة في التعدد. وهذه ليست بحجة. لأنها كانت طبيعة العرب. وكان الرجل فيهم يتزوج عشر نساء. وجاء القرآن يقلل ويحجم العدد بدلا من أن كان مفتوحا. والرجل كائن متعدد منذ الأزل. لذلك فالأمر يخرج من الإطار الديني إلى الإطار الشخصي أو الاجتماعي أو السلوكي كما ذكرنا.
من حقك كرجل أن تعدد. ولكن أرجوك لا تفعلها باسم الدين أو تحت غطاء الفقه أو زعما بتطبيق سنن الإسلام.

الفصل الرابع

-1-
ابدأوهم بالسلام

في رواية البخاري عن عائشة. أن اليهود كانوا إذا مروا بالرسول قالوا، السام عليك يا محمد. أي السأم والموت عليك. لكن ينطقونها بسرعة مضغومة حتى لا يميزها الرسول. أدركت عائشة ذلك، فالنساء أكثر حساسية أمام المؤامرات. وغضبت لزوجها وردت عليهم بخشونة: وقالت: لعنكم الله، وغضب عليكم. بل الموت عليكم أنتم. فما لبث الرسول إذ سمعها أن نهاها عن قولها. وقال:
(يا عائشة، عليك بالرفق. إياك والعنف. إياك والفحش.)
تخيل. يهود كارهون، مستهزئون، لا يحسنون الجوار، ولا يحترمون الرسول، حتى على المستوى الإنساني، ورغم ذلك، لم يكن مبررا أن يسمح لزوجته أن ترد عليهم بمثل ما فعلوه. ثم أوصاها بالرفق والبعد عن العنف والفحش، حتى مع عدو قليل التهذب!
لو أن الرفق هو وصية الرسول في معاملة مخالف في العقيدة، قليل الأدب، فكيف تكون المعاملة لو كان مهذبا؟
(ملحوظة، الرسول ترك زوجته تدافع عنه، ولم يأنف ذلك. أيضا كيف لعائشة أن تسمع من يخاطبون الرسول. إلا لو كانت جالسه معه في مجلس عام منفتح ومختلط يراه الناس ويمرون به؟ شيء أشبه بندوة أو اجتماع أو حلقة نقاش)
على نقيض ذلك، لدينا حديث رواه الإمام مسلم عن سهيل، أنه قال: (لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام، وألجئوهم إلى أضيق الطرقات). وللحديث روايات عدة بألفاظ مختلفة. وفي رواية سفيان الثوري، لا تبدأوا اليهود.
حديث سهيل رواه الإمام مسلم في نهاية الباب. ومسلم في منهجه يروي لأهل الحفظ والإتقان في بداية الباب ثم يترك المختلف في لفظه لآخر الباب. وأول الباب أورد مسلم حديثي عائشة وأنس في رد السلام، بمعنى أنهما أعلى سندا ومتنا من حديث سهيل.
ولكن روى جهينة أن هذا الحديث له سبب خاص، عندما خانت يهود بني قريظة العهد مع الرسول وتخلوا عن الدفاع عن المدينة عند حصار الأحزاب، وتواطأوا مع مشركي مكة لصنع كماشة توشك على القضاء على الرسول وصحبه. الكفار من الخارج واليهود من الداخل. ولما انكشفت الغمامة وزال الخطر، أمهلهم الرسول يوما، وقال لصحابته، لا تبدأوهم بالسلام وألجئوهم إلى أضيق الطرقات، فإني سأسير لهم غدا.
وهنا تتضح الرواية. الرسول منعهم من مسالمتهم ومصافحتهم لأنهم نقضوا العهد وارتكبوا خيانة كبرى هددت المؤمنين. وبذلك يتم تفسير الرواية في خصوصيتها التاريخية.
يدعم ذلك أنه في الصحيح، عن عبد الله بن عمرو، أن رجلا سأل الرسول أي الإسلام خير. فقال: (أن تطعم الطعام . وأن تقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف). إذن فالسلام واجب على المسلم على كل من يلقاه، سواء عرفه أم لم يعرفه، بغض النظر عن الدين أو العرق أو اللون.
وباتفاق الفقهاء أن من أعمال البر الكبرى في الإسلام هي إطعام الطعام، دون تقيد بدين متلقي الطعام. والرسول قال إنه في كل كبد رطبة صدقة. مسلم أو كتابي أو كافر. إنسان أو حيوان. حماية النفس وإكرامها وسداد حاجتها أمر شامل في الإسلام.
وللأسف انقلبت الآية وصارت كل منظمات الإغاثة الدولية منظمات غير مستندة لأرضية إسلامية، بينما صارت أفقر شعوب العالم التي تتلقى المعونات هي الشعوب المسلمة. يا حسرة على العباد! ثم

يريدون عداء الآخر، بينما نحن من نتسول منهم الطعام والدواء والسلاح.

كان أول ما قاله الرسول عندما دخل المدينة، كما روى عبد الله بن سلام، أنه قال:

(يا أيها الناس، أفشوا السلام).

الخطاب عام مبدوء بـ« يا أيها الناس» . والمدينة كانت تحوي المسلمين واليهود والوثنيين. والرسول لم يخصص، فالسلام من الجميع للجميع، وهذا دليل على جودة إسلام المرء.

وكان الصحابي أبو أمامة، إذا مر على مسلم أو نصراني أو يهودي يبدأه بالسلام، ويقول، أوصانا رسول الله بإلقاء السلام. وهذا ما ذهب له الطبري، وما يوافق ظاهر القرآن، عندما تحدث عن العلاقة مع المشركين المكذبين (سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) 55 – القصص، وفي سورة الزخرف (وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ - فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ) 88-89 – الزخرف. أي تجاوز عن أفعالهم السيئة وقل سلام عليكم.

الآية تضع الطريقة التي يتعامل بها المؤمنون مع غير المؤمنين المعرضين، أن يكون بالصفح والقول اللين وإلقاء السلام. دون غلظة أو عداوة أو خشونة أو بذاءة.

هل منهجنا مع المخالفين يقوم على آيات القرآن (اصفح عنهم وقل سلام)!

هل نقرأ القرآن. هل آمنا به بعد!

العفو والمسالمة مع الكفار المعرضين هي وصايا الله لعباده المؤمنين. فهلا طبقناها مع المسلمين المخالفين؟

-2-
الخليفة واليهودي

ذهب رجل يهوديّ، ذات مرة، يشكو لعمر بن الخطاب من علي بن أبي طالب، وكان جالسًا إلى جواره. فقال عمر: (يا أبا الحسن قم واجلس إلى جوار خصمك)، حتى يتساويا في الجلسة أمام القاضي. ونظرًا لمكانة علي بن أبي طالب الأدبية والدينية، حاول عمر الاعتذار له لأنه أقامه من جواره وأجلسه إلى جوار خصمه اليهودي.

قال الإمام علي (بل أنا عاتب عليك لأنك ناديتني بكنيتي أبا الحسن وفيها تكريم وتعظيم، ولم تنادني باسمي مجردا، فخشيت أن يستشعر اليهودي أنك تفضلني عليه، فيقول ذهب العدل من المسلمين).

رمز الإسلام هو العدل بين الناس جميعًا دون الالتفات إلى مكانتهم أو دينهم، هكذا فَهِم عمر وعلي، رضي الله عنهما، الإسلام، لذلك كانا أحرص الناس على توقيره، ثم يخشون على سمعة الإسلام أن تهتز في عيون الغير فيبالغون في المساواة، حتى لا تصبح أفعالهم مثالا سيئا يفتن الناس في الدين.

وتكون الصورة الذهنية عن المسلم هي الرجل العادل، المتواضع، الذي يؤمن بالمساواة ويخضع للقانون. وليس الذي يرتدي زيا بعينه أو يحافظ على شكل معينا.

فما بالك بالمسلمين الآن يرتكبون كل الجرائم في حق الغير ويشوهون صورته ثم يزعمون أنهم يحبونه!

وأصبح العدل موجودا في كل بقاع الأرض إلا في أرض الإسلام. فهل نطبقه حقا؟ هل فهمناه أصلا؟

مرة ثانية، بعد أن صار الإمام علي خليفة المسلمين، سرق أحد اليهود درعه، فلم يرسل الحرس والعسس والجنود ليلاحقوه، ومعه الحق، بل يذهب للقاضي شريح مثله مثل بقية الناس يطالبه بحقه. ويستدعي القاضي كلا الطرفين ويستمع لهما بحياد.

وكان اليهودي يحتج بحيازته للدرع، كقاعدة قانونية أن الحيازة للمنقول (عكس العقار) سند الملكية، والإمام علي يقدم شهودا يقرون بامتلاكه الدرع، هما ابنه الحسن وخادمه قنبر. فيرفض القاضي شهادة الشهود لقرابتهم من علي، ويحكم لليهودي.

ويعجب اليهودي من هذا النظام المُحكم داخل الدولة. لا استثناء لأحد حتى لو كان الرئيس. لا سلطة فوق سلطة الحق والكل سواسية أمام القانون. فأدهشه ما رآه ودخل الإسلام.

تلك شريعة الله. ليست الطقوس والشكليات والهتافات الفارغة. إنما العدل والتواضع والحياد والإحسان إلى الناس جميعا.

وكان عمر يحاسب الولاة، الوزراء، كل عام، أمام الرعية ويقتص منهم لو ظلموا. وقالوا يا أمير المؤمنين تهتز صورتنا وهيبتنا أمام الناس. قال لهم قد اقتص رسول الله من نفسه، وكشف عن بطنه لأحد الأعراب، يضربه عليها، ليأخذ حقه من جسده الشريف. فالهيبة يصنعها العدل.

وكان يعد عليهم أموالهم قبل تولي المنصب وبعده. ولو زادت يقتسمها نصف للناس ونصف لأصحابها.

وفي القرآن تحدث الله إلى نبيه وأوصاه أن يحكم بين الناس بالقسط. العدل. وذلك عندما جاءه اليهود يحتكمون إليه (وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) 42 – المائدة. الرسول عليه الصلاة والسلام وصفه القرآن أنه على خلق عظيم ولن يظلم أحدا، إلا أن الله يصر على تكرار الوصية تذكيرا بها وحفظا لأهميتها. الحكم بين الناس بالعدل كقيمة كبرى دون النظر لعقائد الخصوم أو قرابتهم لنا.

وقال الرسول في الحديث الذي رواه الإمام مسلم (إن المقسطين عند الله تعالى على منابر من نور على يمينه. الذين يعدلون في حكمهم وأهلهم وما ولوا).

الذين يحكمون بالعدل فيما تولوا من شؤون عامة وخاصة، لهم مكانة استثنائية عند الله. ليست الجنة وفقط. بل يصعدون إلى هناك، إلى جوار الله، عن يمينه، فوق منابر فخيمة تضيء السماء.

ولأن الإسلام يحفظ للإنسان كرامة في ذاته، جسده وروحه وآدميته، ويحرم تحريما شديدا أي ظلم أو اعتداء يقع عليه، فقد قال الرسول، عليه الصلاة والسلام: (من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا، بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة) البيهقي.

المعاهد هو الكتابي، يهودي أو مسيحي، يقيم في بلاد المسلمين بعهد أمان وسلم، ومن يظلمه أو يسلبه حقه أو يكلفه فوق طاقته فالنبي محمد، بمقامه الكريم، هو من يقف يوم القيامة يترافع عن هذا اليهودي أو المسيحي ويقتضي حقه منك. والحق يومها ليس مالا ولا عقارا. بل حسنات وسيئات. جنة ونار.

ونظرا لخطورة الأمر، فالنبي محمد هو الذي سيخاصم أمته دفاعا عن أهل ذمتنا.

وروى البخاري عن الرسول عليه الصلاة والسلام (من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة).

والمعاهد هل كل إنسان يعيش في أرض الإسلام، من اي دين، وأي طائفة، وأي جنس، بعهد أمان إنساني معلن. ولو ترجمنا ذلك إلى المعاني الحديثة، فكل المواطنين الذين يخضون لدستور واحد في بلد بعينه، أو يقيمون فيه لزيارة أو سياحة أو تجارة، فهم مشمولون بالحماية والعصمة. ومن يمسهم بسوء فلن يشم رائحة الجنة يوم القيمة، ولو أسبغ الوضوء وأطال السجود، وتهجد بالقرآن، وأطلق لحيته حتى تلامس أطراف قدميه.

-3-
ثم مات عمر

كان عمر بن الخطاب يمشي يومًا، فرأى يهوديا فقيرا كفيف البصر. فسأل عمر عن مورد رزق هذا الرجل، فقالوا له، إنه يتسول. فغضب عمر وأمر له براتب ثابت (صدقة) من أموال المسلمين، تكفيه حاجته وتحفظ له كرامته وتعينه على فقره وعجزه.

وعندما ذهب إلى دمشق رأى جماعة من النصارى (المسيحيين) مصابين بمرض الجُذام، فأمر المسلمين أن يكفوهم قوتهم وطعامهم، ويجرون عليهم من صدقاتهم.

وعندما دخل القدس فاتحا منتصرا على الإمبراطورية الرومانية في لحظة تاريخية فارقة، لم يجلس ويأمر القساوسة والرهبان يأتون إليه. بل ذهب لهم فى كنيستهم، كنيسة القيامة، احتراما وتكريما لمقامهم. وسمع كل طلباتهم والتي كان أولها إبعاد اليهود. فاستجاب لهم. وكتب عقد أمان وفيه: « أمانا لأنفسهم وأموالهم وصلبانهم وكنائسهم، فلا تهدم ولا ينتقص منها ولا يُكرهون على شيء فى دينهم، ولا يُضار منهم أحد» .

ويذكر البعض أن عمر بن الخطاب أمر أهل الذمة في مصر بارتداء ثياب مختلفة عن ثياب المسلمين، وبغض النظر عن الجدل التاريخي حول ثبوت الواقعة من عدمه، فالأستاذ العقاد يضيف لفتة رائعة هنا، أن عدد المسلمين في هذا الوقت كان قليلا جدا، وكلهم 4000 فرد من أفراد الجيش الفاتح. بينما عموم المصريين الأقباط يزيدون على 8 ملايين. فكان من باب التنظيم والضبط أن يظل « الجنود» المسلمين بملابس مختلفة عن أهل البلد من باب الفصل الوظيفي والتنظيمي.

وكان القبط يدفعون جزية، مقابل حماية، ولا يشتركون في الحرب، ويتكفل المسلمون بحمايتهم. فمنعهم ارتداء ملابس المسلمين لأنها ملابس الجيش فلا يندس أحد العناصر العابثة وسطهم فتحدث فتنة.

وخلف هذه الصورة المشرقة قد يقول البعض إن عمر أجبر أهل الذمة على الخروج من جزيرة العرب، في ما يمثل ظلما لهم. لكنه أخرج يهود خيبر بعد أن خانوا العهد وغدروا بذمتهم مرة بعد مرة.

وأما نصارى نجران، فقد زاد عددهم إلى أربعين ألفا وشعروا بالعزة وأن المكان لم يعد يناسبهم، فطلبوا المغادرة، فوافق. وكان يكره وجودهم لأنهم خالفوا عهد رسول الله وعادوا إلى أكل الربا.

حاول أن تضع البعد التاريخي في الحسبان في أثناء حكمك على الموقف، فى عهد لم يكن ارتباط العرب الرحل بأرضهم ارتباطا وثيقا على قدر ارتباطهم بالماء والكلأ وموارد الرزق.

وكان هدف عمر حفظ حرم الإسلام فى الجزيرة وسط دوائر الفتن التي تحيط به من فارس شرقا والروم غربا وصراعات طاحنة تتطلب المزيد من الحذر وبعض الإجراءات الاستثنائية (أمريكا اتبعتها مثلا ضد المسلمين والعرب بعد أحداث 11 سبتمر). فكانوا يقيمون على أطراف الجزيرة ويتسربون لها يثيرون الفتن الداخلية ويغدرون بأهلها، مثلما فعلوا في العراق والشام.

وكما حفظ للإسلام حرما آمنا. فقد عامل النصرانية بطريقة مماثلة، عندما طالب القساوسة أن يبعد اليهود عن مدينة القدس لما يرتكبونه من شرور وأذى وفتن واضطهاد للمسيحيين. فأخرجهم من القدس.

لكنّه فى آخر حياته على فراش الموت وبعد أن نال طعنة غادرة من أحد الموالي المجوس الذين سمح لهم استثناءً بالبقاء فى المدينة، ظل مهموما بأمر أهل الكتاب فأوصى من يأتي بعده من الحكام: « أن يحفظ عهدهم، ولا يكلفهم فوق طاقتهم، وأن يقاتل من ورائهم، يحميهم» .

ثم مات عمر.

-4-
سأمشي معك

قبل مدة قصيرة، استقلت فتاة محجبة القطار داخل مدينة سيدني، بأستراليا، فنظر لها الناس بريبة، وبدأوا في مضايقتها والاعتداء اللفظي عليها بوصفها إرهابية ومجنونة وتؤمن بدين يريد قتل الناس واستعبادهم، مثل داعش.

الفتاة خلعت الحجاب عن رأسها ووضعته في حقيبتها، وأكملت الرحلة.

إحدى المسافرات من أهل البلدة على متن القطار، قامت وجلست إلى جوارها، وقالت لها ارتدي حجابك، وأنا سأمشي معك حتى البيت!

وبعد أن أوصلتها، ذهبت الفتاة الأسترالية إلى بيتها وكتبت تويتة على حسابها تقول فيها للمسلمين، أنا سأمشي معك، I'll ride with you وخلال وقت بسيط تضامن مع الفكرة ربع مليون شخص.

شكرت مريم، الفتاة المحجبة، صديقتها الأسترالية على « فيسبوك» . ومن هنا نشأت محاولة فردية لمقاومة العنصرية ضد المسلمين. والذين يشكلون 2% من إجمالي السكان البالغ عددهم 20 مليونا.

العنصرية في أستراليا موجودة إلى حد ما، وهي ليست ضد المسلمين فقط لكن ضد عرقيات وديانات أخرى. خاصة أن معظم سكان أستراليا من المهاجرين.

الذي أشعل الأمر أنه قبل أيام في أستراليا، قام أحد المخابيل بالدخول إلى مقهى واعتقل الجالسين به، لسبب مجهول لا يعرفونه، وحاوطت الشرطة المكان، فكان طلبه أنه يريد علم داعش!

وتجاه هذا التطرف الإسلامي الشائع إعلاميا وواقعيا في أوروبا، قابله صعود للأحزاب اليمينة المتطرفة على الساحة، وهي الأحزاب التي تعادي الآخر وترفض الهجرة وتطمح لتقليل المسلمين على أراضيها، والحفاظ على النقاء الديني والعرقي.

في فرنسا حصل حزب الجبهة الوطنية، اليميني المتطرف، على 26% من مقاعد البرلمان. وهي نسبة غير قليلة. وتضع رئيسة الحزب ماري لوبان هدف الوصول لمنصب الرئاسة نصب عينيها.

مع العلم أن فرنسا بها أكبر نسبة مسلمين في أوروبا بنسبة تصل إلى 10% من السكان. (نحو 6 ملايين مسلم)

متطرفو فرنسا يدعون إلى طرد المسلمين وردهم إلى بلادهم الأصلية التي أتوا منها، لأنهم سبب أحداث العنف التي تدور على أرضهم.

يذكر أن أشهر مشهد يخص المسلين في شوارع باريس هو النقاب الإسلامي الأسود. فباريس وحدها بها 2000 امرأة منتقبة!

بداية الأحداث التي نبهت الفرنسيين إلى خطورة الوجود الإسلامي، والتي مثلت صدمة لهم، كان على يد الشاب محمد مراح، في مدينة تولوز في مارس 2012. مراح فرنسي من أصول جزائرية، قام بقتل سبعة أشخاص منهم ثلاثة أطفال وحاخام وثلاثة من رجال الأمن، قبل أن تتمكن قوات الراد، القوات الخاصة الفرنسية، من قتله، في اشتباك دام 32 ساعة في منزله.

الحادث مثل صدمة للفرنسيين، وقامت على إثره موجة كراهية حادة لكل ما هو مسلم.

لم يكن ذلك هو الحادث الأخير، بل كان بداية سلسلة أحداث دامية شهدتها فرنسا وتضامن معها العالم، وكان الجاني دائما يعلن عن عقيدته الدينية الإسلامية التي دفعته لذلك. مثل حادث مقتل صحفيي شارلي إبدو. أو دهس المواطنين في مدينة نيس بشاحنة مسرعة. أو تفجيرات مطار بلجيكا.

ورغم أن أمريكا تعد صاحبة العمليات الإرهابية الأقل منذ أحداث 11 سبتمبر. فإنها لم تنج أيضا، فلقد قام اثنان من الإخوة (الإخوة تسارنالييف) بزرع متفجرات في ممر سباق الماراثون، بالأولمبياد، ما أدى إلى وفاة ثلاثة وجرح العشرات. وهو حدث كبير هز الأوساط العالمية.

استطاعت الشرطة ملاحقة الجناة وقتل أحدهم. والقبض على الآخر. والذي تبين أنهما مسلمان يقيمان في أمريكا للدراسة. الكبير هو تيمور لانك. والأصغر اسمه جوهر!

والاعتداء تم بطريقة حديثة وتركيب دوائر إلكترونية معقدة للتفجير.

وأثناء التحقيق، قال الشاب إنهما قاما بالحادث انتقاما من أمريكا نتاج الحروب التي تشنها على أفغانستان والعراق والتي يموت في معظمها أبرياء لا علاقة لهم بشيء. وأثبت الفتى أنهما لا ينتميان لأي تنظيم إرهابي. لكنهما استقيا معلوماتهما من الإنترنت.

وهذا الجيل من الإرهابيين، الذي لا ينتمي لأي تنظيم، ويستقى معلوماته من بعض المصادر المجنونة والمتطرفة على الإنترنت أو من خلال شيخ ينتمي للمدرسة السلفية، هم الذين يقودون تلك التفجيرات العشوائية. ثم وجد هؤلاء الشباب الضائعون والمفرقون ملاذا ملائما في تنظيم الدولة الإسلامية داعش.

والإحصاءات تخبرنا أنه من بين رجال داعش أكثر من 5 آلاف مقاتل من أصول أوروبية وغربية. وهو رقم مخيف خاصة لو عاد هؤلاء إلى أراضيهم أو لو كانوا وجدوا فرصة لقتال مواطنيهم.

والسمة الأساسية لهؤلاء أنهم لا يجيدون العربية ومعلوماتهم الإسلامية شبه معدومة، ولديهم تاريخ من الخلل النفسي والاضطراب الأسري والدراسي وبعضهم لديه سجلات إجرامية. ولا يحفظ سوى أربع جمل بينها نصف آية ونصف حديث يشكل بها كل عقيدته عن الإسلام والتاريخ والآخر والعالم الحديث.

(قائد فرسان الحق). هكذا يعرف نفسه، ونذر حياته لقضية بالغة الأهمية، تطهير بلده من هؤلاء الكفار الذين لا يستحقون الحياة أو الوجود على أرضه المقدسة، لأنهم مستعمرون وقتلة ويريدون القضاء على دينه المتسامح الجميل.

إنه الشاب النرويجي بيرينج بريفيك، وهو مسيحي هذه المرة. ويجد أن العدو الحقيقي لأوروبا هو الإسلام. وأن المسلمين يجب أن يرحلوا نهائيا. لا يختلف رأيه كثيرا عن رأي إخوانه المتطرفين المسلمين. وكلهم طينة واحدة.

بريفيك قام بصنع قنبلة تزن طنًا ووضعها في مبنى ضخم للحكومة النرويجية، ثم قام بفتح النار على معسكر للشباب قتل فيه أكثر من 80 شخصا.

وبعد القبض عليه قال إنه فعل ذلك حتى يجبر حكومته على اتخاذ سياسات أكثر حسما ضد المسلمين. خاصة أن حزب العمال الحاكم كان يتبنى سياسات تدعم التعددية الدينية والعرقية وتسمح بوجود الآخر المختلف معها دينيا.

وطبعا هو غير نادم على ما فعل. فهو يقوم بمهمة مقدسة أوصاه بها الرب. لحماية المسيح.

لو بدلنا الاسم، وجعلناه أحمد أو إبراهيم أو أبوصهيب، وبدلنا البلد بدلا من النرويج وجعلناها تونس أو مصر أو العراق، ووضعنا ذات الكلام الذي قاله بيرفيك على لسانه، لما لاحظنا اختلافا كبيرا. كلهم يكرهون التعددية الدينية وقيم التسامح، ويحلمون بحكومة تشبه ما لديه من كراهية وعنف، ولو صعد هؤلاء إلى سدة الحكم لذهبوا ببلادهم إلى الجحيم وذهبوا بمصير العالم إلى الفناء.

لكن ما هو مصيرنا الآن. وإلى أي اتجاه نسير؟ تطرف إسلامي يواجهه تطرف أوروبي أو أوروبي مسيحي. أم أن العالم سيبحث عن نماذج إضافية لفتاة القطار التي أطلقت حملة: سأمشي معك؟

عندما توجه القرآن بخطابه على لسان الرسول تجاه أهل الكتاب، بينما كان الإسلام في مركز القوة وكان هو الذي يحكم، قال، (وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ، اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ، لَا حُجَّةَ

بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) 42 – المائدة.

الفعل الوحيد الذي يكلفك به الإسلام، هو العدل، مع المختلفين معنا دينيا، وبالعدل تعمر الحياة، ثم هو يزيح أي تطاحن عقيدي بين الناس أو وجود أي حسم دنيوي في شأنه، فلن ينتصر فريق على فريق ولن يكون هناك حجة دامغة منا عليهم أو منهم علينا. (لا حجة بيننا وبينكم). ثم يترك الجميع إلى ربهم (يجمع بيننا وإليه المصير). وهو الإقرار الأوسع للتعددية.

وهمسة في أذنك صديقي المسلم المتطرف: لو صعدت أحزاب إسلامية تقصي الآخر وتضطهده، فلا تأمن على إخوانك في بلاد الغير أن يعاملوهم بالمثل. ولا تنس أن أكبر ثاني تجمع للمسلمين يبلغ 150 مليونا يعيشون كأقلية في محيط هندوسي كبير في الهند. ويعيش في أوروبا المسيحية 50 مليون مسلم.

ولا تنس أن أكبر دولتين مصابتين بالتهاب الكبد الوبائي سي، هما مصر أولا ثم باكستان، دولتان مسلمتان، تحلم بتطبيق الشريعة فيهما، بينما الحكومات تستورد دواء سوفالدي الذي اكتشفه عالم يهودي أمريكي. وهو الذي يضمن لأكباد المسلمين أن تستمر في جسدهم حتى يستطيعوا عبادة الله.

فأنتج العلم أولا، مصدر القوة. وتعلم التسامح والتعددية ثانيا. فهما خلاصة التجربة. وبعد طول الحرب والتطاحن والقتال ستجلس فوق الركام ولن تجني إلا الموت والخراب وانتحار الدين والإنسان. وتقول حسنا، دعونا نجرب السلام أخيرا!

-5-
هل كلهم كفار

بداية قتل الآخر أن تنعزل عنه شعوريا، وتعامله كصنف مختلف، وتفقده آدميته بادعاء أنه فاسق أو كافر أو منحل. وتنسى أن الطرف الآخر إنسان مثلك يحب ويتألم ويفعل الخير ويتعبد إلى الله ويبحث عن الحق في كل طريق، ويحترم عقيدتك. لمسة صغيرة بعد هذا الشحن ويكون المرء إرهابيا.

المسيحيون ليسوا كفارا، وليسوا فئة واحدة، هكذا قال الله في كتابه. وأن منهم أمة قائمة تعبد الله.

-1

(ليسوا سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (113) يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (114) وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (115)) آل عمران.

شروط الإيمان في هذه الآية: الإيمان بالله - الأمر بالمعروف وفعل الخير - الإيمان بالبعث.

وهي شروط متحققة في كثير منهم.

يبقى شرط أخير وهو الإيمان بمحمد (عليه الصلاة والسلام). واتفق علماء الأمة قديما على أنه من لم يصله الإسلام بشكل صحيح، أو وصله أن محمد كذاب. فهو معذور. ولو راجعنا أفعالنا نحن المسلمين، سنجد أنها تدعم الفكرة المشوهة الأساسية أننا دين قتل وتخلف واحتقار لكرامة الإنسان... إلخ.

-2

الآيات التالية يقول الله أن دخول الجنة ليس حكرا على المسلمين أو غيرهم من أهل الكتاب. وليس خاضعا لأهواء البعض. بل المعيار، من يعمل صالحا، وهو مؤمن. مؤمن بقيمة العمل الصالح، ومؤمن بأن مرده إلى الله تعالى، ومؤمن بإسناد الحياة إلى خالقها.

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً (123) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً) النساء.

الآية تؤكد أن من يعمل سوءا من أي دين يجز به. ومن يعمل صالحا وهو مؤمن -مؤمن بالله وبالعمل الصالح- فهؤلاء يدخلون الجنة. من أي دين.

النقطة الأخيرة والمهمة، في تعريف معنى الإسلام - إن الدين عند الله الإسلام - وهل هو النسخة الأخيرة من الدين السماوي والمختوم بالنبي محمد (ص). أم أن الأمر أوسع من ذلك؟

الآية التالية على الآيات السابقة من نفس السورة تجيب:

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إبراهيم خَلِيلاً) 125 – النساء.

أسلم وجهه لله. ذلك هو الإسلام. الاستسلام لله والتجاوب معه والعمل من أجله. وإسلام الوجه لله يتبعه إحسان. إحسان بالكلمة والفعل والسلوك. فالحسن نصف الإيمان. والاستسلام لله نصفه الأول. وكلها كلمات تنبذ العنف وترفض الاعتداء.

ثم أرجع الله الأمر إلى ملة سيدنا إبراهيم، وهي مرحلة سابقة على الإسلام والمسيحية واليهودية. قبل خمسة آلاف سنة مضت. الدين الأصيل. صفاء النفس بالله، والإحسان لكل ما في الحياة. وفقط.

- 3

يؤكد على هذا المعنى النبي محمد عندما قال، مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كبناء ضخم جميل، تنقصه

لبنة واحدة. وأنا هذه اللبنة. فالرسول يصرح باكتمال الدين بالانبياء السابقين. واكتمال البناء. وأن مكانه هو اللبنة -الطوبة- الأخيرة. وهذا الحديث يؤكد أن الإسلام لم يأت لتدمير الديانات السابقة أو حذفها أو مصادرة ما فيها من حق وخير.

- 4

تتبقى النقطة الأخيرة - لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وأن الله هو المسيح عيسى بن مريم- جيد. لو ناقشت 90% من المسيحيين حول العالم، ستجد فكرتهم عن التثليث مشوشة، وغير واضحة. بل هم غير مهتمين بهذا الجدل الكلامي غير المفيد. هم يعبدون الله الخالق الرازق المحيي المميت - الواحد- في السماء. ويؤمنون بالدار الآخرة وخلود العمل الصالح.

وجميع التفصيلات الأخرى لا يتحدث فيها سوى المختصين ورجال الدين (الجناة في كل دين) وذلك تماما مثل المسلم العادي الذي لا يفهم معاني مثل وحدة الوجود وعقيدة البداء والجبر والإرجاء، والأسماء والصفات والتشبيه والتنزيه.

- 5

في سورة البقرة التي هي المدخل الأساسي للقرآن، يؤكد الله هذا المعنى الواسع للدين والذي يتجاوز نسختنا الإسلامية الخاصة.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) 62 - البقرة.

الذين آمنوا - اليهود - النصارى - الصابئة - من آمن بالله واليوم الآخر - عمل صالحا - لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ولم يذكر الإيمان بسيدنا محمد، لأن الله تعالى يعرف أن مليارات البشر قد يتعذر عليهم الاتصال بالنبي بشكل سليم وصادق. ولكن هؤلاء لا يفقدون الخير كله، ما داموا عملوا صالحا، وبحثوا عن الله.

ولو قال أحدهم إن الآية تتحدث عن أقوام سابقين، وأنها لم تعد تتحدث عن أقوام لاحقين وحاليين، فهو يضيف للقرآن ما ليس منه. ويدعي على الله ما لم يقله. إنه يقول إن القرآن غير صالح لكل وقت، وأنه مجرد كتاب تاريخ.

وصياغة الآية تدل على أنها قاعدة عامة وأساسية تنتمي للمفاهيم الكبرى المؤسسة لآيات الله في الأرض.

- 6

في سورة آل عمران، لم يجعل الله أهل الكتاب فصيلا واحدا من حيث المعاملة. بل يكون محايدا تجاههم. ولا يأخذ العاطل بالباطل. ويعترف بالفضل لهم.

(وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا).

والآية ضمنيا تفترض التعامل بين الأديان جميعا. والاختلاط بين المسلمين وغيرهم بعقود تجارة وأمانة. ولكن الله ينبه المؤمنين لعدم التعميم. وعدم اعتبار أن الآخر الديني فاسد بالضرورة. بل منهم الأمناء والشرفاء ومنهم اللصوص. ككل البشر.

- 7

وختام الكلام من سورة الحج.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ).

مسلمون ونصارى ويهود ومجوس ومشركون. على سبيل المثال لأن الله لن يعدد كل العقائد. يفصل بينهم الله يوم القيامة. الفصل بين الناس والأديان والكلمة الأخيرة ليست هنا في الدنيا، وليست من اختصاصنا، ولا بناء على رغباتنا. بل يوم القيامة. عند الله، وهو الشهيد على ذلك. فمن يتدخل في الفصل بين العقائد في الدنيا إنما يتجنى على الله تعالى في ملكوته.

-6-
كنائسهم في مساجدنا

جاري الجديد، دكتور هاني، رجلٌ مهذب وقور، في بداية الأربعين. رجع من أمريكا منذ أسبوعين. تعرُّفت عليه ثاني يوم مجيئه، خاصة أنه كان يريد دهان شقته المُغلقة منذ سنين. وأخبرته عن الأماكن والعمال. واليوم قد اكتمل كل شيء عنده في الشقة فعزمني على العشاء.

صينية مكرونة بالبشاميل.

لكنه لأول مرة يكلمني وهو متوتر. يقول:

- أستاذ محمد، فيه معلومة حابب أقولها لحضرتك يمكن يكون عندك أي تحفظ.

- خير.

- أنا مسيحي.

- أيوه فين المشكلة.

- بعض أصدقائنا المصريين كانوا مش بيحبوا يختلطوا بالمسيحيين في المهجر. أو ياكلوا في بيوتهم، فمش عارف إذا كان عندك تحفظ ولا لأ.

- يبقى سهرتنا طويلة يا دكتور هاني.

وبعد العشاء جلسنا في الصالون، وامتد الحوار لأكثر من ثلاث ساعات.

يقول:

- صورة الإسلام سيئة جدا في أمريكا، يعتبرونه دينا قائما على الإرهاب والكراهية ومعاداة الحضارة ومخاصمة الدين المسيحي الذي يشكل تابعوه نحو 2 مليار إنسان في أغلبية 120 دولة.

- تعرف يا دكتور هاني إن أقدس شيء لدى أي دين هو دار عبادته، وأهم شعيرة لدى كل الأديان هي الصلاة، كأساس. هل تدري أن النبي محمد استقبل نصارى نجران، مسيحيين، داخل المسجد. مسجد الرسول! وعاملهم بحفاوة واحترام وناقشهم في كل شيء بهدوء ورقي.

كان من الممكن أن يرفض دخولهم إلى المسجد ويستقبلهم في أي مكان آخر. لكنّه لم يجد حرجا في أن يوجد مسيحي داخل مسجد الرسول.

وأثناء النقاش حانت الصلاة، صلاة المسيحيين، وكان معهم أحد القساوسة داخل مسجد الرسول، المكان الأقدس بالنسبة لنا كمسلمين، وأرادوا الخروج لإقامة صلاتهم. رفض الرسول، وعن كرم ومودة عرض عليهم الصلاة داخل مسجده.

أفسح لهم مكانا مناسبا. وتركهم يتعبدون إلى الله. كما يرونه في عقيدتهم.

وهذا كان المشهد الأول المؤسس والكاشف لطبيعة محمد رسول الإسلام. مساجد المسلمين يُصلي داخلها النصارى. برضا ومحبة واختيار. وتحت سمع وبصر وحماية نبي الله والرجال من حوله.

وكان ذلك في وقتٍ متأخر عام 10 للهجرة أي نهاية حياة الرسول وقبيل وفاته بشهور، حيث ثبات المعاملات واستقرار الأحكام.

هل نستطيع أن نعرض على المسيحيين الصلاة داخل الجامع الأزهر الشريف كطريقة لإحياء سنة الرسول في استقبال المسيحيين داخل أقدس المساجد! أم أننا أكثر حرصًا على مساجدنا من نبي الإسلام؟

ولو كان الأمر كذلك هل هناك بادرة محبة وسلام. وقبول لاختلاف العقائد. وإقرار حرية كل دين في العبادة مثل هذا!

وقبل أن يرحلوا كتب الرسول عقد صلح وأمان بينه وبينهم، عقد ثابت يحكم علاقة الإسلام بالمسيحيين عموما، يضعهم في جوار الله وذمة محمد. وهي أعلى كلمات الحماية والتقدير لدينا في الإسلام. جوار الله وعهد رسول الله.

ويقرر الحماية والرعاية لأموالهم وأنفسهم وملتهم وكل ما تحت أيديهم. وفي هذا العقد يقول الرسول: (وأن أحرس دينهم أين كانوا بما أحفظ به نفسي وخاصتي وأهل الإسلام من ملتي. فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين حتى يكونوا شركاء للمسلمين).

ومن أهم البنود في المعاهدة، ألا يذهب لأرضهم جيش. وهو التزام بالسلام الكامل بين الرسول وبينهم فلا حرب ولا تطاحن ولا قتل وقتال. أيضا ألا يعتدي أحد على أسقف في سقفاه ولا راهب في رهبانيته. ولهم ما تحت أيديهم من قليل وكثير.

(الطبقات الكبرى لابن سعد 288/1)

يقول ابن القيم: (فى القصة جوازُ دُخولِ أهلِ الكتاب مساجدَ المسلمين، وفيها تمكينُ أهلِ الكتاب من صلاتهم بحضرة المسلمين وفي مساجدهم) (زاد المعاد577/3).

بعض المسلمين يرفض حضور أعياد الميلاد أو حفلات الزواج أو حتى الاحتفال في الكنائس لأن فيها ما ينافي الإسلام ويضاد العقيدة. هكذا يبرر لنفسه التشدد والمخاصمة. في حين أن الرسول شهد في مسجده صلاة المسيحيين. فمن يتبع الإسلام ومن يحرف فيه؟

القرآن الكريم دكتور هاني، يحدد طريقة التعامل مع أهل الكتاب. اليهود والنصارى:

(وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ، وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ). 46 – العنكبوت.

الإسلام يأمرني أن أختار أفضل ما لدي من كلمات. فهل من المعقول أن يأمرني بعدها أن أخيفه أو أعتدي عليه بأدوات الحرب.

أعرف أن هناك من سيذكر آية (حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) 29 – التوبة، دون أن يُدرك أنها خاصة بالذين ظلموا. وهم أهل الحرب.

ثم، يبحث عن مساحة للاتفاق، ثابت مشترك بين الجميع، بادرة تقارب ومعايشة تجنبا للخوض في التفاصيل وإثارة الخلافات. نحن من نبادر ونقول للمسيحي واليهودي. نحن مشتركون في إله واحد. مؤمنون بما لديكم من أنبياء ورسل. مؤمنون بالثوابت الكبرى، الله، يوم البعث، الثواب والعقاب.

ومن هنا تبدأ الحياة المشتركة التي تفترض الحوار والسلام. وتنبذ العداء والصراع.

إلا الذين ظلموا. وهم لهم آيات أخرى في القرآن خاصة بهم تعاملهم بقسوة. لكن أنصاف المتعلمين - المتنطعين- يظنون أن للكل معاملة واحدة. ويحتج بآيات القتال الاستثنائية والخاصة، لتطبيقها في مواطن السلام التي تُمثل غالبية الحياة. ويريد أن يسحب الاستثناء على عموم القاعدة.

وعندما أباح الرسول الزواج من أهل الكتاب. فهو يفترض المحبة بين اثنين. مسلم ومسيحية. يفترض المودة والرحمة والسكن وهو ما ينبني عليه الزواج عندنا. وينشأ الابن المسلم لأبيه ينتمي لخال وخالة وجد وجدة مسيحيين يحبهم ويزورهم ويصلهم ويأكل عندهم ويعيش جزءًا كبيرًا من حياته هناك.

ليس من المعقول أن يبيح لي الزواج بمسيحية. ليأمرني بعدها أن أخاصم أهل زوجتي. فينشأ ابني على القطيعة والخصام. في حين أن أهم تعاليم الإسلام صلة الأرحام. الأرحام الموصى بها في هذه الحالة لمسيحيين.

يفترض أن أم ابني مسيحية. يحبها ويحترمها ويحترم دينها. وينشأ الولد، ابني المسلم، يرى في البيت الإنجيل وصورة العذراء، ويرى أمه تصلي ليسوع وتذهب للكنيسة وتصوم وتحتفل بالأعياد.

هل تظن أن بيتا واحدا أراد الله للمسلم فيه أن تشاركه امرأة مسيحية تحمل الإنجيل وتذهب للكنيسة، يبنى على الاحترام والمحبة، أم الكراهية والشقاق؟

أيضًا طعام الذين أوتوا الكتاب حلال لنا كمسلمين، بنص الآية في سورة المائدة، وهي أهم ثاني رابطة تجمع البشرية، الاشتراك في رغيف خبز واحد. لقيمات يتقاسمونها. لتنشأ روابط الصلة والمحبة ويدور الحوار الإنساني وما فيه من دعابة ودفء وتقارب.

هكذا يريد الله المسلم، محبًا ودودًا قريبًا مسالمًا لغيره من الديانات.

طبعًا إلا الذين ظلموا وهؤلاء لهم ما يستحقونه.

وجاء في العهد الذي كتبه الرسول للنصارى بخصوص هذا الشأن. (لا يكره أهل البنت على تزويج المسلمين لأن ذلك لا يكون إلا بطيبة قلوبهم. إن أحبوه ورضوا به.

وإذا صارت النصرانية عند المسلم، فعليه أن يرضى بنصرانيتها ويتبع هواها في الاقتداء برؤسائها والأخذ بمعالم دينها. ولا يمنعها ذلك، فمن خالف ذلك وأكرهها على شيء من أمر دينه فقد خالف عهد الله وعصى ميثاق الرسول وهو عند الله من الكاذبين).

فمن يتزوج مسيحية عليه أن يحترم دينها، ويترك لها حرية مطلقة في اختياراتها الدينية وطاعة رجال الدين. ولو أن المسلم ظلمها أو غصب عليها لتطيعه في شيء من أمر دينه، وهو دين الإسلام الذي في نظرنا حق، فهذا الرجل قد ارتكب أكبر الجرائم. خان عهد الله وعهد رسوله، وهو عند الله من الكاذبين.

لذلك فلكي يحبك الله يجب عليك أن تحترم المرأة المسيحية.

- هتزورني تاني.

- كل يوم لو تحب.

-7-
الدعاء للكافرين

سألني أحدهم، هل يجوز الدعاء لغير المسلم بالرحمة، خاصة لو كان شخصا نافعا للبشرية؟
وكانت إجابتي:
نبي الله إبراهيم كان يقول (ربِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) 36 – إبراهيم.
يقول، من تبعني فإنه مني، ومن عصاني، أي عصى نبي الله ولم يتبع دينه، فإنك غفور رحيم. فالنبي إبراهيم ترك احتمالية أن يغفر الله لمن خالف دينه وكفر به واتبع الأوثان، إنها احتمالية. وربما رجاء.
تكرر الأمر مع عيسى بن مريم في القرآن (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) 118 – المائدة.
وهذه الآية قالها عيسى بعد أن تحاور مع الله عمن اتخذه وأمه إلهين من دون الله. فهو يتحدث عن ناس، في رأينا، أشركت البشر في عبادتهم لله. ورغم ذلك فعيسى يفتح باب الرحمة والمغفرة واسعا، ولا يقطع بمصيرهم النهائي أنهم إلى النار. فيقول: وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم.
وعندما كذّبوا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، أوصاه الله أن يرد بقوله (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) 147 – الأنعام.
إن كذبوا النبي محمد وجحدوا رسالته، فلا يزال هناك أمل، ولن يعاجلهم بالعقاب الفوري، ويبشرهم برحمة الله، أولا، ويخبر هؤلاء المكذبين أن رحمته أوسع من الجميع، ثم، هو أيضا لا يرد بأسه عن القوم المجرمين. ولم يقل الكافرين، لأن الإجرام ذا صبغة بشرية تختلط فيها أعمال الإنسان بعقائده، وليست تصرفا عقائديا محضا.
لكن من هو الكافر المستحق للهلاك والذي تنطبق عليه آيات العقاب والتنكيل المذكورة في القرآن؟
وهنا سننقل رأيا مهما للمعتزلة، وعلى رأسهم الجاحظ والعنبري، وهم أئمة الفقه والعلم في الدولة العباسية، وهو الرأي الراجح لدى إمام الجامع الأزهر الشيخ محمود شلتوت، والشيخ أحمد الطيب. وهذا الرأي ينبني على الآية القرآنية:
(وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا. فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) 14 – النمل.
جحدوا بها: أي بالرسالة. واستيقنتها أنفسهم: أي تيقنوا أنها الحق. والجحود والإنكار كانا لأسباب نفسية وأخلاقية وهي: ظلما وعلوا.
والله وصفهم بالمفسدين، وليس الكافرين. لأنهم تعمدوا ترك تعاليم الدين من عدل ورحمة وصدق وأمانة، واستكبروا على الله، وتحللوا من أي رابطة خلقية وعاثوا في الأرض فسادا. فكأن الفساد في الأرض كفر بالله، والإيمان به إصلاح فيها.
ولذلك اشترطوا للكفر شروطا أربعة حتى ندمغ صاحبها بهذه الصفة:
- أن يكون وصله الإسلام.
- بشكل صحيح.
- أن يكون مؤهل للنظر فيه، بالفهم والدراسة.
- أن يكون قد اقتنع فيما نظر.
والشروط الثلاثة الأولى متفق عليها بين جمهور العلماء، بينما الشرط الرابع، وهو أن يكون الشخص قد اقتنع فيما نظر من أحكام وآيات، انفرد به المعتزلة ورجحه الشيخ شلتوت. لأن الله هو العدل، وما

كان له أن يُحمل الإنسان ما لا يطيق، أو يكلفه بما لم يستوعبه عقله.
فلو وصله الإسلام ولم يقتنع بأحكامه، فهو معذور عند المعتزلة.
وقال علماء الأصول، إنه من مات باحثا عن الحق ولم يصل، مات على حق. وزاد المعتزلة، من اجتهد في البحث عن الحق فوصل إلى الباطل - وهو ينوي الحق- فهو على حق. وعلى الله النوايا.
فلو طبقنا المعيار، لكان الكافر هو الذي علم بالإسلام، بشكل صحيح، وأنه دين من الله تعالى بعثه لعباده، وأيقن بالرسل والكتب والنبوات، ثم ترك كل ذلك لكبر في نفسه، واختار الهلاك، وهي نسبة نادرة من البشر تكاد تكون معدومة، ولا نعلمها نحن يقينا لأنها من أعمال القلوب التي لا يطلع عليها إلا الله.
لذلك قال الرسول (ص) إن الله أرحم بعباده من الأم التي تضم ابنها إلى صدرها تطعمه ثديها، ولا يعذب من عباده إلا المارد المتمرد، الذي أبى أن يعترف بالله وهو على يقين منه.
يروي الأمام الطبري في تفسيره وكذلك السيوطي في أسباب النزول، أن الرسول عندما علم بموت النجاشي، وهو ملك نصراني عادل لا يظلم عنده أحدا، وكان الملاذ الأول الذي حمى حرية الاعتقاد للمسلمين الفارين، قال لصحابته إن أخا لكم قد مات، قوموا وصلوا عليه. وبذلك يكون الرسول (ص) قد صلى على رجل على غير دينه.
والواقعة ثابتة في كل الكتب، لكن البعض يحاول التحايل عليها وإضافة جزء خروجا من الحرج، وهو أن النجاشي مات مسلما! رغم أنه لم يثبت ذلك يقينا.
وعندما جاء رجل للرسول يسأله عن أعمال الخير التي قام بها أيام الجاهلية من صدقة وبر وعتق الرقاب، قال له « أسلمت على ما أسلفت من خير» أي أسلمت وكتب الله لك أجر ما سلف من خير. فالإسلام يبني على الخير ولو كان على غير دينه، ولا يهدمه أو يتنكر له، ما دام نافعا للبشر. والحديث متفقٌ عليه.
وبذلك فرحمة الله تجوز للكافة. كما قالها القرآن على لسان أنبيائه إبراهيم وعيسى ومحمد في حق مكذبيهم من الكافرين.

-8-
الكفر الحلال

يقول الله (وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا) 24 – الأحزاب.
المنافقون هم ناس دخلوا في الإسلام ظاهرا بلسانهم لكنّهم كافرون به قلبا ومضمونا. وهم ناس دخلوا الإسلام من أجل تحقيق مصالح دنيوية واغتنام منافع عاجلة. أو هم ناس يطعنون في الإسلام من خلف ظهره وينتظرون فرصة ملائمة للجهر بالكراهية والسوء. وبعضهم خان المسلمين في بعض المعارك ورجع بثلث الجيش، ما عرض المسلمين لخطر داهم وهزيمة مؤلمة.
ورغم كذبهم وكفرهم وخيانتهم وضررهم المؤكد، يستخدم الله تجاههم هذا الخطاب المُبشر، والذي يضع احتمالات متاحة للمغفرة والرحمة والتوبة. الله لم يضن بمغفرته ورحمته على المنافقين الذين آذوا النبي محمد، فكيف نضن نحن بها على الناس أجمعين!
النقطة الأهم هنا أن القرآن لم يرتب أي عقوبة دنيوية على هذه الجرائم الدينية والعقائدية الكبرى، لم يقتلهم، أو يفتش في نواياهم، أو يحرمهم حتى حق الكذب وادعاء الإسلام. ويعصمهم بهذه الدعوى الزائفة. ثم يدع مصيرهم إلى الله وحده، يعذبهم أو يتوب عليهم إن شاء.
بالمناسبة نحن نقتل من بعضنا أكثر مما يقتل الأعداء منا. وخصومتنا ليست مع الآخر المختلف معنا دينيا، هل له عصمة وحق أم لا، بل لو كفلنا عصمة الدم والأرض والمال على إخواننا المسلمين بمعناه الواسع (الاشتراك في الإيمان بالله والنبوة ويوم البعث) لانتهت 99% من مشكلات تلك المنطقة المنكوبة.
يموت صباح كل يوم في بلادنا 500 إنسان (بواقع 150 ألف قتيل سنويا) نتاج قتال إسلامي إسلامي. قديما كان سنيا شيعيا، والآن صار سنيا سنيا، ثم تطور الأمر حتى صار سنيا متشددا (القاعدة وجبهة النصرة) تجاه سني أكثر تشددا « داعش» ، بل وفي الانقلاب الأخير في تركيا على أردوغان صاحب الحزب والتوجه الإسلامي، كان اتهامه الأول لخصمه، وغريمه القديم، فتح الله كولن، وهو صاحب مدرسة إسلامية راسخة.
الحل في رأيي يبدأ في استدعاء حديث الرسول الذي يوفر الحماية للحد الأدنى من الإسلام، أو الذي ينطق الكلمة بطرف لسانه، كما حدث في واقعة أسامة بن زيد، الذي كان مخطئا عندما قتل رجلا مشركا نطق بالإسلام قبل ثوان قليلة دون أن يكون مصدقا فيه. فيكون كل المسلم على المسلم حرام، ماله وعرضه ودمه. حتى قال النبي (بحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم). أي أن أشد الشرور التي تجنيها في الإسلام وتحملك بأشد الآثام مجرد نظرة احتقار لأخيك المسلم. فقط بنظرة عين. وليس بنصل سكين أو ضربة سيف أو رصاصات مدفع.
أنت تتحدث عن دين قال فيه النبي محمد، كما في صحيح مسلم، (بحثت في الأعمال حسنها وسيئها فما وجدت أفضل من إماطة أذى عن طريق الناس).
النبي ظل يبحث طويلا عن أفضل الأعمال الصالحة التي يتقرب بها الإنسان من رضا الله، فما وجد مثل الطريق النظيف الممهد (السالك) الذي يريح الناس ويشعرهم بالسلام والطمأنينة ويخفف عنهم أعباء الحياة.
الطرقات الجميلة هي عنوان البلدان المتحضرة وهي عنوان الإسلام. فما بالك لو عاش النبي بيننا بينما 88% من قرى مصر ليس بها صرف صحي. ومياه المجاري تطفح في كل طريق وتدخل على مياه الشرب. وهناك من يسرق كابلات الكهرباء وقضبان السكك الحديد وأغطية البلاعات. ومن يضع

عبوات ناسفة في طريق الناس. لو عاش حتى يرى من يبحث عن تطبيق الإسلام بالتفجير والتخويف ونشر الذعر في الطريق. بدلا من إماطة ورفع الأذى عنه.

هل كان حقا سيصفهم أنهم مسلمون صالحون! ربما لو رفض النبي محمد أفعالهم لاتهموه أنه ليس مسلما كما ينبغي. كما وصف المفتش الأعظم السيد المسيح حين قابله في الطريق بأنه ليس مسيحيا صادقا.

أعلنت الأمم المتحدة أن عام 2014 هو عام منكوب، وبه 220 مليون إنسان معرضون للهلاك في مناطق متعددة مثل سوريا والعراق وإفريقيا الوسطى وأوكرانيا، وأنهم بحاجة إلى مساعدات عاجلة قدرها 16 مليار دولار.

أيضا هناك 160 ألف لاجئ سوري في المخيمات معرضون للموت بالبرد هذا الشتاء لنقص الطعام والمأوى. بينما برنامج الغذاء العالمي اسقطهم من محيط تعريفه.

ولدينا في مصر 15% من أطفالنا بلا مأوى، و14% بلا ماء نظيف.

أحدهم يحكي عن طفولته الفقيرة والمليئة بالذل والحاجة، وأنه بعد سنوات طوال حقق ذاته وحصل على ثروة كبيرة. لكنه لا يزال يخشى أن ينظر للناس في أعينهم، لأن الفقر يظهر في الأعين.

هل نحن في عالم فقير حتى تظهر كل تلك المعاناة! هل ظلم الله العالم وأعطاه مشكلات أكبر من طاقته!

ربما يجيبنا وزير العمل الأمريكي الأسبق، في مثال صغير، عندما يقول إن شريحة الأغنياء في أمريكا تتزايد بشكل كبير، في حين أن الطبقة الوسطى تتحمل بأعباء وديون أكثر، فالمرتبات تنخفض والضرائب تتصاعد وأقساط الشقق تتراكم عليهم فلا يستطعيون الوفاء بها وهم مهددون بفقد مسكنهم.

ورغم ذلك يقول الوزير، الأثرياء نسبتهم تزايدت رغم الأزمة المالية، وينفقون أموالهم في شراء شقق فاخرة بقيمة 100 مليون دولار للشقة الواحدة في برج مانهاتن الذي يرتفع ل-90 طابقا. وفي طائرات خاصة تتكلف الواحدة 110 ملايين دولار!

وفي مصر من تجاوزت ثروتهم 10 ملايين دولار للفرد بلغ مجموع ثروتهم، 50 مليار دولار.

في المقهى يجلس جواري شاب في نهاية عقده الثالث، لحيته نابتة ويرتدي كاسكيت وبنطلون جينز، وأحضر طعاما للغداء، نصف فرخة وطبق مكرونة. جاء فتى المقهى ووضع له كوب ماء، وسلم عليه، يبدو أنه يعرفه، فعزم عليه الشاب أن يجلس ليأكل معه فرفض الفتى على استحياء، فقام الشاب وأجلسه عنوة.

انفرج وجه الفتى عن ابتسامة كبيرة وثنى أكمامه وجلسا يأكلان معا، فطعام واحد يكفي لاثنين. وشبع كلاهما في ما يبدو.

ربما كانت مشكلات العالم أبسط مما تتخيل. وربما وجد حلها هذا الشاب العادي الذي يجلس على المقهى إلى جواري. فقط أن تطعم أحدهم معك بدلا من أن يفيض الطعام ويذهب للقمامة أو تأكل فوق حاجتك فيذهب لمواسير المجاري.

-9-
أينشتاين والإسلام المكي

كان اينشتاين يقول: مشكلتنا الآن هي نفس مشكلتنا القديمة؛ أن قوة الإنسان سبقت يقظة ضميره، ونمو عضلاته جاء قبل نمو تفكيره.

وأن البشرية بعد القنبلة النووية لا حل لها إلا أن تعيش حالة توحد أممي ضخم. لنبذ العنف وحل الخلافات بطريقة سلمية، لأن الحرب القادمة لو نشبت في ظل وجود قوة تدميرية ضخمة في يد البشر فقد تحول العالم إلى جحيم.

أينشتاين رجل العلم والتجربة كان يتحدث، كشاعر، عن الضمير والعقلانية ونبذ العنف، والتآلف. اتهموه بالرومانسية، ولكنه كان يرى أن الرومانسية هي البديل الأوحد عن الدمار. لأن الإنسان لو ترك لجهالاته فسوف يحدث كوارث عظمى.

أدرك العالم الشمالي (الغربي) تلك المعادلة، خاصة بعد الخراب الذي شهدته أوروبا في الحرب العالمية الثانية 1945، ولذلك نشأت عصبة الأمم وعقدت خطة مارشال للتنمية وإعادة التعمير، المشروع نسبة إلى قائد الأركان الأمريكي جورج مارشال، وفيه يشترك الجميع لمساعدة البلدان المتضررة من الحرب العالمية الثانية، خاصة لندن وباريس وبرلين. واستطاعوا نبذ خلافاتهم الداخلية التي كانت تقوم على صراع المصالح، وهم الآن متحدون لاقتسام خيرات العالم، واحتكار التكنولوجيا والصناعة والبحث العلمي والرفاهية.

تلك كانت وصية بونابارت في منفاه في جزيرة نائية بعد هزيمته في معركة الشعوب (واترلو) 1815، قال لابنه إنه من الأفضل بدلا من أن يحارب إنجلترا أن يقتسم الثروات معها، لأن الحرب لا نهاية لها.

ثم اعتمدوا الحريات الدينية بعد ذكريات حروب طويلة بين البروتستانت والكاثوليك عام 1648 أدت إلى نقص سكان أوروبا بنسبة 30% وانتشرت بسببها المجاعات والأمراض ولم تنته إلى بصلح وستفاليا. وكانت الأديان هي أول الخاسرين. الأمر لم ينته بشكل كامل وظلت المناوشات بين الكاثوليك والبروتستانت في ايرلندا الشمالية مات بسببها الآلاف حتى القرن الماضي، وهو ما جعل بريطانيا تنشئ جدارا عازلا بين الطائفتين في مدينة بلفاست عام 1969.

المشكلة أننا لم ندرك تلك الحقائق ونعيش في قرون الصراعات الأولى. وصرنا نتصارع مع الجميع. صراع سياسي: إسلامي / علماني، صراع طائفي: سني / شيعي، صراع عقيدي: كفر / إيمان، صراع حضاري: دار سلم / دار حرب.

من الاخبار المؤسفة التي نطالع مثلها كل يوم؛ مقتل الشاب عمر همامي. عمر أمريكي مسلم، متطرف، هاجر إلى الصومال للجهاد مع حركة الشباب. لكنه اختلف مع رئيس الجماعة هناك. فما كان من رئيس جماعة المجاهدين إلا أن أرسل وقتل عمر.

هكذا تتم تصفية الخلافات بين المجاهدين. أن يقتل بعضهم بعضا!

وهؤلاء الإخوة في الصومال يجاهدون ضد صوماليين مسلمين أيضا. لكن هؤلاء المتشددين يمنعون مشاهدة التلفاز ومباريات كرة القدم، ويحرمون على المرأة ارتداء مشد الصدر، لأنه يعطي مظهرا خادعا لحجم صدر المرأة، وهو ما يثير الفتنة لدى الرجال. والأفضل أن تلف المرأة صدرها بقطعة قماش عريضة حتى يظل الصدر منبطحا! المرأة الصومالية الجائعة النحيفة المجهدة المعذبة تثير الفتنة!

في حين أن المجاعات تقتل ربع مليونا في الصومال، لا يهم ذلك بالنسبة لهم. بينما الصومال تملك

أطول ساحل بحري لدولة إفريقية مما يؤهلها لمركز تجاري عالمي ضخم.
الأمر لا يتوقف عند أتباع الدين الإسلامي، ولكن الهمجيين هم آفة كل دين. فهناك من البوذيين من مارس أبشع أنواع القتل والاضطهاد والتهجير لمسلمي الروهوينجا في ميانمار، بورما، ما يجعل ثمانية ملايين مسلم يعيشون حياة بائسة على حافة الخطر.
والهندوس من قبل قاموا بهدم مسجد كبير وتسويته بالأرض مخلفين آلاف القتلى. هناك مسلمي إقليم سينج يانج المضطهدين في الصين. وجبهة مورو الإسلامية في الفلبين التي مات منها أكثر من 100 ألف إنسان في مذابح جماعية سنوية على مدار العقود القليلة الماضية.
أعتقد أننا في حاجة لاسترجاع الآيات المكية المنسية في تاريخ الإسلام والتي ادعى البعض، ظلما وجحودا، أنها منسوخة وبلا قيمة، ولم يبق منها في المصحف إلا رسمها للاستماع والتلاوة دون أن يكون لها أي أثر تشريعي.
الرسول عليه الصلاة والسلام قضى في مكة أكثر مما قضى في المدينة. 13 سنة يضع القواعد الفكرية والاعتقادية الأولى المؤسسة للإسلام. وخالط الكافرين وعايشهم واختلف معهم وحدثت اشتباكات. وكان القتال محرما على المسلمين، فكان الإسلام المكي طوال ثلاثة عشر عاما إسلاما منزوع السلاح . إسلام الصبر والتضحية والكلمة.
استدار الزمان وصرنا في أحوج الأمر إلى هذه القراءة للإسلام. الإسلام المكي. إسلام الكلمة والمعاملة. إسلام التضحية والعمل. بدلا من توظيف مصطلحات إسلامية في المزيد من التشويه والعداء دون أي أثر. كلمة جهاد صارت تستخدم في المعاجم الغربية كبديل للإرهاب. وكلمة شهيدكا دخلت القاموس الروسي بعد عام 2001 كمرادف للدموية وقتل الناس من دون أسباب واضحة، وذلك بعد عملية احتجاز وقتل رهائن بأحد المسارح.
في حياة الرسول قالوا له نقتل زعيم المنافقين عبد الله بن أُبَيّ بن سلول، الذي آذى الرسول واعتدى على أعراض نساء المسلمين، وناصب الإسلام العداء. ولكن الرسول رفض ذلك، وقال: « أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه» ! الرسول يعرف أن سمعة أي دين وأي منظومة فكرية هي التي تمثل مصدر الحماية الأهم. حتى لو تجاوزنا عن تصرفات قد تكون ضرورية أمام ذلك.
يجب أن نكون أكثر ديناميكية في التعامل مع عالم مختلف. ومع تحديات جديدة. لأن من لا يستوعب التغيير مكتوب عليه الفناء. عمر بن الخطاب ذهب ليأخذ الجزية من أهل الكتاب. فغضبوا، وقالوا لن ندفع الجزية، خذ منا ما تأخذه من المسلمين. قال عمر نأخذ من المسلمين صدقة. قالوا ونحن ندفع صدقة. فوافقهم وتخلى عن المصطلح. رغم أنه مذكور في كتاب الله.
ما دامت النتيجة واحدة، فلا بأس من تجاوز الخلاف الشكلي الظاهري اللفظي.
يقول الله في سورة الأنعام:
(اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (106) وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (107) وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ).
بداية الآية تحثّ الرسول أن يلتزم بدينه ولا يتعرض للمشركين، يتركهم، ويكف عن الجدل وإثارة الخصومات. والآية التالية تؤكد أنه رغم نبوته لا يملك عليهم أي حق مادي أو سلطوي. فهو ليس وكيلا ولا حفيظا ولا يمارس أي وصاية أو إكراه.
ثم يأمر المؤمنين بعدم المساس بعقائد غيرهم، وينهاهم عن التعدي بالكلمة أو السباب لآلهة قريش حتى لا يؤدي ذلك إلى سباب متبادل. فكان الإسلام يطمح لتأسيس هذا النموذج من الاحترام العقيدي

المتبادل في مكة لسنوات طويلة، ولكن القرشيين رفضوا.
فالتعايش بين العقائد واحترام أديان الآخرين كانت محاولة الإسلام الأولى. التي لم تنجح في مكة. لكنها الخلاص الوحيد للعالم الآن.
ويختم الله الآيات، أن كل أمة ترى نفسها على صواب، وأن عملها هو الأفضل، والله ترك الكل يتحرك ويعمل، وتكون العودة له في الآخرة لينبئ الجميع بطبيعة عمله، من كان على صواب ومن كان على ضلال.
وننتهي بما بدأه اينشتاين. هل نستطيع إيجاد معادل فكري يتمثل ضمير العالم ويحثه على التعقل، ليوازن قوته الضاربة في صناعة الحرب ويتجاوز الخصومات بين البشر، ويجمعهم على مشروعات التنمية والصناعة مع الحفاظ على الفروق العقيدية والثقافية لكل جماعة؟
وهل نستطيع أن نكون نحن (المسلمين) ضمير العالم في هذا الشأن؟

-10-
فتحا مبينا

سورة الفتح التي بدأها الله بآية (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا. لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ. وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ. وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) لم تنزل، كما يظن البعض، في فتح مكة، أو عقب الانتصار في إحدى المعارك العسكرية الملهمة.

إنما نزلت عند منطقة الحديبية. في أثناء عقد الصلح، وإقامة العهود، وبداية السلام مع الكافرين لعشر سنين، كما طلب الرسول لا يعتدي أحد على أحد. فالفتح المبين والنصر العزيز وتمام النعمة، وفق آيات القرآن جاء في المقام الأول لوصف اتفاق سلام يحمي النفوس ويحقن الدماء.

الرسول في العام السادس من الهجرة ذهب إلى مكة معتمرا، ومعه ألف من رجاله، فأرسلت قريش له لعقد هدنة، ومن شروط هذه الهدنة، أن يرجع الرسول وصحابته إلى المدينة وألا يدخلوا مكة هذا العام، ولا يتموا عمرتهم، رغم أنهم كانوا محرمين. والعودة في العام القادم. وكان الرسول مرنا متساهلا لإتمام الصلح، فواق، رغم الثورة العاصفةَ التي واجهها من أتباعه.

ثم ارتضى الرسول شروطا أقل. سماها الصحابي الكبير عمر بن الخطاب (نقبل الدَنِيَّة في ديننا) إذ قبل الرسول أن يرد أي مؤمن جديد يأتيه من قريش ولا يضمه إلى صفوف المسلمين. على نقيض ذلك لا تعامله قريش بالمثل، فيكون لها الحق في قبول أي مسلم مرتد.

لم يقل النبي من ارتد عن ديننا قتلناه. بل ترك له الحق في العودة مرة أخرى إلى عصمة الكافرين.

الأمر المهم هنا، أن الرسول لم يخش فتح باب حرية الاعتقاد، والارتداد، أمام المسلمين الأوائل. رغم خطوة هذا الأمر. لأن الإسلام وقتها كان في محك كبير وأي مرتد سيمثل جاسوسا يكشف ثغرات المسلمين. كما أنه لم يهتم بزيادة عدد المسلمين كميا وارتضى ببضع آلاف حوله. تخيل الرسول يغلق الباب أمام المسلمين الجدد. هذا فيه تضحية قد تضر بالإسلام ولو جزئيا، وتضع من يدخل الإسلام بعد هذا العهد في حرج كبير، وخطر أكبر. وبالفعل وهم يعقدون المعاهدة جاءه أحد المسلمين الجدد وهو مقيد بالحبال من قريش، يستغيث بالرسول أن يقبله كاستثناء قبل نفاذ الاتفاقية. ولكن قريشا رفضت، فلم يخالفهم الرسول.

واشتعلت مشاعر المسلمين حسرة وكمدا، والدموع في عين الرجل الأسير، ولكن الرسول هذا الرجل العبقري، بالغ الحكمة والذكاء والثبات الانفعالي والقدرة على الاستبصار، لم يضيع نصرا كبيرا كهذا، وإنجازا مهمّا لتاريخ الإسلام، يحمي به ظهور المسلمين ودماءهم ويريحهم من الحرب لفترة. وقال بثقة: من أسلم سيجعل الله له فرجا.

الرسول كان رجلا سهلا، متجاوبا، قليل الشروط، والطلبات، والتعقيدات، مع المشركين، ميالا للتوافق، والانسجام، دون تعالي أو مبالغة أو تمسك بسفاسف الأمور، أو مزايدات عقائدية أو أخلاقية. هكذا كانت صفاته السياسية الأبرز.

وعندما طلبوا منه كتابة اسمه فقط، محمد بن عبد الله، ومحو محمد رسول الله، لم يتوقف عندها، ومحى صفته الرسالية الكبرى التي بعثه الله بها، ولم يشخصن المسألة، ولم يفشل المفاوضات، من أجل شكليات أو مماحكات كتلك. لو أن أحدهم الآن طالبناه بالتخلي عن شيء شكلي ما يتعلق بدينه، لن ينفع ولن يضر، من أجل التوافق مع الحياة العاملة، أو سهولة الاندماج في بلاد الغرب، أو التوافق مع الديانات والعقائد المختلفة، فلن يقبل.

وفي العام التالي عام 7، للهجرة، ذهب الرسول إلى مكة معتمرا في ما سميت عمرة القضاء، وطاف

بالكعبة وحولها الأصنام من كل جانب. 360 صنما وكبيرها هُبَل على هيئة إنسان من العقيق، مقطوع الذراع، ولم يتعرض النبي لها بأذى، احتراما ووفاء للعهد الذي بينهم.

ولم يلتفت الرسول لذلك، فإخلاص الوجه لله هو الأساس. فالكعبة في النهاية حجر والمسجد أحجار، ولكن القلب يتعلق بالله ولا يتوقف عند الهيئات والأشكال.

وبعد أن فرغ الرسول من المناسك خطب ميمونة بنت الحارث. وأراد أن يقيم عرسه في مكة (بلد الكافرين الوثنيين) باعتبارها دار سلام، ولكن قريشا أرسلت له رجلا يدعى حويطب، يطلب منه الخروج ما دام أتم المناسك.

فقال الرسول في رفق مشفوع برجاء: ماذا عليكم لو تركتموني أقمت عرسا وسطكم، وأعددت طعاما ودعوتكم إليه!

يا ربي! الرسول يريد إقامة عرسه وسط كفار قريش. بل يصنع طعاما يدعوهم له يأكلون معه ويشاركونه فرحه، يتسامرون، يضحكون، يسلمون عليه ويباركون. ربما قبّل أحدهم طرف عمامته أو منكبه العريضة، وهمس له بشعور كريم أو أمنيات طيبة.

اسرح بخيالك وارسم صورة فيها بشر وأحداث ومشاعر وحياة، فيها طعام وعرس. نبي مبتسم وقومه من الكافرين المنكرين يصافحون.

وسمى الله الوقائع أنها نصر وفتح وعزة. في مواقف كتلك.

فهل عرفتم دينكم أيها الرجال؟ أم تجتزئون منه سياقات تاريخية ونصية لتبرروا الكراهية والعداء كحالة عامة؟

يجب أن نؤكد كل مرة أن القرآن يحوي آيات حازمة حاسمة شديدة اللهجة، ولكنها تحكم حالات الحرب ورد الاعتداء وحماية العقيدة. وهي استثناء. بينما الأصل العام هو الدعوة والمسالمة والتبشير. فالجندي يحارب يوما ويعيش مسالما ألف يوم. ولو قرر هذا الجندي أن يرى في طرقات المدينة الآمنة ساحة للحرب، فسوف يتحول من جندي شجاع إلى قاتل محترف.

-11-
قد عدنا يا صلاح الدين

(1)

عزيزتي ريم، لا أدري إن كنت في مزاج ملائم لتسمعي كل هذا الدفق المتناقض من حوادث التاريخ ومآسي السياسة أم لا. صنعت طعامي بيدي. وأعددت لك طبقا. كل مرة يظل مكانه حتى يفسد ولا تأتين. لكني لن أكف عن ذلك. عسى أن تتذوقي يوما ما صنعت يداي.

(2)

عندما هرب عبد الرحمن بن أمية. صقر قريش. آخر رجال الدولة الأموية، من مصيره الأسود (132هـ)على يد أبي محمد السفاح، أول أمراء الدولة العباسية، وأخيه أبو جعفر المنصور وقائد الجند أبو مسلم الخرساني، لم يجد سوى بلاد المغرب العربي يلوذ بها كأبعد نقطة عن مقر الشام. ومن هناك استطاع أن يعبر إلى ما وراء البحر ويدخل إسبانيا ليؤسس الدولة الإسلامية في الأندلس. بعد أن فتحها قبل ذلك موسى بن نصير وطارق بن زياد (95هـ).

لاحظي أن صراعات الملك وجرائم السلطة لا تتوقف عند دين بعينه، فالسلطة تفسد الدين. ها هما خلافتان إسلاميتان تتقاتلان ويسفك كل منهما دماء أخيه المسلم ويتعقبه إلى آخر الأرض. لم تكن مشكلة إقامة شريعة أو تطبيق نصوص الدين. بل نزعات قبلية بحتة، وصراعات مصالح، وغريزة السلطة.

قال الله في كتابه العزيز (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) 83 – القصص.

لكن منذ متى ونحن نسمع لكلام الله؟ فالكل يريد العلو في الأرض.

ثم انتقلت الحضارة العربية بما كانت تحمله من رقي وثقافة وفنون، إلى أوروبا المظلمة المليئة بالطاعون والجهل وسطوة الكهنة. حتى إنهم سمعوا لأول مرة لعزف العود على يد العرب، على يد أبي الحسن بن نافع، الملقب زرياب. والذي أنشأ دار المدنيات. أول دار لتعليم الغناء والموسيقى. وتعلموا لعبة الشطرنج من العرب. حتى إن كلمة (شاه مات) لا تزال مستخدمة بذات النطق العربي في الانجليزية. وبدأوا في استخدام أدوات الطعام ومناديل السفرة. لمسة أناقة جاء بها العربي المترف من بغداد ودمشق.

وعاش المسلمون هناك لقرون، لم يثبت عنهم أنهم أجبروا أحدا على الإسلام. لم يكسروا صليبا ولم يعتدوا على كنيسة ولم تمتد يدهم للتخريب والإبادة.

وبمجرد أن اشتد عود الأوربيين، وقاموا بإجلاء العرب عن جزء من الأندلس، بدءا من طليطلة 10م- شنوا هجمات صليبية على المناطق العربية غاية الوحشية. قتل وتخريب وإحراق وهدم لكل معالم الحضارة. بل عندما استردوا الأماكن التي عاش فيها المسلمون قاموا بعمليات تطهير عرقي كاملة وهدم المساجد واتخاذ بعضها مزابل أو دار لهو.

واستمرت الجرائم في حق المسلمين، حتى العصر الحديث، فنقول ونحن واثقون أنه في النصف قرن الأولى من القرن العشرين تمت مذابح تطهير عرقي وديني ضد المسلمين في يوغوسلافيا والتركستان والصين، أودت بحياة ما يزيد على 50 مليون مسلم.

ولم تهتز شعرة واحدة في رأس العالم (المتحضر) لمثل تلك المذابح.

(3)

برنارد شو، كان يقول عن الإنجليز، كلما عرفتكم أكثر ازددت حبا للكلاب. لما نهبوه من شعوب العالم الفقير. قتلوا أبناءهم تحت مظلة الاستعمار.
حتى إن بروكسيل عاصمة بلجيكا، التي اشتهرت بالماس والشيكولاتة، لا تزال تحصدهما من مستعمراتها في إفريقيا من دولة الكونغو.
وفي ليبيا حصص النفط يتم توزيعها على بلدان حلف الناتو وفقا لمشاركات كل بلد في الطلعات الجوية التي نسفت الجيش الليبي. ليست حرب تحرير إذن، لكنها صورة بدائية للبحث عن غنائم الحرب. إنها تغليف متحضر للسرقة والإغارة والاستعباد.
وفرنسا تقاتل المتشددين في مالي غرب إفريقيا، ليس لحفظ السلم والأمن الدوليين. لكن لأن شركة توتال الفرنسية هي صاحبة امتياز النفط هناك. كما أنها تحصل على ثلث احتياجها من اليورانيوم من مالي. مجرد بلطجي يحافظ على دائرة نفوذه إذن.
كان نيتشه، الفيلسوف الألماني، يقول: اقهر الضعيف واصعد فوق جثته. تلك هي الفلسفة الكامنة في نفوسهم جميعا. القوة هي أصل الأشياء، بمعزل عما هو أخلاقي أو إنساني. المادة والمصلحة يتفوقان على الحب والرحمة.
أما القرآن فقد اختصر الرسالات في كلمتي (الكتاب والميزان) ليقوم الناس بالقسط. فكانت القيمة عنده تسبق المنفعة، والحق يهيمن على القوة.
لن أتحدث عن العراق الذي ذبحوه ذبحا في أكبر جريمة حديثة ارتكبها العالم المتحضر. سلموا البلد إلى الانقسام والحرب الطائفية والانهيار الكامل. في حين جلسوا يقتسمون حصص النفط. في واحدة من أغنى دول العالم. وأعرقها.
مادلين أولبرايت سألوها عن نصف مليون طفل عراقي يموتون تحت الحصار، قالت بكل برود وهي تعقد ساقا فوق أخرى: **collateral damage** أضرار جانبية!
جاء الخواجة الأوروبي يدق باب عاصمة الرشيد والمأمون والمعتصم. ويا فجيعتهم في قبورهم.

(4)

هناك رواية شهيرة، غير أكيدة، عن الجنرال الفرنسي هنري جورو، عندما جاء إلى دمشق بعد انتصاره في معركة ميسلون عام 1920 على البطل السوري يوسف العظمة، أنه وقف على قبر صلاح الدين يركله بقدمه عساه يسمع ويقول (ها قد عدنا يا صلاح الدين).
لتعود بلادنا إلى ظل الاحتلال مرة أخرى، بعد أن كان صلاح الدين قد حررها في لحظة تاريخية فذة عام 1187م، بعد قرن كامل من الاحتلال الصليبي. لحظة تاريخية فذة لأن المنطقة العربية لم تتوقف التهديدات عليها طيلة ثلاثة قرون، بمجرد أن انسحب المسلمون عن أوروبا. تلا ذلك قوات جنكيز خان وهولاكو وما قاما به من تخريب ودمار لكل عواصم الإسلام. بداية من بلاد ما وراء النهر حيث سمرقند وطشقند وبخارى.
ولم يمحَ خطرهم إلا على يد سيف الدين قطز عام 1260. بجيش مصري استنقذ سقوط الخلافة العباسية في بغداد. ومن بعده قوات سيف الدين قلاوون سلطان مصر عام 1282.
ويلومون على مفهوم الجهاد في الإسلام ويتهمونه بالعدوان، في حين أنه كان حائط الصد في المنطقة الإسلامية ضد هجمات الإسبان والبرتغال والمغول والصليبيين. وعندما تراجع الجهاد صارت بلادنا محتلة قديما وحديثا.
كان المبدأ القديم، إن لم تَغزُ، تُغزَ. وكانت الإمبراطورية الإسلامية تتعامل بهذا المبدأ الواقعي. إلا أن غزوات الإسلام كانت تعترف بديانات الآخر، وتعتبرهم أهل ذمة وعهد. وتكفل لهم العبادة والحياة

والتعايش الآمن. بينما كانت غزوات الصليبيين والمغول – القدامى والجدد – تحمل الخراب والتدمير والاستعباد.
لو فعلناها نصير إرهابيين ولو فعلوها يصيرون متحضرين. ويضعون احتلالهم تحت شعارات براقة. بل كان الرجل الأبيض يعتبر احتلال المناطق الفقيرة وظيفة وعبئا يجب أن يقوم به White man burden .
هذا العالم المتحضر يحتفظ بقوة نووية مهولة تكفي لتدمير العالم أجمع 15 مرة متتالية. أي خبل هذا! وأي وحشية تلك. وأي سفاهة وجنون لوثت عقولهم. ليس غريبا، فأكبر مبلغ أنفقه العالم في القرن العشرين كان على صناعة السلاح. 200 حرب شهدها العالم بعد الحرب العالمية الثانية كان الغرب المتحضر ضالعا فيها بالوكالة بعيدا عن أرضه. يمول بالسلاح ويحصل على المقابل بالعملة الصعبة. يصنعون أدوات الموت. ثم يقفون بربطات عنق زاهية في جنيف يقولون بعيون دامعة:
نحن نبحث عن السلام لشعوب الأرض. نرجوكم توقفوا عن القتال!
(5)
أقرأ في الصحف أن « الإخوان» تستخدم جماعات ضغط أوروبية لإيقاع عقوبات اقتصادية على مصر. كأنهم باعوا أرواحهم للغرباء، مثلما فعل أمراء العباسيين عندما كان أحدهم يستنجد بالصليبيين ضد أخيه أو ابن عمه أمير المقاطعة المجاورة.
ثم أقرأ في الصحف، أن هناك من يرحب بتدخل أمريكي في سوريا ضد بشار. لا أهتم بالحدث. فقط أفكر كيف يشعر صلاح الدين الذي قضى عمره يدافع عن دمشق ضد جد جد ديفيد كاميرون.
الحرب في سوريا ليست بين حق وباطل. بل بين طرفين كلاهما على باطل. لكنه فرق بين باطل وطني وباطل أجنبي.
وكان أحدهم يرفع يديه إلى السماء متضرعا: اللهم أعز الإسلام بحلف الناتو!
يقول المحلل السياسي الإسرائيلي أوري هاينز، إن عدد القتلى في الصراع الدائر في سوريا، ربما يفوق عدد كل من مات في الصراع الإسرائيلي مع السلطة الفلسطينية خلال عقود. وإنه من مصلحة إسرئيل أن يظل الوضع كما هو عليه. ألا ينتصر طرف على طرف. وأن يقضوا حربا أهلية طويلة الأمد في تكسير العظام والاستنزاف الداخلي والإنهاك الاقتصادي والشعبي، وبذلك تضمن إسرائيل حزاما عربيا آمنا لدول منهارة فقيرة مفككة تعيش حروبا أهلية وصراعات مسلحة.
وينصح إسرائيل أن تستلقي وتشاهد من بعيد دون أن تتدخل. وفق مبدأ، لو رأيت عدوك يدمر نفسه فلا تقاطعه.
بينما تتفرغ هي لتطوير تكنولوجيا صناعة الطائرات بدون طيار، بوصفها البلد الأول عالميا في تصدير هذا النوع من التكنولوجيا.

-12-
الحياة على جباه الموت

عزيزتي ريم.
لا جديد غير أني اشتريت فنجان قهوة أكثر اتساعا ليستوعب احتياجي اليومي. القهوة الأمريكية سريعة التحضير، جيدة، لكنها لن تساوي مثيلتها العربية ذات الرائحة القوية والتي تحتاج إلى الوقت والصبر والنار الهادئة لتنضج. تماما مثل الأفكار الكبيرة.
أعرف أنك لا تتابعين الأخبار وأنك تطالبينني أن أحكيها لك على طريقتي.
وها هي.
(1)
- الأمريكي جيمس روثمان يحصل على نوبل في الطب عن بحوثه حول نقل الجزيئات داخل خلايا البنكرياس، ما يساعد في فهم مرض السكري والسيطرة عليه.
- اختطاف رئيس الوزراء في ليبيا على يد جماعات مسلحة، ثم الإفراج عنه بعد التواصل معهم. ليبيا تعيش مرحلة اللادولة. ميليشيات قبلية مسلحة. واختراق إرهابي. وفوضى عارمة من سرقة وقتل. لكن النفط يتدفق بسلام إلى أوروبا. ملحوظة صغيرة، ليبيا 100% مسلمون. وعدد سكانها قليل جدا 5 ملايين. ومساحة أرض شاسعة تكاد تصل إلى ضعفي مساحة مصر. وموارد نفطية مهولة. ما يؤهلها لدولة عصرية من الطراز الأول. لكن النفوس المختلة لا تصنع الحضارة.
المارشال فيليب بيتان، رئيس فرنسا في أثناء هزيمتها واحتلالها في الحرب العالمية الثانية، أرجع السبب إلى تحلل وفساد الفرنسيين، وأنه قد غزاهم الكسل والعهر والتسيب وارتياد الحانات قبل أن يغزوهم الألمان. الشعوب المحبطة لن تحصد غير الهزائم. لذلك عملوا على تثقيف وتهذيب شعوبهم. بالعلم والفن والقيم الدينية المتسامحة.
يقول الله: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) 24 – الأنفال.
يدعو القرآن إلى الاستجابة إلى تعاليم الدين، لله والرسول، وتلك التعاليم تؤدي إلى الحياة. وليس الموت. تلك ميزتها الكبرى. وملمحها الأول. فكل ما يؤدي للحياة يؤدي للدين. وكل ما يؤدي للموت وسفك الدم وإهدار الحياة يؤدي إلى عكس ذلك. إلى الكفر. ولو تسربل بثوب الدين وتعاليم الرسول.
لذلك، يكون الأمريكي الذي يقوم على البحوث الطبية أقرب إلى روح الدين من (أبو أنس الليبي) وكل رجال القاعدة والقبائل المسلحة في ليبيا.
في الاعتصام الشهير في رابعة، وقف طفل صغير يرتدي كفنا ويردد دون وعي:
(اسمي حمزة. مشروع شهيد).
تلك العقيدة ترسخها كل الجماعات الإسلامية، الدعوية منها والحزبية والجهادية، وهي الكفاح من أجل الموت، كهدف. لكنا هنا نرسخ لشعار الكفاح من أجل الحياة.
يقول الفيلسوف مراد وهبة، أن علي شريعتي هو من كرس لذلك، في كتابه سوسيولجيا التدين. لكن شريعتي كان قد تأثر بفرويد في كتابه عن بؤس الحضارة، عندما قال إن الإنسان يجب أن يرتد بذاكرته إلى ماض سحيق. إلى ما قبل نشوء الحياة، حيث الجماد أو الموت، ليتولد لديه مصطلح (غريزة الموت). وهو ما سبقه إليه شوبنهاور عندما قال إن الهدف من الحياة هو الموت. لكن فرويد تميز بأنه اهتم بالغريزة الجنسية كدافع مهم للحياة. وبذلك وضع مقابلة بين غريزة الموت وغريزة الحياة يتصارعان في تناقض دائم.

لدينا في أحاديث الرسول ما ينافي ذلك. ويدعم غريزة الحياة حتى أخر رمق.
فروى الإمام أحمد في مسنده والبخاري في الأدب المفرد، أن الرسول قال (إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة (نخلة صغيرة) فليغرسها). رغم عدم جدوى زرعها يؤكد على مواجهة الموت بالحياة والدمار بزرع أمل جديد، وأن هدف الإنسان هو غرس الحياة فوق جبهة الموت.

(2)

مشكلة النقاب في لندن تظهر من جديد. البعض يقول أنها حرية شخصية لممارسة العقيدة. البعض يقول إنها تصادم تقاليد المجتمع وتضر بأمنه. البعض يجد رفضا في كل مظاهر التطرف التي تنتمي للإسلام إثر الحادث الأخير لمقتل جندي بريطاني.
يذكرني ذلك بوضع المرأة عالميا، وكذلك وضعها في التصور الشائع في عقول المسلمين الآن. فهناك من يعتقد في الحديث (ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة) ويحرم المرأة من حقها السياسي والدستوري في تقلد بعض المناصب القيادية.
رغم الشواهد الحالية تنافي هذا الحديث، فها هي السيدة تريزا ماي تتسلم رئاسة وزراء بريطانيا. ولدينا سوابق كثيرة في البرازيل وبنجلادش والنرويج وإسرائيل. بل إن بريطانيا حكمت نصف العالم وهي تحت قيادة الملكة فيكتوريا.
القرآن الكريم نادرا ما يتحدث عن السلطة والملك بشكل إيجابي. لكنه عندما ضرب نموذجا لملك رشيد، وسلطة حكيمة عادلة عاقلة، تحدث عن بقليس ملكة سبأ وعن أن حكمها كان يقوم على الشورى، كما أنها جنبت شعبها ويلات الحروب مع سليمان. وذهبت بنفسها لبحث الأمر وتقصي الحقيقة. ثم بتواضع واستنارة قبلت الدين الجديد.
في حديث القرآن عن ملكة سبأ التي ذهبت لتلتقي سليمان وتسمع منه مباشرة، ودخولها على سليمان في الصرح الممرد، حسبته لجة، ماء، فكشفت عن ساقها، خشية أن يبتل طرف فستانها.
لم يتوقف سليمان عند الساق المكشوفة. ولم يردعها القرآن بآية صريحة تمنعها عن فعلتها، أو تجرم ما قامت به. بل مرر القرآن الأمر بسلاسة، من أجل فائدة وحكمة أكبر.
يقول الله (فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا، قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ. قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ) 44 – النمل.
لم يتوقف القرآن عند ساقها. بل توقف عند تواضعها وسرعة استجابتها، وقدرتها على تمييز الحق، واتباعه، دون أن تأخذها عزة النفس، أو تعالي الملوك.

(3)

خبر قديم مر عليه أكثر من أربعين سنة. لكني نسيت أن أخبرك به. الاستخبارات الأمريكية ضالعة في الانقلاب السوري الذي أنهى الوحدة بين مصر وسوريا. أمريكا تتدخل لتفتيت أي كيان يحقق مصالح وطنية بعيدا عن وصايتها. ليس غريبا على أمريكا فهي لا تكف عن ممارسة البلطجة.
في 2012 تدخلت في البارجواي لتنفيذ انقلاب ضد الرئيس. وفي 2009 تدخلت في الهندوراس لتنفيذ انقلاب ضد سلطة اتهمتها بالجنوح إلى اليسار. أمريكا لا تحترم سيادة أحد ولا تؤمن بأي مبادئ غير القوة والمصالح. أيضا تم افتضاح تدخلها لصنع انقلاب في كاراكاس (فنزويلا) عام 2002 بعد فشل الانقلاب. كما ذكر جميل مطر في أحد مقالاته بجريدة الشروق.
ثم الفضيحة الأخيرة منذ شهور عندما تعرض سلاح الجو الأمريكي لطائرة رئيس بوليفيا في أثناء عودته إلى لاباز، من موسكو مرورا بباريس، لموقفه من مقاومة الضغوط الأمريكية حول تحديد المساحات المزروعة لنبات الكوكا.

في السياق نفسه تعمل أمريكا على تطوير أكبر مشروع تسليح جوي في تاريخها بصناعة الطائرة f3 والتي تقوم عليها شركة لوكهيد مارتن. لا أدري لماذا هذا الولع الأمريكي بصناعة الحرب. رغم أنها جغرافيًّا دولة آمنة يصعب غزوها، حيث يحاوطها الأطلسي والهادي من جهتين فيما يمثل موانع طبيعية.

(4)

هوس نجوم هوليود باشتراء السيارات المصفحة المقاومة للرصاص الكبير. مطرب الراب كاين ويست يشتري سيارتين مصفحتين من طراز (إيرن دايموند)، قيمة الواحدة مليونا دولار. من الممكن أن يعيش هذا المطرب ويموت دون أن يقذفه أحد بزجاجة ماء فارغة. لكن مليارات الدولارات تنفق حول رفاهية لا حاجة لها.

في الإسلام تجدين توازنا بين: (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق)، حتى يؤكد على أن الأصل في الحياة الزينة والرزق والنعم، وأن دائرة الحلال واسعة رحبة ودائرة التحريم ضيقة محدودة. ما يجعل حياة الناس تلقائية سهلة غير مليئة بالمخاوف والكهنوت.

وإلى جوار ذلك تجدينه في عشرات الآيات يحث على الزهد والترفع وعدم التحرك المحموم خلف اللذة والإفراط في المتعة، فيذكرك بأن الحياة الدنيا (لعب ولهو وزينة وتفاخر) أيضا (وما عند الله خير وأبقى) ويحذرنا أن نكون من الذين (غرتهم الحياة الدنيا).

هذا الفراغ الروحي لن يملأه إلا الدين. وهذا التنازل الاختياري عن الإفراط في الملذات لن تجدي له دافعا أقوى من الإيمان بالله. وأثره على الحياة يكون مبهرا. مئات المليارات من النفقات الرفاهية على الدروع المقاومة للرصاص، من الممكن أن تصب في صالح تطوير البحوث الزراعية والطبية، ومساعدة الفقراء، والتقليل من الاحتباس الحراري وتغير المناخ، والتصحر.

لا تزال كلمة بلزاك حاضرة: خلف كل ثروة كبيرة تكمن جريمة كبيرة.

(5)

في الأخير، لن ننسى جرائمهم في حقنا عزيزتي. لن ننسى أن بريطانيا عندما كانت تحتل الشرق عينت على أرض فلسطين مندوبا ساميا صهيوني الهوى، هربرت صامويل، عام 1922، ليشرف على عمليات هجرة وتوطين اليهود في أرض فلسطين تمهيدا لأكبر جريمة سرقة في تاريخ الشعوب الحديثة. لتزرع بريطانيا سببا رئيسيا للصراع والحروب والقتل لأكثر من نصف قرن من الزمن.

خاتمة

عندما قبض اليهود على السيد المسيح بتهمة نشر أفكار هدامة في المجتمع، كان ذلك بوازع من المؤسسة الدينية اليهودية، ورجال الدين. ثم قدموه للوالي الروماني، حاكم المدينة، وكان وثنيا. وطالبوا بإعدامه. لكن الوالي كان يرى في ذلك مهمة ثقيلة. وكان يقف إلى جوار المسيح في المحاكمة لص مقبوض عليه اسمه باربس. فأراد الوالي أن يصدر عفوا رئاسيا يشمل أحدهما، وهو يختار المسيح. فرفض الناس، واختاروا اللص، لعفو الإمبراطور.

هؤلاء الناس كانوا متساهلين مع اللصوص والفاسدين، ذلك لأنهم يشبهونهم، أو لأنهم يتعاطفون مع أجزاء من طباعهم التي يخفونها عن الجميع. إنهم يعلمون أنه من الممكن أن يكون أحدهم مكان هذا اللص يوما ما. لكنهم لا يتسامحون مع الذي يثير عقولهم على التفكير لنقد موروثهم القديم، أو الذي يحررهم من إرث الماضي الثقيل ليصنعوا حياة معقولة. كان بارابس قاطع طريق ومثيرا للشغب. وكان المسيح مصلحا دينيا واجتماعيا ولا يحوز أي قوة غير كلماته الهادئة. لكن الجموع الهائجة ارتضت أن تعايش وتعفو عن قاطعي الطريق، وتصلب صاحب الرسالة.

كان من الصعب أن يتصالحوا مع المسيح أو يقبلوه ليعيش بين ظهورهم، لأن وجهه يذكرهم أنه أرقى وأطهر قلبا. كان يذكرهم دوما بغبائهم ومكرهم وشرورهم الدفينة. وهم ضعفاء أمام هذا الانكشاف، وبدلا من الشروع في مواجهة التغيير، اندفعوا إلى الهستيريا الجماعية، وقتل الرسول بدعوى حماية المجتمع من أفكاره الهدامة.

لا أدعي أني المسيح، ولا أتهم الرافضين أنهم أتباع بارابس. لكن عسانا ألا نكرر أخطاء الماضي.

محمد الدويك
القاهرة 2016
كاتب صحفي مصري
باحث متخصص في الفكر الإسلامي

في كيان للنشر والتوزيع ، هدفنا نشر كل إنتاج إبداعي، جودته عالية، وأفكاره أصيلة، في مختلف مجالات الأدب والسياسة والصحافة والفن، باللغة العربية والإنجليزية. نهتم بالمواهب، ونرعاها، ونتيح لها فرصة الوصول للقارئ العربي، مع مراعاة أفضل معايير الجودة والاحترافية في النشر.

رسالتنا في كيان، تشجيع حب القراءة والكتابة في مصر وعالمنا العربي، وتطوير مهارات الإبداع، وتعزيز ثقافة التميز والابتكار. كُتَّابنا موهوبون، متمرسون، مصريون، ومن جميع أنحاء الوطن العربي، وإصداراتنا متنوعة، متميزة، مختلفة. دائمًا نرحب بالكتاب الشباب، والمواهب الجديدة، ونعطي فرصة متساوية للجميع؛ لأن مرادنا هو الارتقاء بفنون الأدب العربي ككل، والوصول بالإنتاجات الابداعية العربية إلى العالمية .